زجر الأنام عن النظر إلى الحرام

ومتعلقاته من مسائل وأحكام

أبواب الكتاب:

بدايات تحذيرات وعظيات

معالجات مأثورات

انتكاسات فقهيات

لفضيلة الشيخ/ عبد الله رفيق السوطي

الأستاذ الجامعي وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

زَجْرُ الأَنَامِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ

ومتعلقاته من مسائل وأحكام

لفضيلة الشيخ/ عبدالله رفيق السوطي

الأستاذ الجامعي وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الإصدار الأول

مكتبة السوطي

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

أبواب الكتاب:

بدايات **تحذيرات** وعظيات معالجات **مأثورات** انتكاسات فقهيات

بسم الله الرحمن الرحيم

نـــــــور من الـــــــنـــــــور

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [سورة النور:٣٠-٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥-٧] .

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة النساء:١٠٨].

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يوسف:٢٤].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [سورة غافر:١٩].

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [سورة العلق:١٤].

صدق الله العظيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، المطلع على خلقه أجمعين، من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ولا تغادره صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: {مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، البشير النذير، والسراج المنير، الهادي إلى سواء السبيل، من عُرضت عليه أعمالنا كلها، حسنها وسيئها: "عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا: الْأَذَى يُنَحَّى عَنْ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ" رواه مسلم، فإما يُسر ﷺ بأعمالنا، ونبيض وجه حبينا ﷺ في ذلك اليوم العظيم{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [المطففين: ٦]، أو تسيئه أوزارنا، ونسود وجهه ﷺ كما عند ابن ماجه وغيره: "فلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي"، خاصة بذنوب تذهب الطاعات، وتمحي القربات، وتحيلها لرماد بعد أن كانت من الجبال: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ -عز وجل- هَبَاءً مَنْثُورًا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا" رواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

لحديثي في هذا السِفْر المبارك -الذي طال ولم أكن أتوقع ذلك- حديث ذو شجون، وطارق ثاقب للعقول والقلوب، نتنقل فيه بين مخاطر، وخواطر، ونوادر، ودرر جواهر، تسعف المريض، وتحيي القلب الرميم، وتعالج خطر العصر اللئيم، وذنب أبنائه العظيم، وجرمه العميم، ذلك الداء الذي عم وطم، وتحسن وتجمل، وافتتن به ملايين من افتتن، حديث ينقذ المجتمعات الإسلامية، ويعيد النظر بقوة وتأصيل شرعي، وأدلة نقلية وعقلية، يخاطب القلوب والعقول، ويصل للصغير والكبير، ويفهمه الجميع كما نأمل ذلك من السميع العليم: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧].

أسباب التأليف

وليس بغريب موضوعه عن من عاش في عصرنا، وذاق مرارة زماننا في إدمان الإباحية، وجرم هذه النظرات الشيطانية، والكوارث العصرية، الذي ابتلي بهذا البلاء الملايين من البشرية، ولم تأتِ هذه الإحصائيات من فراغ أبدًا، بل هي إحصائيات البواب، ومن لا يمكن دخول النت إلا عبره مهما كان، وفي أي مكان وزمان، إنه محرك البحث الأكبر قوقل Google نعم قوقل ذلك الذي نعرفه جميعًا، وندخله في اليوم لربما مرارًا، ذكر إحصائية مرعبة، وصادمة، ومؤسفة، ومقلقة، ومؤرقة، ومؤسفة -ووالله- ما وردني أشد على قلبي منها منذ سنوات، ولا يجز في نفسي أعظم منها منذ عرفت الحياة، أقولها وأنا أعلم ما أقول، وأحصي

في سجل مذكراتي مواقف حياتي، وأعظم محطاتي، إنها تلك الإحصائية الرسمية التي أثبتت بالحرف الواحد أن الجمهورية اليمنية هي أول دولة عربية وإسلامية تبحث عن الجنس والدعارة في النت، إحصائية يقينية قطعية صادمة، بل قاتلة، ومؤرقة، ومؤسفة اطلعني عليها أحد طلابي، فمن لحظتها قررت قرارًا لا رجعة بعده، ولا نقاش معه مهما كلف من وقتي، وأخذ من عمري، وسلب من جهدي أن أؤلف هذا الكتاب، ولا ألوي على شيء سواه من تأليف مهما كان، بل أوقفت كتابًا كنت على وشك إتمامه فرأيت هذا حديث الساعة، وواجب اللحظة، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

ثم سبب آخر أرغمني على الكتابة، وأكدتها لي الإحصائية لقوقل السابقة، هي الأسئلة التي تردني حول هذا الموضوع بشكل يومي أقطع أنه لم يفتني يوم من الأيام منذ سنوات إلا وسؤال يأتيني حول هذا وما في معناه، وبالتالي وجبت عليّ الكتابة حوله؛ لأريح نفسي من كثرت الأسئلة، وأوفّر جهدًا لعلاج هذه المعضلة، والتحذير من هذه الكارثة، وفعلت ذلك كمنشور مصغر لا بأس به بنفس عنوان الكتاب الذي بين يديك: "زجر الأنام عن النظر للحرام"، ولاقى المنشور رواجًا واسعًا بحمد الله، بل طلب مني بعض الإخوة طباعته، وإلصاقه كلوحات حائطية في المساجد، أو توزيعه ورقيًا، ثم بدا لي إخراجه في هذا الكتاب بعد أن اطلعت على الإحصائية السابقة.

ثم سبب ثالث حثني وبقوة للكتابة في هذا الموضوع هي تلك القصص المأساوية التي وردتني لشباب أحسبهم من الصالحين، وأراهم من المنيبين المخبتين، بل وحفظة القرآن الكريم، وفوق هذا ممن يعتلون المنابر، ووُهبوا من العلم والصلاح الحظ الوافر لكن زلات شيطانية، ووساوس نفسية، وأهواء ورغبات شبابية، وما إن يفعلوا حتى يندموا، ويتضرعوا، ويقلقوا، بل قد هَمّ بعضهم بالانتحار، وبعضهم ترك المنابر؛ خوفًا من حديث عظيم، وهول جسيم، وكلام كبير للنبي الأمين ﷺ كما في البخاري ومسلم وأحمد: عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟، فَيَقُولُ: بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"، وفي رواية: "إِنِّي كُنْتُ آمُرُكُمْ بِأَمْرٍ وَأُخَالِفُكُمْ إِلَى غَيْرِهِ")، وفوق هذا عباداتهم وطاعاتهم، وصلواتهم، واستقامتهم، وكل حسنة عملوها، وكل طاعة تقربوا إلى الله بها تذهب أدراج الرياح، وتكون كما قال الله ﷻ: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩]، وكما قال في أخرى: {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: ١٨]، وانظر بما خُتمت به الآية: {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}، فضلًا عن قوله ﷻ: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣].

فهذا كله أرعبهم، وخوفهم، وجُن به جنونهم، خاصة مع حديث ابن ماجه وصححه الألباني عَنْ ثَوْبَانَ ﵁ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (" لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ - عز وجل - هَبَاءً مَنْثُورًا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا")، فلم ينفعهم قيام، ولا صيام، ولا عبادة نهار ولا ظلام ما داموا يستترون من الخلق، ويبارزون الملك الحق ﷻ: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٧ - ١٠٩].

فوجلوا من ذلك وحق لهم فأراهم يتلهفون للتوبة، ويتحسرون كل الحسرة، ويودون لو ماتوا وما عصوا الله ﷻ مرة، ولكن تلك النفس تأبى عليهم بعد فترة وفترة، وبين فينة وفينة، وقد يعاهدون الله جل وعلا ثم ينقضون، ويحلفون ثم يحنثون، وينذرون ثم لا يوفون، بل إن بعضهم ليطلّق زوجته حتى ترتدع نفسه لكن دون فائدة، فكان هذا وأكثر مما أصف لك، وأعظم مما أحدثك هو السبب الثالث الذي جعلني أؤلف هذا الكتاب.

ولا أراك بعد هذه الأسباب الثلاثة -بل هي للثلاثين أقرب لكن اختصرت- إلا تعذرني أن أطلت؛ فلقد كنت أكتب ولا أستطيع التوقف، وتردني الخواطر

والمعلومات تباعًا دون إذني، حتى لقد كنت أستغرب وأعجب لها، وكيف تزاحمني، وتتراكم عليّ، بل كانت تتداخل معلومات عدة، وتظهر عناوين كثيرة وأنا أكتب فأقوم بإخراج كل واحد منها فورًا في عنوان فارغ، ثم أكتب فيه كلمات ثم أعود للأول، وهكذا طال الكتاب من حرقة قلب، ونخوة محب، وعزيمة من يريد لك الخير مهما كلفه من ثمن؛ فأنت كل شيء ما دمت ستنتفع.

وقد تسألني عن تقسيم الكتاب فأقول: جعلته على ستة أبواب، تحت كل باب قد تصل لمائة عنوان بين صغير، متوسط، وكبير، ولهذا ما تحت الباب لم أجعله في فصول أو مباحث، والأبواب هي:

الباب الأول: بدايات

الباب الثاني: تحذيرات

الباب الثالث: وعظيات

الباب الرابع: معالجات

الباب الخامس: مأثورات

الباب السادس: انتكاسات

الباب السابع: فقهيات

وبعد هذه المقدمة، والإطلالة السريعة وكأني بك تتشوق لمضمون الكتاب، وعناوينه، وما احتوت سطوره، فعلى بركة الله نبدأ:

الباب الأول:

بدايات

لا بأس هنا أن أمهد لك بممهدات، وأعطيك مقبلات، وأهبك منشطات حتى ندخل في صلب الكتاب فأقول:

مأساة

ولو أحصيت ما وردني قبل تأليفي للكتاب من قصص مأساوية، وانتكاسات كارثية، ونزغات شيطانية بسبب النظر المحرم، والإثم الأعظم لكانت بالمئات؛ كيف لا وكل يوم عادة أتلقى سؤالا، أو استشارة، أو قصة، أو استغاثة، أو أنين، أو تلهّف... بل يصل بكثير منها لحالة الطلاق بين الزوجين، وإن حافظا على أسرتيهما فعلى مضض، ونيران حسرات، ويكتوي كل واحد منهما بجحيم لا ينتهي، وهم لا ينطوي، لكن من آخر القصص التي وردتني وأنا في تأليفي لهذا الكتاب هي قصة ذلك الطالب الجامعي، المحافظ على عباداته، وصلواته، ومسجده، ومصحفه، وجامعته، وأعلى الدرجات فيها، وأرقى الاحترام المجتمعي، لكن خسر كل ذلك، وانتهى تميزه الدراسي، ونبوغه العلمي، وعقله الفطن الذكي، وذبُل احترامه، وقلّت عباداته، وتعقّدت حياته، وشيئًا فشيئًا انهار تمام الانهيار، وودع كل تلك الحياة، وابتعد كل الابتعاد فلا مسجد، ولا عبادة، ولا أخلاق، ولا دراسة، ولا درجات.

لماذا الشباب!

وأكثرت من ذكر الشباب في هذا الكتاب كثيرًا؛ لأن الشباب هم المعرضون للفتنة أكثَر ممن دونهم، ولأن سهام الأعداء تتجه نحوهم، ولأنهم أمل أمتنا، وصنّاع حضارتها، وقادة استعادة مجدها، وبصلاحهم تصلح الأمة، وبفسادهم تفسد، فإذا انشغل الشاب بفرجه وشهوته فمن لأمته، خاصة ونحن أمام فتنة عمياء صماء بكماء من دخلها قلما يخرج منها، ومن أدمنها فلن ينتفع بنفسه فكيف ينفع غيره، ويستحسن هنا أن أنقل كلامًا لابن الحاج تقشعر منه الأبدان فيقول: (ووقع الإجماع على أن النظر أعظم الجوارح آفة على القلب، وأسرع الأمور في خراب الدين والدنيا)، قال ابن الجوزي -رحمه الله- في رسالته الصغيرة "تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر": (وهذا هو الموسم الأعظم ُالذي يقعُ فيه الجهادُ للنَّفْسِ والهوَى، وغلبةِ الشَّيطَانِ، وبصيانَتِه يحصُلُ القُربُ مِن اللهِ تَعالى، وبالتفريطِ فيه يقعُ الخُسرانُ العَظيمُ، وبالصبرِ فيه على الزللِ يُثْنَى على الصَّابِرينَ كما أثنَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلى يُوسُفَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ لو زلَّ مَن كانَ يَكونُ؟! قال النبي ﷺ:"عَجِبَ ربك من شابٍّ ليسَت لهُ صَبوةٌ"[١]، ويقُول اللهُ تَعالى: (أيُّها الشَّابُ التَّارِك شَهْوتَه مِنْ أَجْلِي، أَنْتَ عِنْدِي كَبَعضِ مَلاَئِكَتِي)[٢]، "وكان خلقٌ كثيرٌ يتأسَّفونَ في حال الكِبَرِ على تضييعِ موسمِ الشَّباب ويبكُونَ عَلَى التفريطِ فِيهِ، فليُطِلِ القيام من

---

(١) – رواه أحمد وأبو يعلى وصححه الألباني ونصه: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ ".

(٢) – وليس بحديث قدسي إنما هو من كتب السابقين.

سيقعُد، وليُكثر الصِّيامَ مَن سيَعجزَ، والناسُ ثلاثةٌ: من ابتَكَر عُمرَهُ بالخيرِ ودامَ عليهِ، فذلكَ منَ الفائِزينَ، وَمَن خلَّطَ وقصَّرَ فَذلِكَ مِن الخَاسِرينَ، وَمَن صاحبَ التفريطَ والمعاصِي فذلِكَ مِن الهالِكينَ، فليَنظُرِ الشابُّ في أيِّ مقام هوَ، فليس لمقامه مِثْلٌ، وليتلمَّح ثمَنَ بضاعته وشرفَها المُستَوفَى، فالصَّبرَ الصَّبرَ؛ فإنَّ الساعيَ يَصبِرُ على النِّكَاحِ مع كونِهِ شابّاً شديد الشَّبَقِ فيُقَال له: أحسنتَ!، فَليصبِرِ الشّابُ ليُقَالُ لهُ: {هَذَا يومُكُمُ الذِي كُنتُم تُوعَدُونَ} [الأنبياء :١٠٣]، وليحذر زلله في الشباب؛ فإنها كعيب قبيح في سلعة مستحسنيها، ومن زل في الشباب فلينظر أين لذتها! وهل بقي إلا حسرتها الدائمة التي كلما خطرت له تألم، فصار ذكرها عقوبة، ومن خرق ثوب التقى بيع بالخلق والمكسور، قال الجنيد -رحمه الله- : لو أقبل عبد على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان الذي فاته أكثر مما حصل له، وكان بعض السلف -رحمه الله- يقول: "وددت لو أن يدي قطّعت وغُفر لي عن ذنوب الشباب"، وقلت يومًا في الوعظ: أيها الشاب أنت في بادية، ومعك جواهر نفيسة، وتريد أن تقدم بها على بلد الجزاء، فاحذر أن يلقاك غرار من الهوى، فيشتري ما معك بدون ثمن، فتقدم البلد فترى الرابحين فتفقع أسفًا، وتبكي لهفًا، وتقول: {يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ} [الزمر: ٥٦]، هيهات أن يرد الأسف ما سلف)(١).

(١) – تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر لابن الجوزي (ص: ٢).

التربية في سن المراهقة

وهذا السن هو أخطر سن يمر به الإنسان، وأصعبه، وأشده، والكل لا بد أن يمر به، فيجب على الوالدين مادام وقد مرت بهم هذه المرحلة وهذا العمر أن يحرصوا على تربية أبنائهم، ومعاهدتهم، ونصحهم وتقويمهم، وصونهم من الحرام على الدوام، وإشغالهم بما ينفعهم، وإن تركوهم خلاله للفساد فسدوا وأفسدوا حتى الممات، وصعبت عودتهم في غالب الأحوال، قال ابن الجوزي -رحمه الله- في رسالته الصغيرة "تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر": (فإذا راهق الصبي فينبغي لأبيه أن يزوجه؛ فقد جاء في الحديث: (من بلغ له ولد أمكنه أن يزوجه فلم يفعل، وأحدث الولد إثماً كان الإثم بينهما)[(١)]، والعجب من الوالد كيف لا يذكر حاله عند المراهقة،

---

(١) – لا يصح عنه عليه الصلاة والسلام قال في بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام (٣/ ٦٢)،: (عن ابن أبي لبيبة، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ "من بلغ له ولد، وعنده مال بما ينكحه فلم يفعل، فأحدث فالإثم عليه "، ولم يعبه بسوى الإرسال، وهو أخف ما فيه؛ فإن كل هؤلاء مجهولون وإن كان ابن أبي لبيبة محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة، فهو لا شيء، وأبوه وجده لا يعرفان)، والأحكام الوسطى من حديث النبي ﷺ، المؤلف: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: ٥٨١ هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، صبحي السامرائي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م.

وما لقي وما عانى بعد البلوغ، أو كان قد وقع في زلة فيعلم أن ولده مثله، قال: إبراهيم الحربي: أصل فساد الصبيان بعضهم من بعض).

ضعف الشخصية أو الطيبة الساذجة

وأحدثك هنا عن علة، وداء، ومرض لدى كثير من الضعفاء المغفلين الذين ينجرون مع كل أحد، وعلى استعداد بالتواصل مع كل من تواصل، وتراه أيضًا يراسل الجميع، ولا يستطيع مغادرة المجموعات، أو حظر الأشخاص، أو قول لا وعفوًا، أو أنت غلطان، واتق الله، ولا يجوز، وهذا حرام، بل من راسله استقبله، ومن قال أحبك سلب عاطفته، وباختصار طيبة ساذجة لا يقول لشيء لا لو قيل له ما قيل، وحديثي للجميع رجالًا ونساء، ويصدق عليه ما جاء عند النسائي: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (إِنَّ عِنْدِي امْرَأَةً هِيَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَهِيَ لَا تَمْنَعُ يَدَ لَامِسٍ، قَالَ: "طَلِّقْهَا"، قَالَ: لَا أَصْبِرُ عَنْهَا، قَالَ: " اسْتَمْتِعْ بِهَا")، وهذا الضعف يؤدي بالشخص إلى ما لا نهاية من الانجرار وراء الساقطين والساقطات، بل كلما قام سقط، وكلما نهض قعد، ولا يزال كذلك حتى لا يعود للأبد، ولا يفكر في توبة بتاتًا، ويمر عليه الذنب الذي كان قبل عام يراه جريمة وكبيرة يراه اليوم فضيلة، ومن الطبيعي، والعادي: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [المطففين: ١٤ - ١٧]!.

شتان بين نت ونت

النت سلاح ذو حدين، وسهم طائش في يد الفارس، وفرس مستعد جاهز بيد السائس، فمن استغله في خير نفعه ورفعه، ومن استخدمه في الشر أضره وقتله ووضعه، وكم من أناس نظروا فسقطوا، وتابعوا فهلكوا، ودخلوا وما خرجوا بل أدمنوا، واستمروا، ولم يستطيعوا الفكاك، ولا عن النت حراك، بل كم من أناس دخلوا النت حافظين لكتاب الله تعالى فخرجوا منه ناسيين، ولذنوبهم حاملين، وبأوزارهم معاقبين، وبجرائمهم سود الوجوه، وقساة القلوب.

كم هم أولئك الذين دخلوه بإيمانهم، وخرجوا صفر اليدين محملين ذنوبهم، دخلوه مليئة قلوبهم بالتقوى، فعادوا وقد جف القلب من كل شيء سوى البلوى، وكم أولئك الذين دخلوا النت أغنياء، فخرجوا مفلسين لا مال حافظوا عليه، ولا صحة تمسكوا بها، ولا بعقول حموها: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} [الرعد: ٣٤]!.

رائع ولكن...!

عالم الإنترنت عالم مليء بالخير والشر، والحلو والمر، وكما أن له إيجابيات فله سلبيات، والمستخدم هو الأساس والمحور الأهم، وهو كما يقال سلاح ذو حدين مثله مثل السكين يستخدم للخير وللشر، والمستخدم بيده كل ذلك، ولا ريب أن الخير الذي فيه أكثر من الشر، والمشكلة هي في المستخدم من جهة، ومن النت الذي يسر له هذا من جهة أخرى، خاصة بالدعايات والإعلانات، وعرض النساء الفاتنات، وعادة يكون بداية الحرام والإدمان والإجرام النظرة الأولى، مع ما هو مغروس في الإنسان من حب الشهوات والملذات: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]، وحُفّت النار بهذه الشهوات والرغبات والملذات فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ" رواه أحمد، فكان لزامًا علينا الاستيقاظ لهذه المعضلة العظيمة، والمصيبة الكبيرة، والفتنة الجليلة.

أنت المصيدة

إنهم يعدون عدتهم، وينشرون دعاراتهم؛ ليأخذوك لمراتعهم، ويدخلوك في حبائلهم: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: ٨٩]، وقال: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}[البقرة: ١٢٠]، وفي موسوعة الخطب: (قامت هذه الشبكات العنكبوتية اليوم بضخ أنواع الفواحش عبر العالم؛ فتجارة الجنس تقدر ٧٥ مليارًا من الدولارات، و١٢٪ من إجمالي مواقع الشبكة لتجارة الفاحشة، وأكثر من ٣٧٢ مليون صفحة تحمل الخنا والفجور، وبليونان ونصف البليون من رسائل البريد الإلكتروني، و٢٥٪ من إجمالي الطلبات لمستخدمي الشبكة في البحث عن أوكار الفواحش، ملايين الملايين يزورون المواقع المحرمة، بل صفحة واحدة في موقع واحد استقبلت خلال سنتين أكثر من ٤٣ مليونًا، وتزعم إحدى المواقع أنهم قد وزعوا أكثر من مليار مرة ٣٠٠ ألف صورة خليعة، وهكذا عندنا بالمملكة أكثر من٨٠٪من الذين يدخلون الشبكة يدخلونها في الحرام)، وشاهدت الحلقة الأولى من برنامج "ومحياي١" للدكتور وليد فتيحي فأكد ما يلي: (أجريت هذه الدراسة على ٤٠٠مليون بحث على الإنترنت كانت الصدمة: ١من كل ٨ هو بحث عن المواد الإباحية، و١١٦ألف بحث جنسي في اليوم، بل كل ثانية واحدة يقوم ٣٠ ألف شخص بتصفح مواقع إباحية، بل في السعودية وحدها ما يزيد عن٥٠ مليون بحث شهري عن مفردات جنسية، أي ما يزيد عن مليون ونصف المليون بحث في اليوم الواحد)، وهي أرقام مهولة، لكن ماذا عن أرقام بلدنا -اليمن- وهي الدولة الأولى عربيًا بحثًا عن هذه القذارات حسب قوقل!!.

الاقتصاد والدعارة

(تجارة الدعارة ثالث أكبر مصدر للجريمة في أمريكا، في الوقت الحاضر يوجد أكثر من تسعمائة دار سينما متخصصة للأفلام الإباحية، وأكثر من خمسة عشر ألف مكتبة ومحل فيديو تتاجر بالأفلام والمجلات الإباحية، بعد القمار والمخدرات الفاحشة، أماكن الحرام في أمريكا أكثر من مطاعم ماكتونلد بثلاثة أضعاف، المواقع الإباحية لا تمثل إلا ١٪ عدد المواقع الكلية في الإنترنت، لكن نحو ٩٠٪ من المشتركين في الإنترنت يدخلون على هذا الـ١٪، {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النور:١٩]، الغرب في زماننا بقيمه الفاسدة وأمراضه الخبيثة ومبادئه الذميمة لم يكتفِ بإفشاء الرذائل والمنكرات واستدعاء غضب الجبار، لكن يتمادى إلى محاولة تصدير هذه المصائب إلينا؛ ولذلك نجد جمعية مراقبة حقوق الإنسان "هيومن رايتس ووتش" تذم وتنكر أية محاولات لدول الخليج العربي لحجب الإنترنت، ويدعونها إلى الانفتاح والحرية!!)(١)، وفي الحلقة الأولى من برنامج "ومحياي١"، وكذا العاشرة من"ومحياي٢"، للدكتور وليد فتيحي-فك الله أسره-: (بلغت تجارة الدعارة ٢,٣بليون دولار، وتقدر صناعة الأفلام الإباحية حول العالم بأكثر من ١٠٠ بليون دولار، كل نصف ساعة يتم تصوير فيلمًا إباحيًا في أمريكا وحدها التي تنتج ما نسبته ٨٩٪ من المواد الإباحية ومواقعها حول العالم).

---

(١) – دروس للشيخ محمد المنجد (٦/ ٩، بترقيم الشاملة آليا).

لن يتركوك

إنهم يريدونك مثلهم، ويحبونك تشاركهم، ويودون لو تكون في النار وإياهم، إنهم لا يحبون الغواية وحدهم، ولا يرون سعادتهم إلا بمشاركتك لهم، ولهذا حذرنا الله منهم، ونبهنا حتى لا نتبعهم: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء: ٢٧]، {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} [النساء: ٨٩]، وكله حسدًا منهم على ما نحن فيه من دين الحق: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة: ١٠٩]، والناظر لكل الشرور إنما جاءت من اليهود والنصارى.

حجب الدولة للحرام

من أعجب العجائب، وأشد المصائب، وأنكى الجرائم أن تكون الدولة التي أمرها الله ﷻ بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من تنشر المنكرات، وتسهل الوصول للمحرمات، وتذلل أمامها العقبات: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١]، وإذا كانت كثير من الدول الكافرة، والحكومات غير المسلمة تحجب الحرام عن شعبها، وتحارب موقع الفساد عن مواطنيها، وتشدد الرقابة على ملهيات شبابها فما بال أمتنا، وأين وصلنا، وما الانحطاط الذي صرنا إليه، بل بتنا فيه، ألم يقل الله: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

والمتأمل في حديث صرف النبي ﷺ لوجه الفضل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النظر للمرأة وهي ساترة عفيفة طاهرة في مناسك الحج لهو أكبر دليل على وجوب حجب الدولة لمواقع الإباحية، وحساباتهم على وسائل التواصل الاجتماعي عامة، وتراقب كل من تسول له نفسه ذلك، وتمنع وتغرم وتجرم من ينشر ويخترق، ففي حديث حجة النبي ﷺ الطويل عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ -رضى الله عنهما- قَالَ: "كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ، فَقَالَتْ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لاَ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ" رواه البخاري ومسلم.

وكم آلمني، وأحزنني، وصدمني، وكرهت معه نفسي وحياتي ومن حولي حين أبلغني أحد طلابي بموضوع علمي دقيق، وإحصائية رسمية لقوقل أن أكثر دولة بحثًا عن مواقع الإباحية هي بلدنا الحبيبة اليمن التي تعاني أشد مآسيها، وتمر بأقسى حقبة زمنية عرفتها، بل هي أفقر دولة على وجه الأرض حسب منظمات أممية ومع هذا فللأسف شغلتهم فروجهم، وقتلتهم شهواتهم، وآلهتهم سلطاتهم بفتحها لهذه المحرمات، وسماحها بهذه الإباحيات، وتسهيلها لهذه الجرائم المغضبة لرب البريات، فماذا ننتظر بعد ذلك، وأي كوارث ستحل علينا، وما العقاب العام الذي ننتظره مادامت الفاحشة قد شاعت وطمت!.

لفتة قبل الضغطة

أخي مستخدم الانترنت: إذا ضغطت بأناملك على لوحة المفاتيح للاتصال على أحد المواقع، أو وسائل التواصل، أو أي مكان كان في عالم الإنترنت، وقبل أن تضغط على مفتاح الإدخال، تذكر أن الله ﷻ أقرب إليك من حبل الوريد، وقادر على أن يأخذك من لحظتك، وأنت على معصيتك وجرمك، واستحضر هذه الآيات معك، واجعلها أمامك، ومحفورة في جدار قلبك: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وسواء الأخذ الفردي أو الجماعي: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]، بل فوق هذا: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس: ٦٦، ٦٧]، وماذا إلا لأنه القائل: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٥ - ١٧]، فكيف بفقير مثلي ومثلك يعاند الجبار جل في علاه، ويغضب ربه تبارك وتعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]، فقل لي بربك إلى أين أنت ذاهب: {وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج: ٢٧، ٢٨]!.

النظر للحرام طريق الإلحاد

قد تعجب من كلامي كما عجبت أنا عندما قرأت وعلمت، وقد اندهلت لهذا في أول وهلة، وكررت النظر فوجدته عين الصواب، والحق الذي لا يعاب، خاصة بعد تفصيل وتأصيل للموضوع، ومن رجل ثقة هو الأستاذ أحمد السيد في كتابه سابغات[1] حيث ذكر أن من أسباب الإلحاد وترك الدين بالكلية مشاهدة الحرام؛ إذ الشرع يمنعهم منها، ووخز الضمير يؤنبهم عليها فيستثقلون التكاليف الشرعية بعدها، ويستسلمون للأهواء الشيطانية، ثم يرون في غير الإسلام فسحة فيتجهون إليه طواعية.

---

(١) - راجع ص٢٥ من كتاب "سابغات للتعامل مع الشبهات"، الطبعة الثالثة، تكوين للدراسات والأبحاث.

تسلم إيمانك ثم تدخل

كن على يقين أن القلب المليء بالإيمان لن تجده في محل القاذورات، وملتصقًا بالحشوش والمحرمات، وساقطًا في الموبقات، وغارقًا في بحر الشهوات، بل هو يسلّم الإيمان قبل ذلك ثم يدخل للحرام وقد خلا قلبه من ربه ﷻ، ودخل الشيطان وحزبه، وفي البخاري ومسلم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ"، وفي كتاب الله خير دليل: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]، فأول ما تفقده، وأول ما تتخلى عنه قبل المعصية بل بمجرد التفكير المتعمق فيها الذي يجر بعده إليها هو إيمانك، هي الدرجة العلية، هي المنزلة التي تقترب من الله ﷻ، فما ربحت وقد سلمت إيمانك، وتركت مولاك، وأصبحت في حزب شيطانك، وعبدت نفسك!.

لا تسقط سقوط الذباب

عجب لعبد يتشبه بالذباب، ويرضا لنفسه الهوان، ويختار طريق العصيان، فيدخل النت ومجاله الرحب الفسيح ليسقط على كل مسخ ورذيلة، وينحط في كل سفاهة عجيبة، ويتخير الجلوس بين أشر الخلق، وأسفه البشر، وما ذاك إلا دليل خبث القلب؛ فكلما خبُث القلب سقط في الخبائث، وكلما طاب سقط على الطيبات، كالنحلة لا تقع إلا على الطيب، ولا تضع إلا إياه، فالمؤمن باختصار لا يقع إلا على الطيب، ولا يرى إلا الطيب، ولا تسقط عينه وكل جوارحه إلا عليه، ولا يشغل باله سواه، ثم يكون كذلك له خالصًا يوم القيامة: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٢]...!.

فاحذر أن تكون أكيس منك فتترك مجالسة الأخيار الذين تتداعى الملائكة للجلوس إليهم، وتتحلق بعالم الأشرار الذين تتهافت الشياطين حولهم: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران: ١٧٩]، { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال: ٣٧]، {قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ١٠٠]!.

أتبيع بيتك بفلس

احذر أن تدخلك عينك النار، ويبعدك فرجك عن مقامك في الجنان عند الرحمن ﷻ: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٤، ٥٥]، وتوصلك لحظات الحرام في العذاب الأليم، بل تنسى كل لحظات عمرك بغمسة في الجحيم، فليس بعاقل من باع جنة عرضها السماوات والأرض بلحظات منسية من شهوة مقضية، ولا والله ليس بعاقل من باع داره في الدنيا بفلس فكيف بمن باع جنته بما هو أبخس، قال ابن القيم -رحمه الله-: (وكيف يكون عاقلًا وافرَ العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنّه يراه ويشاهده، فيعصيه، وهو بعينه غيرُ متوارٍ عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كلَّ وقت غضبَه عليه، ولعنتَه له، وإبعادَه من قربه، وطردَه عن بابه، وإعراضَه عنه، وخذلانَه له، والتخليةَ بينه وبيّن نفسه وعدوّه، وسقوطَه من عينه، وحرمانه روحَ رضاه وحبّه، وقرةَ العين بقربه، والفوزَ بجواره، والنظرَ إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية، فأيّ عقل لمن آثر لذةَ ساعةٍ أو يوم أو دهرٍ، ثم تنقضي كأنّها حُلْم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم، بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجّة لكان بمنزلة المجانين، بل قد يكون المجانين أحسن حالًا منه وأسلم عاقبةً، فهذا من هذا الوجه، وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيشي، فلولا الاشتراك في هذا النقصان لَظهَر لمطيعنا نقصانُ عقلِ عاصينا، ولكن الجائحة عامّة، والجنون فنون!.

ويا عجبًا لو صحّت العقول لعلمتْ أنّ طريق تحصيل اللذة، والفرحة والسرور، وطيب العيش إنما هو في رضا مَن النّعيمُ كلُّه في رضاه، والألمُ والعذابُ كلُّه في سخطه وغضبه؛ ففي رضاه قرّة العيون، وسرور النفوس وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، مما لو وُزِن منه مثقالُ ذرّة بنعيم الدنيا لم يفِ به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرضَ بالدنيا وما فيها عوضًا منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظمَ من تنعّم المترَفين فيها، ولا يشوب تنعّمَه بذلك الحظّ اليسير ما يشوب تنعّمَ المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال الله سبحانه: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٠٤].

فلا إله إلا الله، ما أنقَصَ عقلَ من باع الدرَّ بالبعر، والمسكَ بالرجيع، ومرافقةَ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم، ولَعَنهم، وأعدّ لهم جهنَّم وساءت مصيرًا!)(١).

---

(١) – الداء والدواء ط مجمع الفقه الإسلامي(١/ ١٩٥).

إياك والقاذورات

همك ما أهمك، وقيمتك تكمن فيما شغلك، فاختر لنفسك مستقبلك ودنياك وأخراك وكل ذلك بيدك لا بيد إنسان غيرك، فإن أسقطتك همتك لمتابعة القاذورات، والنظر للمحرمات، والتجول في النجاسات، فويل لك ثم ويل لك، وكل أحد إنما سقط لسقوط همته، وما ارتفع إلا بارتفاع همته وعزيمته، وشتان بين همة تنظر في الحلال، وتتقلب في كل مفيد ونافع، وهمة سقطت في كل خبيث وضار، ولله در الهمم ما أعدلها همة تحوم حول العرش، وهمة تحوم حول الحش، والقلب كالطير كلما علا بعد عن الآفات، وكلما هبط احتوشته الآفات، فارفع همتك، ونقِّ قلبك، واعلم أن الله لا يقبل إلا ما كان طيبًا، ويبغض الخبيث وما كان خبيثًا: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠].

هذه بتلك

نعم هذه بتلك، والبداية منك، وأعني بها قول الحبيب ﷺ: "احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ"، فابدأ أنت بحفظك لربك يحفظك مما يشغل بالك، ويقطع تفكيرك، ويصرفك عن طموحاتك، واجتنب الوقوع في مهاوي الذنوب يصرفها عنك، ويصرفك عنها كما صرف يوسف عليه السلام، وسيحميك من الانزلاق في بحرها، ويبغضها إليك وما حولها، ويبغضها لك كما يبغض أي شيء لقلبك: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، وانظر كيف علل الله تعالى لماذا صرف الحرام عنه: " مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ"، فيا من يريد من الله أن يحفظه من قاذورات الذنوب الزم طاعته، وكن حقًا من عبّاده، واكثر من ذكره، وعليك بالإخلاص في كل شأنك، وتجنب معاصيه يجنبك ويبعدها عنك، واحفظه بطاعته يحفظك من معصيته، ويصرفك عنها: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، فالتعليل الواضح الدائم: أن الطاعات تحميك من السيئات.

دور الشيطان في أحاديث الرجاء!

ليست المشكلة فيمن يعصي ولا يبرر، ويذنب ولا يستدل، إنما الكارثة الكبرى، والمعضلة العظمى فيمن يعصي ربه ﷻ ثم يسلي نفسه بأحاديث الرجاء والمغفرة، وعفو الله عن عباده، وأنه غفور رحيم، وأنه يغفر الذنوب جميعًا، وأنه من أحد معصوم، وأنها صغائر، وأن النبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"، وحديث: "مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ"، وما علم ذلك المسكين أن كل أحاديث الرجاء مجتمعة ومنفردة إنما هي مقيدة بكل قيد، ومعصومة بكل عصام، وأن كل حديث له بابه ومجاله، وأنها ليست للبطالين، ولا للعصاة المكثرين، ولا لأولئك الذين يأخذون من الدين ما يشتهون ويدعون ما يؤمَرون، فلا تغتر بها، ولا تستدل بالوحي ضد الوحي، وتترك بعض الدين وتكفر بأكثره بل بكله: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } [البقرة: ٨٥، ٨٦]، ولو افترضنا فرضًا، وسلمنا جدلًا أنها تصح له فأحاديث الرجاء تسر المؤمن ولا تغره، وتدفعه ولا تقعده، وتوجهه ولا تثبطه، وأنه يزداد بها رفعة وعلوًا، وليس معصية وذلًا، وحاش الوحي كتابًا وسنة أن يشجعا على معصية الرحمن، ويبيحا للعاصي الجرائم كيفما شاء، بل كل تفكير بذلك، ومحاولة للاستدلال بها هو دليل عدم قبوله منه مهما تعبّد الله بها: {إِنَّمَا

يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]، ثم من خير هو أم آدم عليه السلام من نفخ فيه ﷻ من روحه، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته ومع هذا كل ذلك لم يشفع له بعد معصية واحدة فقط، ومخالفة واحدة للواحد الأحدﷻ؛ فلا محاباة عند رب العالمين -جل وعلا- ولا محسوبية، فمن أطاعه نال رضاه، ومن عصاه أبغضه وقلاه[1]، فقبل أن تعصي ربك، وتنغمس في شهوتك، وتقع في حضن شيطانك تذكر أن معصية واحدة أخرجت آدم وزوجه من الجنة، فكيف بمعاص عديدة، وذنوب متلاحقة، وكبائر متواصلة: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ١٩ - ٢٥].

---

(١) – وتجد أفضل وأحسن كتاب يتحدث عن هذا وبكل إبداع وجمال وإقناع كتاب ابن القيم: الداء والدواء، أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي(له عنوانان).

وطاعات لا تمنعك من معصية الرحمن فاتهمها؛ فلعلها لم تقبل، بل لم تصح في الأصل، ولم ينظر الله إليها؛ إذ قال: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، فكيف تأمرك بالمنكر، وتغرك به، وتدلك عليه كما تزعم، إذن فالأصل أن طاعاتك تحميك من المعاصي، وتمنعك من عدوك لا أن تقع في أسره، ولهذا قال عن نبيه يوسف عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، فعباداته الخالصة منعته عن الحرام، وصرفته عنه على الدوام.

منظر واحد!

لعل بمنظر واحد للحرام يغضب الله عليك غضبًا تبقى تعيسًا به كل حياتك، بل حدثني ما لا أحصي من الشباب أنهم أضاعوا مستقبلهم، وانتهت طموحاتهم، وقل حفظهم، وانحطت مراتبهم في دراستهم، وأعمالهم، وأرزاقهم، وصحتهم، وأظلمت الدنيا أمامهم، ولم يروا بعدها إلا كل شر...بعد سقوطهم في هذه القاذورات، ومتابعتهم لهذه الحماقات، وأنت لا حصانة لك من ربك تبارك وتعالى، فلا تأمن أن يصيبك ما أصابهم وأشد، وإن كان جاء دورهم فسيأتي دورك إن لم تذقه في كل حياتك، وإن أعماك شيطانك، وخبّطتك أهواؤك...!.

أو ما أتاك ذلك الحديث المفجع، والخبر اليقين المفزع، لا من أحد، بل من رسول الله ﷺ الناطق عن الملك الأوحد ﷻ فَعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا"، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"، يا الله ما أعظم، وأجل، وأكبر، وأخطر، وأشد مصيبتهم، أين قيامهم، وصيامهم، وصلواتهم، وصدقاتهم، وأذكارهم، وكل خير منهم، وكل حسنة صعدت لله ﷻ عنهم، لقد ذهبت، وتبخّرت، وكأنّ كل ذلك لا شيء، ولم يكن تعب، ولا نصب، ولا جوع، ولا عطش؛ كونهم عبدوا أهواءهم، وشياطينهم، وأرذل خلق الله على جوالاتهم، وشاشاتهم، عندما اختلوا عن الناس، ففتحوا الحرام، ونظروا لما

يستحيي منه الشيطان، ويستقذره حتى العقلاء، فكان حقًا على حسناتهم أن تذهب هباء، وصالحاتهم أن تختفي اختفاء في وقت هم أحوج لحسنة واحدة: ﴿يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخيهِ وَأُمِّهِ وَأَبيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنيهِ لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغنيهِ﴾[عبس: ٣٤-٣٧]، بل: ﴿يَوَدُّ المُجرِمُ لَو يَفتَدي مِن عَذابِ يَومِئِذٍ بِبَنيهِ وَصاحِبَتِهِ وَأَخيهِ وَفَصيلَتِهِ الَّتي تُؤويهِ وَمَن فِي الأَرضِ جَميعًا ثُمَّ يُنجيهِ﴾[المعارج: ١١-١٤]، ﴿فَلَن يُقبَلَ مِن أَحَدِهِم مِلءُ الأَرضِ ذَهَبًا وَلَوِ افتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُم عَذابٌ أَليمٌ وَما لَهُم مِن ناصِرينَ﴾[آل عمران: ٩١]...

وقد يقول قائل: لكني أصلي، وأصوم، وأقوم... فأقول: الجواب ما سبق، فضلًا عن شك في قبول أعمالك أصلًا؛ إذ لو نفعتك لكفّتك عن الحرام، ومنعتك من هذه الكوارث اللئام، والذنوب العظام، والخطايا الجِسام؛ فربنا ﷻ يحمي عبده المؤمن من الحرام كما يحمي أحدنا نفسه مما يضره وأعظم، بل عندما ترى أبواب المعاصي مفتّحة لك، سهلة عليك، لا يحجبك عنها حجاب، وليس بينك وبينها باب، فاعلم أنه دليل غضب الله، وسخطه عليك، وحقارتك لديه، وسقطت من نظره، وحفظه؛ إذ لو أحبك لحجبها عنك، وصعّبها عليك، وحيل بينك وبينها، وأبعدك عنها، وأبعدها عنك: ﴿وَلَقَد هَمَّت بِهِ وَهَمَّ بِها لَولا أَن رَأى بُرهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصرِفَ عَنهُ السّوءَ وَالفَحشاءَ إِنَّهُ مِن عِبادِنَا المُخلَصينَ﴾[يوسف: ٢٤].

شبهة ورد

ومن باب المناسبة، والشيء بالشيء يذكر فإن بعض الناس يتخذ ذريعة للحرام قوله عليه الصلاة والسلام: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ" وهو حديث عند مسلم لا إشكال في صحته، إنما الإشكال في فهم أصحاب الأهواء له، وقد اتصل بي أحدهم فرحًا بذلك فأبنت له أن الحديث يبيّن أن البشر في طبيعة أمرهم ليسوا بمعصومين من الذنوب، ولا يعني أن الحديث يأمرهم بالمعصية، ويجرأهم عليها، ويحثهم على ارتكابها -وحاشاه-، وأن ذلك لمن هفا ثم عاد وتاب وصدق فيعفو الله عنه، وليس من تعمد، واستمر، وأصر وانتظر المغفرة بدون سبب، وكل آيات المغفرة مقيدة بمثل التوبة كما في قوله: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: ٥٣] فهذه الآية فيها حث الله تعالى التائبين على التوبة، والرجوع إليه، وأن لا تعيقهم ذنوبهم عن العودة، وتصدهم عن التوبة ولهذا قال بعدها مباشرة: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الزمر: ٥٤، ٥٥]، ولو كانت المغفرة تحصل دون توبة لسقط القرآن والسنة بما فيهما بل الجنة بكلها: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: ٧٢]، {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٩]، {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٣٢]، وقل عن النار: {وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٤]، وعلى العموم فالآيات والأحاديث على إبطال هذه الشبهة لا يتسع لها مجلد بل مجلدات، ويكفي لمن عنده ذرة من دين ما سبق و: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، أما من اتخذ إلهه هواه فماذا تغني عنه لو أشربته الأدلة شربًا، وصببت له العلم صبًا: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية: ٢٣]، {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٣-٤٤].

هناك ستحتقر الطاعات فكيف بالموبقات!

ماذا لو كنت تسدد فواتير حسابات على نفسك، وبقائك، وشحمك، ولحمك، وعظمك، وسمعك، وبصرك، وكل خلية عندك، وجميع أعضائك، ونعم الله الموهوبة لك... كم مال ستجمع وتدفع، وكم ستقتصد، وتبخل، وكم ستحاسب نفسك، وكل شيء عندك، لكن ربك الذي وهبك كل ذلك لا يريد منك إلا أن تطيعه، وتترك استخدام ما أتاك من نعمه في معصيته، بل تسخرها لطاعته، وحسن عبادته، وليس هذا فحسب بل لو ظللت الدهر كله في طاعة الله لا تفتر طرفة عين، ولا تعرف له معصية، ولم تفكر في غير الطاعة لما كان ذلك يساوي شيئًا، ولحقرته يوم القيامة فكيف بمن هو مصر على الذنوب، ودائمًا وهو في بعد عن علام الغيوب ﷻ كما في مسند أحمد: عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ - عز وجل - لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وفي رواية: "لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ هَرَمًا فِي طَاعَةِ اللهِ، لَحَقَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَوَدَّ أَنَّهُ يُرَدُّ إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنْ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ"، فإذا كنت ستحتقر طاعاتك فماذا عسى أن يقول من يغتر بها فيعصي ربه باسمها.

من الخذلان أن تنظر لمن أشد منك في العصيان

وهنا حيلة شيطانية أخرى، ومعصية إبليسية كبرى، يوصلها لأتباعه في هذه الدنيا هو أن ينظر العاصي لمن هو أكثر وأشد منه معصية، وبالتالي تهون على نفسه معاصيه، وتضمحل أمام ذلك ذنوبه، ولو نظرنا فحتى الإنسان الذي يسافر إلى الخارج، وينغمس في الملذات والمحرمات، ويقع في أحضان المومسات، فحتى هذا الإنسان يمكن أن يقول: الحمد لله أنا في خير قياسًا على الناس الذين بجواري؛ فهؤلاء كفار ممن لا يعرفون الله ولا رسوله ﷺ، ولا يصلون، وأنا على الأقل أصلي الصلوات الخمس، وإن كانت عندي ذنوب وكبائر، وكذلك الإنسان الواقع في ترك الصلوات الخمس، وهي من أعظم الكبائر، بل تركها بالكلية كفر وردة عند كثير من العلماء، والجمهور على إقامة حد القتل عليه حتى على صلاة واحدة ما لم يتب، ومع هذا سيقول: الحمد لله أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأنا خير ممن لا ينطقها بالكلية ممن لا يعرفون الله، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

والأمر يطول لكن باختصار: لا يحل للمسلم أن يستمرئ المعصية، وينظر إلى من هو أشد منه عصيانًا لله تعالى، بل يجب أن ينظر إلى من هو أكثر منه طاعة لله عز وجل فيسابقه، ويزيد عليه، عكس شأن الدنيا فينظر إلى من دونه؛ حتى لا يزدري نعمة الله تعالى عليه، فما بالنا نقيس بمقياسين، ونكيل بمكيالين؛ فتجد الواحد منا في الدنيا ينظر إلى المترفين والأغنياء والكبراء ويقول: لو أن لي مثل مال فلان، ويا ليت عندي مثل فلان وفلان، ولكن عندما يأتي أمر الدين تجد الواحد منا يأخذ بأقل الأمر وأيسره، ويدعي العفو والمغفرة، ويرجو الجنة!.

عقلك هل عقلك

العقل عقال، وأطلق الله عليه حجرًا؛ كونه يحجر صاحبه عن اقتراف الرذائل، ويمنع صاحبه من الانحطاط في أدنى المنازل فقال عز من قائل: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر: ٥]، وما سمي العقل عقلًا إلا لتعقله، فإذا كان عقل ابن آدم لم يعقل خيره من شره، ونجاته من هلاكه فهو دليل نقص عقله، وعلى قدر بعده عن الرذائل واكتساب الفضائل يكون قوة عقله وتعقله، وإلا فقد سقط في الحضيض مع الحيوانات: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢]، وماذا يفعل بمتع زائلة، وقضاء شهوة فانية أمام: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الأحزاب: ٦٥]، {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣]، {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]، ولهذا فما أتي أكثر الناس إلا بسبب غفلتهم وجهلهم بالعواقب، ولو أوتي العبد حظًا من النظر لما آثر اللذة العاجلة الفانية على اللذات الآجلة الباقية.

وفي هذا يقول ابن الجوزي -رحمه الله- في كلام متفرق له في صيد الخاطر: (لو ميّز العاقل بين قضاء وطره لحظةً، وانقضاء باقي العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر لما قرُب منه، ولو أعطي الدنيا، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك، وتذكّرت في سبب دخول جهنم فإذا هو المعاصي، فنظرت في المعاصي فإذا هي حاصلة في طلب اللذات، فنظرت في اللذات فإذا هي خِدعًا ليست بشيء، وفي

ضمنها من الأكدار ما يصيرها نغصًا، فتخرج عن كونها لذاتٍ، فكيف يتبع العاقل نفسه، ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار، وقد جاء في الأثر: "اللهم أرنا الأشياء كما هي"، وإنما فُضل العقلُ بتأمل العواقب، فأما قليل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة، ولا ينظر إلى عاقبتها، فإن اللص يرى أخذ المال، وينسى قطع اليد، والبطَّال يرى لذة الراحة، وينسى ما تجني من فوات العلم، وكسب المال، فإذا كبر فسُئل عن علم لم يدرِ، وإذا احتاج سأل فذلَّ؛ فقد أربى ما حصل له من التأسف على لذة البطالة، ثم يفوته ثواب الآخرة بترك العمل في الدنيا، وكذلك شارب الخمر يلتذ تلك الساعة، وينسى ما يجني من الآفات في الدنيا والآخرة، وكذلك الزنا؛ فإن الإنسان يرى قضاء الشهوة، وينسى ما يجني من فضيحة الدنيا والحد، وربما كان للمرأة زوج، فألحقت الحمل من هذا به، وتسلسل الأمر، فقس على هذه النبذة، وانتبه للعواقب، ولا تؤثر لذة تفوّت خيرًا كثيرًا، وصابر المشقة تُحصِّل ربحًا وافرًا)[١].

وقال ابن القيم -رحمه الله- في الفوائد ما نصه وهو يتحدث عن العواقب وخطر الذنب على المسلم: (يا مغرورًا بالأماني لُعن إبليس وأُهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمر بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحُجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم، وأُمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأُمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة سكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من

---

(١) – صيد الخاطر (ص: ٦٧).

معاصيه، ولا يخاف عقباها، ودخلت امرأة النار في هرة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار ابعد ما بين المشرق والمغرب(١)، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار العمر بآخره(٢)، والعمل بخاتمته فمن أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره لقى ربه في ذلك الوجه)(٣).

---

(١) – أصله حديث رواه البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (" إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ")، وفي رواية: " يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ ".

(٢) – حديث صحيح رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ".

(٣) – الفوائد (ص: ٦٣) دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣م.

وسائل التواصل امتحان حقيقي للإيمان

اقتضت حكمته جل وعلا أن يمتحن عباده بما شاء، وكيف شاء، وبما يشاء، في الوقت الذي يشاء، ومن ذلك أنه امتحن صحابة رسوله الكرام -رضوان الله عليهم- بما يتناسب معهم في زمانهم، وما يتوافق مع عصرهم ومصرهم؛ فقد كانوا يعيشون كثيرًا على الصياد، ويستمتعون بقضاء الأوقات فيه، ومعلوم أن صيد البر من المحرمات على المحرم بحج أو عمرة، وهنا الفتنة؛ فقد امتحنهم تبارك وتعالى بأن قربه منهم، وأدناه من أيديهم فضلًا عن رماحهم، ثم علل ذلك بقوله: {لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}، وسياق آية الابتلاء كاملة بتعليلها، وتحذير الله لهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٩٤].

أما في عصرنا فالنت هو الصيد الثمين، والكنز العظيم، وأجمل ما يقضي فيه كثير من الناس الأوقات، وتحلو لهم معه الحياة، وفيه الغث والسمين، والخير الذي لا يحصى، والشر القليل، ومع هذا فقد قرأت إحصائية أن ما نسبته١٪ هو الشر فيه، لكن يتجه ما نسبته تزيد عن ٧٠٪ لهذا الشر المتمثل بنسبة ١٪ ويعني أنه الفتنة العظمى، والمحنة الكبرى؛ كونه أقرب إليهم من حبل الوريد، ودخوله أسهل عليهم من شرب الماء البارد القريب، وأحب لنفوسهم من الهواء في وقت الحر الشديد وفي صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ" رواه مسلم.

وبالتالي فالنت القريب، واليسير، والمحبوب، والهواتف الذكية التي في متناول الجميع، وفي كل وقت هي الفتنة العظمى في زماننا، والبلاء الأكبر في عصرنا، تصدق فيه العلة السابقة في قول الله: {لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}، فإذا أردت أن تمتحن إيمانك، وتنظر مدى خوفك من ربك، فانظر لوقت خلوتك، وتمكنك التام من شهوتك، فإن اخترت ربك، وتركت شهوتك أفلحت كل الفلاح، وإلا فقد خسرت كل الخسران، وانتظر لعقاب أليم من الجبار كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٩٤]!.

كلما ازدادت الفتن زاد الأمر بغض البصر

واقعنا لا يطمِئن، وعصرنا لا يساعد، وانفتاحنا أكثر من أن يذكر، حتى يمكن أن تعيش في الشرق أو الغرب في لحظات، وفي ثوان معدودات بواسطة محرك البحث، وبالتالي فالأمر يحتاج لحزم وعزم، وقوة إيمان لا توصف، وهمة عظمى أمام هذا كله، وليس تبرير للنفس، وركون لطاعات لا تذكر، وحسنات لا تعد، ولهذا جاء الأمر النبوي الصريح: "اصرف بصرك"، وذلك حين سُئل ﷺ عن نظر الفجأة، ومعناه من تداوى به وارتضاه لنفسه، وكف شهوته في ساعتها الأولى فلا شيء عليه، فإن عاد وكرر كُتب الإثم عليه، وسقط الشر في قلبه، ولربما تملكه هواه، وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: "سَأَلْت رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ نَظْرَة الْفَجْأَة، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِف بَصَرِي"، وعند أبي داود وصححه الألباني: رواه أبو داود في سننه من حديث ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يَا عَلِيُّ، لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»، وهي فجأة على نساء محتشمات في زمن أعظم حشمة وتقى وإيمان، ومع هذا أمره النبي ﷺ بأن يصرف بصره، فماذا لو رأى ﷺ زماننا، وما صار إليه حالنا، وما سقط فيه كثير من شبابنا!.

مرشد يتحدث!

لا تعجب من الآن إن رأيت أكثر عالم ذكرت أقواله، واستشهدت بعباراته هنا هو الإمام العالم، والحجة الأشم، والعالم النحرير، والزاهد الكبير ابن القيم -رحمه الله- الذي لم أجد كلمات في موضوعي هذا أعظم، ولا أرق، ولا أدق، ولا أَدق، ولا أعمق من كلماته، مع أني قرأت ما لا أحصي من كتب المتقدمين والمتأخرين في الموضوع، وهنا في بدايات الكتاب لا بأس أن أتركه يعبر عن زماننا بالرغم قد توفي قبل قرون من الآن (توفي: ٧٥١هـ)، ويحدثك عن مأساتنا وكأنه حاضر بيننا في الحال فقال -رحمه الله- عن مثل فتنة النت، والنظر لما فيه من حرام، والتعلق بما يحتوي من آثام: (فلو خُيِّر بين رضاه -رضا المعشوق- ورضا الله لاختار رضا المعشوق على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، يسخط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله -إن جعل له- كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلة إذا زاد شيء، قد اتخذه وراءه ظهريًا، وصار لذكره نسيًا، إن قام في الصلاة فلسانه يناجيه، وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة، ووجه قلبه إلى المعشوق، ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر من ثقلها عليه، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه، وفرح بها، خفيفةً لا يستثقلها

ولا يستطيلها، ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله[1].

وعشقهم يجمع المحرمات الأربع من الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا، والقول على الله ما لا يعلمون[2]؛ فإن هذا من لوازم الشرك؛ فكل مشرك يقول على الله ما لا يعلم، فكثيرًا ما يوجد في هذا العشق من الشرك الأكبر والأصغر، ومن قتل النفوس تغايرًا على المعشوق، وأخذ أموال الناس بالباطل؛ ليصرفها في رضا المعشوق، ومن الفاحشة والكذب والظلم ما لا خفاء به، وأصل ذلك كله من خلو القلب من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتشريك بينه وبين غيره في المحبة، ومن محبة ما يحب لغير الله، فيقوم ذلك بالقلب، ويعمل بموجبه بالجوارح، وهذا هو حقيقة اتباع الهوى، وفي الأثر: "ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع"، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣]، وإذا تأمّلت حال عشّاق الصور المُتيّمين فيها وجدت هذه الآية منطبقة عليهم مخبرة عن حالهم.

---

(١) - يشير -رحمه الله- لقول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

(٢) - يشير للآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال بعض العلماء: ليس شيء من المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله، أو محبة بشر مثلك، أما محبة الله فهي التي خُلق لها العباد، وبها غاية سعادتهم، وكمال نعيمهم، وأما البشر المماثل من ذكر أو أنثى فإن فيه من المشاكلة والمناسبة بين العاشق وبينه ما ليس مثله، وبينه وبين جنس آخر من المخلوقات، ولهذا لا يعرف في محبة شيء من المحبوبات المخالفة للمحب في الجنس ما يزيل العقل، ويفسد الإدراك، ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، وإنما يعرف ذلك في محبته لجنسه، فتستوعب قلبه، وتسلب لبه، ويصير لمعشوقة سامعًا مطيعًا كما قيل:

إن هواك الذي بقلبي صيرني سامعًا مطيعا

ويقوى هذا السمع والطاعة عند كثير من العشاق حتى يبذل نفسه، ويسلمها للتلف في طاعة معشوقه، كما يبذل المجاهد نفسه لربه حتى يقتل في سبيله، وإذا كان النبي ﷺ قد قال في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: "شارب الخمر أو قال مدمن (الخمر كعابد وثن")[1]، ومر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}، فما الظن بالعاشق المتيم الفاني في معشوقه، ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب، وهي الأصنام التي تعبد من دون الله فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

---

[1] - رواه ابن ماجه وصححه الألباني: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عمرو - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("شَارِبُ الْخَمْرِ"، وفي رواية: "مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ، وَشَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى").

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩٠، ٩١]، ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره، بل لابد أن يفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره، وأما سكرة العشق فقل أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى، ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فجأهم عذاب الله وعقوبته وهم في سكرتهم يعمهون، فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق)[١].

ومن كان يؤتى من عدو وحاسد   فإني من عيني أُتيتُ ومن قلبي
هما اعتوراني نظرة ثم فكرة   فما أبقيا لي من رقادٍ ولا لُبِّ

[١] - إغاثة اللهفان (٢/ ١٥١)، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ – ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

في النظر أنت مسيّر لا مخيّر!

كن على يقين جازم، وثقة لا ريب فيها، ولا مرية معها أنه لا اختيار لك في إطلاق بصرك من عدمه، ولا اجتهاد لك في ذلك كله، وأن الشرع أمرك بتمام غضه، بل يجب عليك أن تصرف بصرك فورًا عن المنظور المحرم، ولم يتجوز في شيء غير النظرة الأولى التي وقعت دون قصد، وإنما وقعت سهوًا، أو دون أن يخطر على قلبه النظر، وليس معناه أن كل نظرة أُولى مسامح فيها كما يظن أصحاب الأهواء، فاعزم اليقين على الترك، ولا تتردد في الصرف، وايأس من أي نظر، وانصرف من كل حرام، واجتنب كل ما عليه تلام؛ فاليقين بالحرمة، وإحساسك بعدم الخِيَرة يولّد قناعة ذاتية عن الحرام، وصرفًا تامًا عن العودة للآثام، أما إذا كنت ممن يبرر لنفسه، ويرى هذه صغيرة، وأنك لا بد تقع، والعصر عصر فتنة وبلاء، والقلب طيب ونظيف، والأعمال بالنيات، وأهم شيء القلب، ولست بمعصوم...إلخ ومن هذه الإيحاءات الإبليسية، والخطرات الشيطانية فالكتاب ليس لك، وحديثي هنا لغيرك ممن يريدون الخلاص، ويحبون الانفكاك، وحصانة النفس من {نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [الليل: ١٤-١٦]، ويخافون ممن سمى العين التي تلتفت دون أن يشعر بها من بجوارها خائنة: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، وكفى بالاسم زاجرًا، بل ليس العين وفقط وإنما جعل النفس كلها خائنة، وأبعده عن حبه، ونهى نبيه عن المجادلة عنهﷺ: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٧ - ١٠٩]!.

المعاصي باب لفقد جوارحك

خاب وخسر عبد اختار شهوة لحظات ليحرم الانتفاع بأعضائه لسنوات، ويبقى ضعيفًا حسيرًا كسيرًا ذليلًا يقاسي الزفرات على مدى الساعات واللحظات، بينما من كف نفسه عن هواها، واختار مراد الله على مرادها يعيش في سعادة بجوارحه، متنعمًا بنعم الله عليه، لا يفقدها حتى يأتيه الموت، ولا يشتكي منها حتى يرى بعينه الفوت؛ لأنه حافظ عليها فحفظها الله له، وعض عليها بالنواجذ، ولم يعص ربه بها فسلمت له، ولم يستهن بربه بها فدامت له، ينبيك عن ذلك إمام عالم، وحجة فاضل هو الإمام الشعبي -رحمه الله- حين قفز قفزة واحدة من متن السفينة حتى وصل للبر دون أن يخوض الماء على الشاطئ، وهو في عمر الثمانين أو نحوها، بينما عجز الشباب معه عن ذلك، فلما سألوه قال: "تلك أعضاء حفظناها في الصغر، فحفظها الله لنا في الكِبَر، من عاش تقيًا عاش قويًا".

وصدق ﷺ في وصيته الجامعة المانعة التي قال عنه ابن الجوزي تأملت في الحديث فكدت أطيش"، "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ"، فمن حفظ الله ﷻ بترك معصيته، وصدق طاعته حفظ الله له جوارحه، وأدامها عنده، وفوق هذا ما إن تنزل به مصيبة إلا وفرّج عنه، ويسّر له أمره، وكان معه، فمن ذا يضره، وليس هذا فحسب بل حفظه جل وعلا للعبد على قسمين: حفظ حقيقي بما سبق، ودليله: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٢ - ١٤٤]، وحفظ معنوي بصرف السوء عنه، وصرفه عنه، ودليله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

الجزاء من جنس العمل

من غضّ بصره أنار الله بصيرته، وفتح عليه باب أنواره، وزاده حبًا لطاعته، وبغضًا لمعصيته، ومنحه بصيرة تضيء له مدلهمات المسائل، وتيّسر له صعوبات النوازل، وتهوّن عليه دقيقها، وتجلي له غوامضها، وما انغلق عليه منها؛ فالله -سبحانه وتعالى- يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه؛ فمن غض بصره عن ما حرم الله عليه عوضه الله -جل وعلا- إطلاق نور بصيرته، وفتح عليه باب حكمته، وأطلق له لسانه، وأرخى قريحته، وتفتقت أنوار حكمته من كل جوانبه؛ إذ من حفظ الله حفظه الله، ومن اتقاه زاده، ومن خشيه أعطاه، ومن اكتفى بما أحل وهبه همة وعزيمة وحبًا للحلال، وبغضًا وبعدًا عن الحرام، والعكس بالعكس فاختر لنفسك: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣].

ضحكات شيطانية!

أيها الناظر للحرام بعينه، المتابع للآثام بما أنعم الله عليه، لقد قادك الشيطان لطريق الغواية، وسلك بك طريق الضلالة، وهو عدوك المبين، وخصمك القديم: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]، ثم يتركك بعد لحظات من متعة الحرام للوعات، والزفرات، والندامات، والحسرات، وفوق هذا لمقت وغضب وسخط رب البريات، وشيطانك ذاك يتفرج عليك من بعيد ضاحكًا عليك، وأنت مكبل في قيود شهواتك وهواك وبلواك، ويزيد عليه أنك كلما انتصرت على نفسك وهواك وشيطانك لخرجت من بلواك أعادك ثانية لمأساتك، وردك أخرى لسخط ربك، ثم عاد ضاحكًا عليك وأنت ترفس في قيودك، وتصارع في حبال شهواتك وملذاتك، وأنت بنفسك من ارتميت في أحضانه، واخترت طريقه دون غيره، وبالتالي فالباب التي دخلت منه يجب أن تغلقه، والطريق التي ابتدأت منها يجب أن تسدها فلا تدع له سبيلًا للعودة إليك، ولا فرصة للتسلط عليك: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس: ٦٠ - ٦٢]، {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢].

ما تدري لعل الكتاب يسبق

من الأحاديث المخوفة، والأدلة المرعبة ذلك الذي ينذر كل مؤمن، ويحذر كل موحد، ويجعل الجميع في خوف دائم، وقلق متواصل فكيف بالعصاة المذنبين، والمرتكسين كل ساعة في الإثم المبين، ويصرون على الحنث العظيم الذي أقسم عليه الرسول الأمين ﷺ: ("فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا") رواه البخاري ومسلم.

يلتفت في كل جهة!

أيها العاصي الذي لم يراقب مولاه، ولم يعر اهتمامًا بخالقه، ولم يكترث لاطلاعه عليه: كيف تنظر في كل جهة، وتلتفت في كل ناحية فتنظر يمينًا ويسارًا، وأمامًا وخلفًا، وتنسى أن تنظر لمن توعدك، وخوفك، وهددك: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، بل قال: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٤٥ - ٤٧]!.

ألم تسمع لقول ربك، ونداء خالقك: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٥٠]، وسألك سؤال استغراب وتعجب: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، بل أين شعارك العظيم، وكلامك الذي ينطق من كتاب الله الكريم: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]!.

عجيب أمرك أن تجعل ربك أهون الناظرين إليك، فتتحسس كل شيء، وتطمئن من كل شيء، ثم تنسى من لا يغيب عن بصره شيء، ومن أوجد كل شيء، وهو مهمين على كل شيء، ولا يخفى عنه خافية في الأرض ولا في السماء: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } [آل عمران: ٥]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا

حبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام: ٥٩]، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]!.

بل فوق هذا فما تخفيه في نفسك، وتغيبه في سرك يعلمه ربك: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} [ق: ١٦]، بل قال: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]، بل قال جل وعلا: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩] فتهرب ممن، وإلى من!.

وأخيرًا: فأنت بين خيارين، وأمام طريقين، وعند تفسيرين: إما أنك تؤمن بوجوده جل وعلا، واطلاعه عليك، ومراقبته لك لكن مع ذلك عصيته فأنت مستهتر به، غير مبال بوجوده ونظره، وهي كبيرة عظيمة أعظم من الذنب!، وإما أن لا تؤمن بوجوده، واطلاعه عليك، وقدرته وبالتالي فقد كفرت، وليس أعظم من الكفر ذنب!.

أنت أحد رجلين

أيها الناظر للحرام، المختلي وحدك بمعصيتك تبارزك الملك العلام، بعد أن أحكمت المكان، واستترت من جميع الخلق تمام الاستتار، ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه -جل وعلا- لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم تبارزه فقد استهنت به، وجعلته أهون الناظرين إليك، ولم تبال بوجوده، ولم تخف من عقابه: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، وقال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]، {وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج: ٢٧، ٢٨]!.

ما الذي تحب أن تراه

بإمكانك أن تحدد ما تحب أن تراه في الآخرة اليوم بما تعمله في دنياك، وتتصفحه في جوالك، وتمتع بمشاهدته بناظريك: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، بل إذا كان الصادق يسأله الله ﷻ عن صدقه فكيف بالكاذب: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [الأحزاب: ٨]!، فاحذر أن يكتب في صحيفتك ما لا يسرك أن تراه حين تتطاير الصحف؛ فإن ذلك يوم عصيب: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٤ - ٦]، فتمثل تلك اللحظة الرّهيبة، وقد تملكك الخوف، وعلتك الدهشة: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، فأحسن العمل أيها الأخ الكريم؛ فإن الحساب دقيق، قال الإمام الحسن البصري -رحمه الله- وتلا قوله: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧، ١٨]: (يا ابن آدم: بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة

كتابًا تلقاه منشورًا: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٤]، فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك) (١).

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنكَ يَرعَى خَوَاطِرِي وَآخَرُ يَرعَى نَاظِرِي وَلِسَانِي

فَمَا أَبصَرَت عَينَايَ بَعدَكَ مَنظَرًا لِغَيرِكَ إِلاَّ قُلتُ قَد رَمَقَانِي

وَلا بَدَرَت مِن فِيّ بَعدَكَ لَفظَةٌ لِغَيرِكَ إِلاَّ قُلتُ قَد سَمِعَانِي

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٥٢)، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، المحقق: سامي بن محمد سلامة.

ماذا لو رآك الناس!

لا ريب أن لك معاريفك، وعندك أهلك وأصحابك، وتمتلك قاعدة شعبية صغرت أو كبرت تثق بك فماذا لو نظروا إليك وأن تعصي ربك، أي خجل سيعتريك، وأي حياء سينزل عليك، وأي هم سينهيك، وكيف سيبغضونك، ويكرهونك، وتسقط من أعينهم، ولن ينسوا فعلتك، وسيحفظون لك جرمك، ولن تعود لمكانتك، بل قد يحرمونك من أعمالك وما أنت فيه من سلطانك، هذا وهم الخلق الذين لا يملكون لك حولًا ولا قوة، ولا جاهًا ولا سلطة، ولا عزة ولا ذلة فكيف بربك جل وعلا القائل: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦]، بل قال مصرحًا بل مهددًا: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]!.

تصور أهلك اطلعوا عليك!

أي خزي وندامة ومهانة وحسرة ومصيبة وهلكة لو اطلع عليك والدك، أو والدتك، أو أي قريب من أقاربك، فماذا عن ربك، وأي شيء ستقول لخالقك، وما مدى ذلك الشعور الأول عن الشعور الثاني: {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٣]، وفي البخاري ومسلم: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁ قَالَ: قَدِمَ سَبْيٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، فَأَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟"، فَقُلْنَا: لَا وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"، وبالتالي فمن يرحمك يغار عليك، ولا يرضا لك الدخول في غضبه، ويحب لك أن تجتنب سخطه، وتسعى في مرضاته حبًا فيك لا حاجة إليك!.

المعصية فضيحتك أمام جميع الخلائق

يا من تستتر عن أعين الناس في الدنيا، وتحرص على الخلوة التامة هنا، وتراقب من حولك، وتجهز مكانك، وتختلي بمعصية ربك، ولا تحب أي أحد يطلع عليك، كن على يقين أنك ستفتضح على رؤوس الأشهاد، ويظهر جرمك أمام كل العباد، ويبدو الباطل والصواب: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٧ - ١٠٩]، وفوق هذا ففي البخاري ومسلم: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو –رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْصَبُ لَهُ بِغَدْرَتِهِ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ" فأي خزي وعار وندامة هذه!.

يلجمه العرق

تذكر قبل المعصية أن ما يصيبك من العرق يوم القيامة يكون بمقدار ما ترتكبه من المعاصي، وبقدر غرقك في وحل الذنوب في الدنيا يكون غرقك في حر شمس يوم القيامة بعد دنوها بقدر ميلين من الخلائق: ("وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ وَيُزَادُ فِي حَرِّهَا كَذَا وَكَذَا، يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَامُّ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ") وفي رواية: ("عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ" فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى وَسَطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا -وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ-") رواه مسلم وبعض ألفاظه عند غيره.

عبرة بحيائك من الرجل الصالح!

قد تستحي من عوام الناس نعم، لكن خواصهم عندك أهم، وأهل الصلاح أعظم، ولهذا جعل النبي ﷺ مثلًا قريبًا بهذا هو حياؤنا من ربنا ﷻ كما نستحي من الرجل الصالح فينا أن ينظر إلينا ونحن في معاصينا: عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ ¢ قَالَ: قَالَ رَجَلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَوْصِنِي؟ قَالَ: "أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِي مِنَ اللهِ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ" وصححه الألباني.

النظر يعمق المشكلة ولا يحلها

أيها العاصي لربه، والمقصر في طاعة خالقه كن على يقين تام أن الحرام لا يحل مشكلتك، ولا يعالج نفسك، ولا يهدأ شهوتك، بل يزيد استعارها، ويجعلك عبدًا لها؛ فالحاجة إلى الجنس كالحاجة إلى الطعام، إذا تغدى لابد أن يتعشى، وإذا تعشى لابد أن يفطر، وإذا أفطر لابد أن يتغدى وهكذا، بل هو أشبه بالشارب من البحر كلما ازداد شربه قوي ظمؤه حتى يهلك ويأتيه موته!.

كيف ستقابل الله!

سؤال يجب أن نستحضره دائمًا، ونبقيه في مخيلتنا كثيرًا، هو ذلك الأمل الأعظم، والهدف الأهم هو النظر لوجه الكريم الأكرم جل في علاه، فكيف ستقابل ربك، وتنظر لوجه خالقك ﷻ وقد فعلت ما فعلت، وارتكبت عيناك ما ارتكبت، هذا إن تبت إليه، واستقمت معه فكيف إذا جاءك الموت ولم تفعل، وفاجأك الأجل وأنت في غيك الأول، ولقد جاء في الأثر: (من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم).

نعمة عينيك

ماذا لو فقدت عينك ولو للحظات، أو لم تنتفع بها لساعات، ترى كم من ضروريات تريدها، وحاجات تود رؤيتها، وأمور تحب إنجازها، ماذا عن رؤية والديك، وأولادك، وزوجتك، وعموم أهلك، ودنياك، ومعاش حياتك، ماذا عن الذهاب لمسجدك، وعملك، وكل أمورك... ولهذا جرب الآن: اغمض عينيك ولو للحظات؛ لتعرف هذه النعمة التي أعطاها الله لك، ومنعها غيرك، وتذكّر ذلك الأعمى المسكين الذي لم يرَ الدينا يومًا مع أنه حي في ظهرها، ولو جمعوها له بقصورها، ومجوهراتها، وأموالها، وكل شيء فيها فيخيّر بين ذلك وبصره لما اختار سوى بصره، فهي معك دون ثمن منك فهل حافظت عليها وقد قال لك: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، أم تريد أن تذهب من بين يديك فتصبح حسيرًا كسيرًا مهانًا تحتاج لكل شيء من غيرك حتى حوائجك الخاصة لا تستطيع أن تقضيها بنفسك، وتوافه حاجاتك لن تباشرها بمفردك مع قربها منك: من ماء وغذاء وحذاء، ولهذا كانت نعمة البصر هي النعمة الكبرى التي من فقدها فصبر جازاه الله بالجنة: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[البلد:٨-١٠].

هب أنك أعمى! كيف تستطيع أن تتمتع بمتع هذه الحياة؟ إن الأعمى المسكين يعيش في عالم والناس في عالم آخر، ولذا جاء في الحديث: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدِي إِلَّا الْجَنَّةُ") رواه البخاري، فكيف تعصيه بنعمه عليك، وبما لو

شاء لسلبها عنك، وتركك في ظلام دامس، ودنيا معتمة، وقد أخرج ابن أبي الدنيا في الورع، وأبو نعيم الأصبهاني في الحلية: عن عمرو بن مرة قال: "ما أحب أني بصير، كنت نظرت نظرة وأنا شاب الى امرأة فأعجبتني فكف بصري فأرجو أن يكون ذلك كفارة".

أسْألُك: من وهبك عينك، ومن أصح لك جسدك، ومن أعطاك جوارحك، وتلك الأعضاء الشاهدة عليك، والناطقة عن ربك فيك، ماذا لو سلبها من وهبها، وعطّلها من خلقها، وكيف تجرؤ على معصيته بهبته، وتقترف الذنب رغم علمك بمشاهدته، أي أدب هذا، بل أي وقاحة هذه، وأي عمى مثله...!.

{لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ}!

هذا وعيد ربك، وزجر خالقك، وكلام مليكك، ومن هدد العالم بما فيه: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء: ١٣٣]، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [إبراهيم: ١٩، ٢٠]، فاحذر أن تنظر فيما حرم الله عليك، وتمتع ناظريك بما منعك منه؛ فالله ﷻ قادر على أن يطمس بصرك، ويأخذ عليك جوارحك: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} [يس:٦٦]، ومن عاش بالدنيا هنا ببصره فيما حرم الله عليه أعمى الله قلبه في الدنيا والآخرة، وحشره يوم القيامة أعمى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [الإسراء:٧٢]، والعمى هنا ليس عمى البصر وفقط، بل أعمى عن الدين، فلا ينظر في الحلال، ولا يستمتع به، ولا يحب إلا الحرام، ولا يجد نفسه ترتاح إلا له دون سواه، مع أن الحلال يفوق الحرام أكثر من ٩٠٪ لكن صدق الله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية: ٢٣].

ولقد حدّثنا أحد الدعاة الثقات أن أحد الإخوة في قريتهم وهو يتحدث مع الناس بكل حماس، وسلاقة لسان، وثقافة وبيان سكت فجأة، فلم ينطق بعدها بكلمة (أصبح أبكمًا)(١)، فذهبوا به هنا وهناك فكل تقاريره سليمة، ثم صعد مع مرافقيه

---

(١) – يبدو أن عينًا أصابته!.

جبل عصر (جبل شامخ مشهور مطل على صنعاء)، واتخذ له مكانًا خاصًا به -كما هي عادته بعد الذي أصابه بعكس قبل ذلك-، فقال وهو يشاهد صنعاء كلها تحته، وحواليه من ذلك الجبل الأشم، والمنظر المطل: لو خيّروني بين صنعاء بكل شبر فيها، وما تحتها، وفوقها أو يعود لي لساني أتحدث به لما اخترت غيره قطعًا، حدّث صاحب القصة بهذا الكلام بلسانه بعد أن نطق به، وتوجّه بعدها نحو العبادة، وعرف قدر هذه النعمة، ومنزلة هذه الهبة، فيا ترى كم من نِعم لله عارية عندك ولم تحافظ عليها، ويوشك واهبها ﷻ أن يستلبها، ولقد كان السلف يقولون: "النِعم إذا شُكرت قرّت، وإذا كُفرت فرّت"، فاحذر أن تضيق بها ذرعًا فتركضها بقدمك، وتنحيها عنك بيدك، وإن النعم كالعروس ومهرها الشكر؛ كي تحل لك.

جوارحك أمانتك

أما علمت على أنما أعطاك الله إياه هو أمانة عندك، إن استخدمته فيما لا يرضيه سلبه منك على حين غرة، وأخذه منك في أمس حاجتك إليه: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، بل يهيئ لك أسباب هلاكك إن رأى لا خير فيك، ولم تتب من أفعالك، وتتوقف من شرورك وآثامك: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤]، بل قال: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، فاحذر من عقابه، وشديد عذابه، وسريع نقمته وانتقامه: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: ١٢]، {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ} [هود: ١٠٢، ١٠٣]!.

الباب الثاني:

تحذيرات

وهذا الباب الذي بين يديك سأجعله للتحذير من شر النظر على العين والقلب، والشر الأول حتمًا ينتج عنه فساد الثاني وإهلاكه، ولهذا بدأت به، وسميت الباب كله تحذيرات من خطرهما على دين المسلم، وكيف يبعده عن ربه، ويحرمه من جنته، وقبل ذلك من الانتفاع بنفسه وجوارحه، وقد سبق وأن قلت: إن أصل الإدمان، والإجرام، والحرام، وممارسة كل هذه الأفعال بدايتها من نظرة واحدة ثم تجر لما بعدها بعد استحكامها في القلب، فكان لابد من هذا الباب، ولهما جميعًا: العين، والقلب، فأقول:

مثال لخطر النظرة

أما علمت أن النظرة التي استسهلتها، واللحظات في الحرام التي استهنت بها تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتل في الحال جرحت فأماتت مع الأيام، أو على الأقل حبسته فلا يتحرك حتى يأتي الرامي إليها فيأخذها لذبحها، وهي تنظر بعينها، وتتحسر في سويداء قلبها، لكن لا تملك لنفسها حولًا ولا قوة، ولا تتحرك حركة، بل هي ذليلة حقيرة منقادة كل ذلك بجرحة صغيرة، في لحظة يسيرة، وهو أشبه بالشهوة، وصاحبها التي تجره النظرة إلى نظرات، وحسرات، وزفرات، ومهلكات...!.

تزود منها نظرة لم تدع له   فؤاد ولم يشعر بما قد تزوَّدا

فلم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً   بغير سلاح مثلها حين أقْصَدا

النظرة كالشررة

والنظرة يمكن القول أيضًا بأنها أشبه بشررة لاقت حشيشًا فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه ولا بد، هذا إن تدارك الزارعُ الأمرَ قبل أن يستفحل، وأطفأه بخبرات سابقة لديه، وتراكمات عنده وإلا أحرقته كله، وأجهزت على كل شيء معه، وهي شرارة واحدة فقط ففعلت في الحشيش ما فعلت، وأهلكت مالًا كثيرًا، وكذلك النظرة إن لم يتداركها صاحبها بقطعها، والتوبة منها، وإنهاء جذور سقيها، ويقلع عن ما سواها، وإلا أسلمت قلبه للنظرات، والحسرات، والزفرات، والمهلكات؛ ففي غض البصر سلامة للقلب، وراحة وسعادة يجدها العبد، وسكون النفس لن يجد بعد ذلك أي ندم، فضلًا عن أنه حسم لمادة الشيطان وحبائله...

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِن مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

قال ابن الجوزي -رحمه الله- (وبيان ذلك بمثل وهو: أن امرأة مستحسنة مرت على رجلين، فلما عُرضت لهما اشتهيا النظر إليها، فجاهد أحدهما نفسه، وغض بصره، فما كانت إلا لحظة ونسي ما كان، وأوغل الآخر في النظر فعلقت بقلبه، فكان ذلك سبب فتنته، وذهاب دينه، فبان لك أن مداراة المعصية حتى تذهب أسهل من معاناة التوبة حتى تقبل، وقد قال بعض السلف: "من تخايل الثواب خف عليه العلم")(١).

(١) – ذم الهوى (ص: ٥٩).

النظرة كعقرب الساعة

إنها تمر بكل بطء، وتتحرك بكل ثقل، وثانية بجوار ثانية حتى تصل لستين ثانية لتتحرك للدقيقة، ثم هكذا حتى تصل لساعة كاملة، وفي نهاية اليوم تراها قد جالت العقارب كلها بل عقرب الثانية مئات المرات حتى وصل لنتيجة الساعة واليوم كله، وكذلك النظرة نظرة فنظرة تكسب نظرات، ثم تتراكم في القلب حتى تفسده، وفي المساء يستجر الفؤاد ما رأى في النهار والعكس، ثم يُزرع النار في الفؤاد فيُحيله إلى رماد...!

وَمَنْ كَانَ يُؤْتَى مِنْ عَدُوٍ وَحَاسِدِ ... فَإِنِّيَ مِنْ عَيْنَيَّ أُوتِيتُ وَمِنْ قَلْبِي

هُمَا اعْتَوَرَانِي نَظْرَةً ثُمَّ فِكْرَةً ... فَمَا أَبْقَيَا لِي مِنْ رُقَادٍ وَلاَ لُبِّ

النظرة كطعام لذيذ مسموم

النظرة للحرام كطعام لذيذ يشتهيه حين يأكله، ويلتذ به حين يتناوله، ويعجبه حتى بمنظره، وجمال مظهره لكن سرعان ما ينقلب عليه لا له، وينهي حياته وعمره؛ إذ في هذا الطعام السم الناجع، والموت الزعاف الفاجع، فاختر لنفسك إما متعة عاجلة مميتة، أو مجاهدة للنفس للحظات لكنها حياة طويلة: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣]!.

النظرة مسعر حرب!

خذها خالدة تالدة، ونصيحة شافية كافية: أن النظرة المحرمة إنما هي مسعر حرب، وباب شر، وأنه كلما نظرت كلما طعمت وطمعت، وأصبحت فريسة لكل ساقطة ولاقطة، وداخلة وخارجة، وزبالة يرمى إليك بكل قبيح، وأنت تنظر ماذا يفعل بك، ولن تشبع من شيء أبدًا، بل أنت أشبه بالشارب من البحر كلما شرب منه ازداد ظمأً، ولا يزال يشرب حتى يموت، فلن يملأ قلبك، ويريح بالك غير التوبة النصوح من أعمالك، وسرعة الندم من أفعالك، واعلم أنك في باب هلكة، ومصدر شقاء وتعاسة...، فواجبك أن تستتر من كل نظرة محرمة بحجاب: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، عندها اعلم أنك سلمت من التبعات، وكففت عن نفسك باب إدمان هذه القاذورات من المحرمات: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب: ٢٥]، فإن لم تفعل فقد زرعت في قلبك زرعًا يصعب قلعه، ويستحيل اجتثاثه سريعًا، فإن كان قد حصل ذلك فعلاجه الحمية بالغض فيما بعد، وقطع مراد الفكر بسد باب النظر، فحينئذ يسهل علاج الحاصل في القلب؛ لأنه إذا اجتمع سيل فعلاجه سد مجراه؛ ليسهل نزف الحاصل منه فلا يتكاثر بغيره، ولا علاج للحاصل في القلب أقوى من قطع أسبابه، والبعد عن مواطنه، وكل شيء يذكّر به، فمتى شرعت في استعمال هذا الدواء رجى لك قرب السلامة، والعودة الحميدة للفطرة السوية السلمية.

لا تزرع هشيم النار في قلبك

إن الجرح الذي أدخلته في قلبك سينتقض عليك يومًا، ويحرق فؤادك في لحظة ما، ويشعل ناره فيك في وقت لا تتوقعه، وزمن لا تتخيله:

إذا أنـت لم تـــرع البـروق اللوامحا ونمت جرى من تحتك السيل سائحا

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرتـه وأهـمـلـتـه مسـتأنسـا متسامحـا

ولم تـدر حتى أينعت شـجـراته وهبت ريـــاح الوجـد فـيـه لواقحـا

فأمسيت تستدعي من الصبر عازبا عليك وتستـدني من النوم نازحـــا

رحلة سفر لغير الفطرة!

النظرة تحمل في طياتها سفرًا بعيدًا، وقطارًا طويلًا، وطريقًا قد تكون العودة معه صعيبة، والرجوع عند كثير منهم للفطرة مستحيلة؛ إذ سافر لحظة بعينه، ثم عاد خائبًا حسيرًا كسيرًا مغمومًا مهمومًا تعيسًا بنفسه وقلبه، فلا هدأت نفسه، ولا قضى منه مراده، فأظلمت الدنيا أمام ناظريه، وانغلقت الحياة في عينيه، وتعبدت النظرة قلبه، وأصبح لها خاضعًا ذليلًا مدمنًا إلا لمن عزم وصمم، وكسر حجاب الغفلة وقرر، وجاهد نفسه واستمر، ولم يرجع للخلف ولم يتغير، وهنا عاد للفطرة السليمة، والسكينة الإيمانية، والسعادة السرمدية، وهذا ما ألفنا الكتاب لأجله نسأل الله أن يسر لنا ذلك...!.

العين بريد الفرج

نعم إنه بريد حقيقي، ورسول لازم للفرج طبيعي، ومقدمة لابد منها للحرام الأكبر، والإدمان الأعظم، ولهذا كان الأمر الرباني بحفظها، ووجوب غض البصر عن النظر للحرام بها، والكف عن إرسالها في أماكن لا يحل له أن يلجها، حتى لقد أباح الشرع فقْأها إن تعدى صاحبها بها فنظر لما لا يحل له، وتجاوز ما أحل الله له إلى ما حرم عليه، ففي البخاري ومسلم: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﵁ قَالَ: ("اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي دَارِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَحُكُّ رَأْسَهُ بِالْمِدْرَى، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ؛ إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ")، وقال القرطبي -رحمه الله- عند قول المولى ﷻ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠]، وبدأ بالغض قبل الفرج؛ لأن البصر رائد للقلب، كما أن الحمّى رائدة الموت، وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ألم تر أن العين للقلب رائد   فما تألف العينان فالقلب آلف)(١).

(١) - الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٢٧)، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، المحقق: هشام سمير البخاري.

وقد ورد أن عبدالله بن مسعود ﵁ دخل على مريض يعوده ومعه قوم، وفي البيت امرأة فجعل رجل من القوم ينظر إلى المرأة، فقال عبد الله﵁: "لو انفقأت عينك كان خيرًا لك"، ولقد قيل ليحيى ﵇: (ما بدء الزنا؟ قال: النظر، والتمني)، قال القاسمي -رحمه الله-: "سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج هو أن النظر بريد الزنا ورائد الشهوة" يريد في قول الله: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠]، بل أيضًا في الآية الكريمة -تتميمًا للفائدة- نجد أن الله تعالى لما أمر بغض البصر أعقب ذلك بالأمر بحفظ الفرج؛ ليدلل بذلك على أن من أطلق بصره أداه ذلك إلى إطلاق فرجه ولابد، ووقع قلبه وفرجه فريسة لنظرة خاطفة من عينه، فإطلاق البصر طريق الزنا، فمن زل ببصره سيزل حتمًا بفرجه!.

ويقول الفخر الرازي: (فإن قيل فلم قدم غض الأبصار على حفظ الفروج، قلنا: لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه)[١].

---

[١] - تفسير الفخر الرازي (ص: ٣٣١٨)، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، وانظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٢٣٥)، دار إحياء التراث العربي، وتفسير النسفى (٣/ ١١٨)، دار النفائس بيروت ٢٠٠٥م.

العين المهدورة

عظيم ذلك الدين الحنيف الذي حمى الأعراض، وكرّم الإنسان، ورفع قيمته إن حصل على أعضائه أي اعتداء كان؛ فقد جعل في العين الواحدة إن اعتدى عليها أحد ففقأها، أو أذهب بصرها نصف الدية، وفيهما معًا الدية كاملة، لكنه أهدرها كل الهدر إن نظرت لحرام في بيت إنسان، ولم يجعل فيها أي ريال، ولا على المهدر لها أي ملام، بل أصاب وأحسن، وأتم وأجمل ففي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ فِي بَيْتِكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ، وَلَا دِيَةَ لَهُ وَلَا قِصَاصَ")، وفي صحيح مسلم: ("مَنْ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ")، وجاء في مسند أحمد وسنن الترمذي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("أَيُّمَا رَجُلٍ كَشَفَ سِتْرًا، فَأَدْخَلَ بَصَرَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ، فَقَدْ أَتَى حَدًّا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا فَقَأَ عَيْنَهُ لَهُدِرَتْ").

بل عمل بذلك ﷺ حقيقة، وطبّقه بنفسه في واقعه، وحضر القصةَ أنس ﵁ فنقلها تامة ففي البخاري ومسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: ("أَتَى أَعْرَابِيٌّ بَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَلْقَمَ عَيْنَهُ خَصَاصَةَ الْبَابِ، فَبَصُرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَامَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ؛ لِيَفْقَأَ عَيْنَهُ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَخْتِلُ الرَّجُلَ لِيَطْعَنَهُ، فَلَمَّا أَنْ بَصُرَ الرَّجُلُ أَخْرَجَ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَمَا إِنَّكَ لَوْ ثَبَتَّ لَفَقَأْتُ عَيْنَكَ")!.

العين مفتاح الشرور

نعم العين أصل الشرور، وبداية البلايا والمحن، ومبدأ كل الفتن، لا من كلامي بل من كلام البشير النذير، والسراج المنير، ومن لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام فَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ -رضي الله عنهما- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ("مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ")، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ")، وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ("أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر")، وقال ابن عباس رضي الله عنه: (لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكُفر من بقي من قبل النساء).

وصدق القائل:

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِن مُسْتَصْغَرِ الشَّـرَرِ

وَالعَيْنُ أَصْلُ عِنَاهَا فِتْنَةُ النَّظَرِ ... وَالقَلْـبُ كُـلُّ أَذاهُ الـشُّـغْـلُ بِالـفِكَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ نَقَشَتْ فِي القَلْبِ صُورَةَ من رَاحَ الفُؤَادُ بِهَا فِي الأَسْـرِ وَالحَذَرِ

وَالمَرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ الـعِيْـنِ مَـوقُـوفٌ عـلى الخَـطَـر

يَـسُرُّ مُقْلَـتَهُ مَـا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَـرْحَـبًا بِسَـرُورٍ جَـاءَ بِالـضَّــرَرِ

فَالقَلْبُ يَحْسُدُ نُورَ العَيْنِ إِذَ نَظَرَتْ ... وَالعَيْنُ تَحْسُدُهُ حَقًا عَلَى الفِكَرِ

يَقُولُ قَلْبِي لِعَيْنِي كُلَّمَا نَظَرَتْ ... كَمْ تَنْظُرِينَ رَمَاكِ اللهُ بِالسَّهَرِ

فَالعَيْن تُورثُهُ هَمًا فَتُشْغِلُهُ ... وَالقَلْبُ بالدَّمْعِ يَنْهَاهَا عنِ النَّظَرِ

هَذَانِ خَصْمَانِ لا أَرْضَى بِحُكْمِهِمَا ... فَاحْكُمْ فَدَيْتُكَ بَيْنَ القَلْبِ وَالبَصَرِ

احذر خائنة الأعين

نعم خائنة خائنة تلك العين التي تجاهلت ربها، وهلكت في موبقاتها، ونظرت لما يزيد مأساتها، ويحرق لهيبها، ويزيد اشتعالها، ولم تخن فلانًا أو علانًا بل ربها الأكرم، وإلهها الأجل ﷻ وقد فضحها في كتابه المنزّل على خير نبي مرسلﷺ: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر:١٩]، قال ابن عباس – رضي الله عنهما- : (هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به، فإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض)، وقال سفيان الثوري: (الرجل يكون في المجلس في القوم يسترق النظر إلى المرأة تمر بهم، فإذا رأوه ينظر إليها اتقاهم فلم ينظر، وإن غفلوا نظر هذه خائنة الأعين)، وأخيرًا: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٧ - ١٠٩]!.

النظرة وتبعاتها

مسكين ذلك الذي يحسب أن الأمر يقف عند النظر، ويرعوي العبد عند التمتع بحاسة البصر، بل ما تلك إلا مقدمة متصلة، وسلاسل مترابطة، وحمم متناثرة؛ فالنظرة كما قال ابن القيم -رحمه الله- عنها: (تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده)(١)، فأنت بين خيارين: إما أن تقف فتستريح، أو تواصل فتستباح، ثم تفتضح، ويهتك سترك، وينتهي أمرك...!.

فهي إذن حلقات متصلة من المآسي، وحسرات قاتلة لا ترتاح حتى ترى صاحبها في القبر، وقبله معذبًا لا من الأحياء فيتنعم، ولا من الأموات فيسلم!.

ألا فاحذر من استدراج الشيطان، وعصيانك للرحمن، وبعدك عن الجنان، وقربك من النيران بطاعتك لنفسك، واستسلامك لهواك وشيطانك؛ فقد قال ربك آمرًا بالكف عن اتباع الشيطان وخطواته: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [النور: ٢١]، فنهيك تعالى لتلك الدركات التي يريد أن يوصلك إليها الشيطان باتباعك لأولى حلقاته المتسلسلة، وخطواته المعضلة، وناره المحرقة في الدنيا والآخرة، ألا فاقطع ذلك كله بالعلاج النبوي: "لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ

(١) – الداء والدواء ط المجمع (١/ ٣٥٠).

الْآخِرَةُ"(١)، فقطع ﷺ عليه مشواره من أول نظرة؛ حتى لا تكتب عليه الثانية، قال ابن الجوزي: "وهذا لأن الأولى لم يحضرها القلب، ولا يتأمل بها المحاسن، ولا يقع الالتذاذ بها، فمتى استدامها مقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم" وبالعلاج النبوي الآخر في قوله: "اصْرِفْ بَصَرَكَ" كما قالها لجرير البجلي(٢)، وقوله ﷺ لعموم أصحابه: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ»(٣).

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته   يوم النِّزال ونار الحرب تشتعل

لكن من غض طرفًا أو ثنى بصرًا   عن الحرام فذاك الفارس البطل

---

(١) – رواه أبو داود في سننه من حديث ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يَا عَلِيُّ، لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ».

(٢) – روى مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ؟ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي».

(٣) – متفق عليه، وهو بطوله: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ).

أول الغيث قطرة وأول الحرام نظرة

نعم هي نظرة واحدة ثم تتطور لنظرات، ولا تستطيع الانفكاك عن المحرمات، ولا تكتفي بصورة ولا بصور، بل تنتقل لما هو أكثر وأخطر فكان الصواب قطع الفكر عن كل ذلك كله: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور:٣٠] فيه ربط بين أول خطوات الحرام وهو النظر، وآخر ذلك وهو الوطء، قال ابن كثير -رحمه الله-: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم)[١]، فحبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات احبس نظرك أولاً أسهل من المعاناة بعدها، وتأمل ما في البخاري ومسلم: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبَلُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ: يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، أَوْ يُكَذِّبُهُ"، تأمّل التقبيح بوصف هذه النظرة للحرام بالزنا، الشارع يريد أن يكرهنا في النظرة المحرمة، فقال: (فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ) حتى نكره النظر إلى الأشياء المحرمة، وحتى نكره النظر إلى ما حرم الله، يقول ابن الجوزي: (فاحذر يا أخي -وقاك الله- من شر النظر؛ فكم قد أهلك من عابد، وفسخ عزم زاهد، فاحذر من النظر؛ فإنه سبب الآفات، غير أن علاجه في بدايته قريب وسهل، فإذا كرر تمكن الشر فصعب العلاج).

---

[١] – تفسير ابن كثير (٦/ ٤١)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

حكمة تختصر الخطر

وقد اشتُهر قول عند العقلاء، وحكمة صالحة عند الفضلاء، تختصر المقال، وتعبر عن الحال، ونصها: من سرّح ناظره أتعب خاطره، ومن كثُرت لحظاته دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وصدق الله: {ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} [النور:٣٠]، فما من شيء أزكى، ولا أتقى، ولا أهنأ، ولا أمرأ، ولا أدوأ مثل غض البصر، وإراحة القلب من ألم النظر، فلو أنك أغلقت بصرك من أول مرة لاسترحت، كما في المثل الشعبي: "الباب الذي يأتيك منه الريح سده واستريح"، فهذه عينك نافذة وباب مفتوح على الحرام، يأتيك منها ريح الزنا والعذاب والآلام، فأغلقها واسترح، وافتحها على كتاب الله، وافتحها على النظر في ملكوت الله، وافتحها على التأمل في مخلوقات الله، والله يقول في هذا: { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ } [ق:٦]، {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [يونس: ١٠١]، ليس نظرًا كما تنظر الدابة والبهيمة إلى ما تأكل عند قدميها فقط، بل يجب أن يكون نظره نظر متأمل، وفكره فكر مؤمن، واعتباره اعتبار موحد، فيستبدل النظر الحرام بما يرى من ملكوت ذي الجلال والإكرام، وهناك يمكن أن يعقل، ويرعوي، وينزجر، ويعرف قدره أما مخلوقات ربه، وكيف هي تطيعه مع عظمتها وقوتها، وكيف يعصي مع ضعفه وقلة حيلته!.

وأختم هنا بقول الحسن البصري رحمه الله: "من أطلق طرفه كثر سفهه".

لا تتبع النظرة النظرة

وآن لي أن أدلك على كلمات تمثل أعظم مفتاح للحل، وأهم دواء، وأنفع شفاء، وأجل وأصلح وأصح علاج لمنع الشهوة، ولكف القلب عن التطلع للحرمة؛ كيف لا وهي وصف من قال فيه ربه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤]، ولا والله ما تداوى متداو بمثلها، ولا طاب قلب عبد بأعظم منها، قال ابن الجوزي: (فإن قيل: فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحة؟ قيل: علاجهُ الإعراضُ عن النظر؛ فإن النظرةَ مثلُ الحبةِ تُلْقَى في الأرض؛ فإذا لم يُلتفَتْ إليها يَبَستْ، وإن سقيت نَبَتَتْ؛ فكذلك النظرةُ إذا أُلحقت بمثلها)(١).

على أن مع هذه الكلمة النبوية الجامعة المانعة، أو من مكملات هذه الوصية العظيمة، والنصيحة الوحيية المجيدة ما في صحيح مسلم عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﵁ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ، فَقَالَ: "اصْرِفْ بَصَرَكَ")، فضلًا عن ما صح عنه ﷺ من وصية عظيمة، وكلمة نفاعة مختصرة هي تلك التي جعلناها عنوان كلامنا هذا فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا عَلِيُّ: إِنَّ لَكَ كَنْزًا مِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا فَلَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ الْأُولَى لَكَ وَالْآخِرَةَ عَلَيْكَ" وفي رواية: "فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ"، يعني أن النظرة الأولى نظرة الفجاءة من غير قصد مبيح لك عفو بلا إثم، وليست لك الثانية إذا أتبعتها نظرة تمتع.

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٥٨٦).

وهذا الخطاب لعلي ﷺ مع علمه ﷺ بكامل زهده وورعه، وعفة باطنه، وصيانة ظاهره، لكن يحذره ﷺ من النظر، ويؤمّنه من الخطر، ويزجره من حاسة البصر أن تجني على قلبه ونفسه الضرر؛ لئلا يدعي الأمن كل بطال، ويغتر بالعصمة والأمن من الفتنة كل خوان، وصدق الله: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]، وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة فقال لي: "اصْرِفْ بَصَرَكَ"، يعني عن النظر الثاني؛ لأنك لا تأمن فيه الشهوة والفتنة، أما الأول فلا تلام عليه مادام حدث دون قصد منك، وإنما تلام على الثاني الذي أعدته تقصدًا، وصدق من قال في ذلك شعرًا:

نَظَرُ الْعُيُوْنِ إلى الْعُيُوْنِ هُوَ الذي   جَعَلَ الْهَلاَكَ إلى الْفُؤَادِ سَبِيْلا

مَازَالَتِ اللَّحَظَاتُ تَغْزُوا قَلْبَهُ   حتى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيْلا

وفي هذا يقول ابن الجوزي -رحمه الله- كلامًا حسنًا يجب أن يدوّن هنا: (وتلمّح معنى قول النبي ﷺ: "النظر سهم مسموم"؛ لأن السهم يسري إلى القلب فيعمل في الباطن قبل أن يرى عمله في الظاهر، فاحذر من النظر؛ فإنه سبب الآفات، إلا ان علاجه في بدايته قريب، فإذا كرر تمكن الشر فصعب علاجه، وأضرب لك في ذلك مثلًا: إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق، فدخلَت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن أن تدور فيه، فصيح به: ارجعها عاجلًا قبل أن يتمكن دخولها، فإن قبل وردها خطوة إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانى حتى ولجت ثم قام يجذبها بذنبها طال تعبه، وربما لم يتهيأ له، وكذلك النظرة إذا أثرت في القلب

فإن عجل الحازم بغضها وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر نقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرغ فنقشها فيه، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة، فلا تزال تنمي فيفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات، ويلقى في التلف، والسبب في هذا الهلاك أن الناظر أول نظرة التذ بها فكررها يطلب الالتذاذ بالنظر مستهينًا بذلك، فأعقبه ما استهان به التلف، ولو أنه غض عند أول نظرة لسلم في باقي عمره)[١].

إن النظرة تجرح القلب جرحًا فيتبعها جرح على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، والازدياد من أمثالها:

ما زلت تـــتبع نظرة في نظــرة ... فـي إثــر كل مليحة ومليح
وتظن ذاك دواء جرحك وهـو في ... التحقـيق تجـريح على تجريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا ... فـالقلب منك ذبيح أي ذبيح

وأختم بقول الفرزدق:

تزود منها نظرة لم تدع له ... فؤادًا ولم يشعر بما قد تـــزودا
فلم أر مقتولًا ولم أر قاتلًا ... بغير سلاح مثلها حين أقصدا

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٩٤)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.

شبهة ورد قيم

وهنا شبهة قد تنطلي على أصحاب الأهواء، ويجد لها قلبهم مساغًا، ويلجمهم بها إبليس إلجامًا، وقد رد عليها ابن القيم حين عُرضت عليه فقال كما في روضة المحبين: (ووقعت مسألةٌ: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة فعلق حبُّها بقلبه، واشتد عليه الأمر، فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها؛ فهل يجوز تعمُّد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟.

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه:

أحدها: أن الله سبحانه أمر بِغَضِ البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

الثاني: أن النبي ﷺ سُئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب، فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه ﷺ صرح بأن الأولى له، وليست له الثانية، ومُحالٌ أن يكون داؤه مما له، ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقضه، والتجربة شاهدة به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة، فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه، فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه، فيزين له ما ليس بحسن؛ لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان على بليته؛ إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع، وتداوى بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولى سهمٌ مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًّا؛ فكيف يتداوى من السم بالسم؟!.

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق -عز وجل- في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه؛ فإن لم يكن مَرْضِيًّا تركه؛ فإذن يكون تركه؛ لأنه لا يلائم غرضه، لا لله تعالى فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟!.

العاشر: يتبين بضرب مَثَلٍ مطابق للحال، وهو أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ، ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها؛ لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصِحْ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإذا رَدَدْتها إلى ورائها سهل الأمر، وإذا توانيت حتى ولجت، وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذَنبها عسر عليك أو تعذر خروجها، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقُها إلى داخل؟)(١).

(١) – روضة المحبين (ص: ٩٣) دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢ – ١٩٩٢م، علمًا أن المثل أخذه من ابن الجوزي في ذم الهوى.

صيدلية ابن الجوزي

وإلى طبيب بارع، وحجة ماهر، وخريت فاهم، ذلك الإمام العلم، والبحر الخضم ابن الجوزي -رحمه الله- في كتابه ذم الهوى؛ إذ قال فيه كمقتطفات في بابنا هنا حين قال: (والواجب على من وقع بصره على مُسْتَحْسَن، فوجد لذة تلك النظرة في قلبه أن يصرف بصره: فمتى ما تَثَبَّت في تلك النظرة، أو عاود وقع في اللوم شرعًا وعقلًا) وهو هنا يتحدث عن نظر الفجأة، والتي تسمى أيضًا بالنظرة الأولى.

ثم قال -رحمه الله- في مداواة داء شبهة قد تعلق في أذهان أصحاب الهوى، ومن أوقعهم الشيطان في سبل الردى: (فإن قيل: فإن وقع العشق بأول نظرة فأي لوم على الناظر؟.

فالجواب: أنه إذا كانت النظرة لمحة لم تكد توجب عشقًا، إنما يوجبه جمود العين على المنظور بقدر ما تثبت فيه، وذلك ممنوع منه، ولو قدَّرنا وجوده باللمحة؛ فأثَّر محبةً سَهُلَ قمعُ ما حصل).

ثم عالج الشبهة، واجتثها من جذورها بكلام الشرع والعقل، والتجربة، والمنطق الصحيح: (فإن قيل: فما علاج العشق إذا وقع بأول لمحة؟.

قيل: علاجه الإعراض عن النظر؛ فإن النظر مثل الحبة تلقى في الأرض؛ فإذا لم يلتفت إليها يبست، وإن سقيت نبتت فكذلك النظرة إذا ألحقت بمثلها، فإن جرى تفريط باتْباع نظرة لنظرة فإن الثانية هي التي تخاف وتُحذر، فلا ينبغي أن تحقر هذه النظرة؛ فربما أورثت صبابةً صبَّت دَمَ الصبِّ.

وخذ هذا المثل: لو كنت على دابة فدخلت الدابة في زقاق ضيق لا تتمكن من الدوران فيه، فإن صِحت بها في أول الأمر، وزجرتها رجعت بسهولة قبل أن تكمل الدخول، وأما إذا أكملت دخولها وصارت داخل السرداب والزقاق الضيق فكيف تخرجها، فلا يمكن الاستدارة ولا الرجوع، ولا شدها من ذنبها، فكيف الخروج؟ وهكذا الأمر إذا غض الإنسان البصر من أول أمره، أمّا إذا تساهل وأطلق وكرر فعند ذلك الهلاك ولابد الهلاك ولابد)[١].

---

[١] - ذم الهوى (ص: ٥٨٥) وما بعدها.

آيات بينات تكف عن النظر للمحرمات!

حين يسلّم الجاهل للعالم، ويُترك الأمر للبصير الخبير الفاهم تستقيم الحياة، وتحل المشكلات، ويرضا الجميع، هذا وهو من البشر فكيف إذا كان هو الله ﷻ الذي دلنا على العلاج، وأرشدنا للصواب، وعرّفنا كيف ننتصر على الشيطان، ونلجأ لصف الرحمن في مسألة غض أبصارنا بالخصوص والتي هي مفتاح الشرور والآثام كما تقدم معنا في هذا الباب، وكل حياتنا على سبيل العموم فقال مبينًا كل ذلك في القرآن: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١] ، فأمر بعلاجين عند نزغ الشيطان: الاستعاذة، والتذكّر، بل قال -جل وعلا- محذرًا من الشيطان وطريقه، ومتوعدًا من اتبعه بجنهم، ثم الختم على الأفواه للتكلم الأيدي، وتشهد الأرجل، وفوق هذا فيحذرهم من عقوبة الدنيا والآخرة من طمس ومسخ؛ بسبب أعمالهم: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس: ٦٠ - ٦٧]، وأشبه بذلك قول المولى جل وعلا في سورة أخرى هي سورة النساء: {وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} [النساء: ١١٩ - ١٢١]، وبيّن تبارك وتعالى أن لا بديل للرحمن وطاعته إلا الشيطان واتباعه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]، وقد أوضح كتاب الله صراحة سبيل الاعتصام، وباب النجاة، ومفتاح الاستقامة على الصراط المستقيم في الدارين فقال: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]، وأخيرًا: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧].

حروز من الشيطان

وما دمنا نتحدث عن الشيطان وأعماله، وسبل إغوائه، ومدى عدائه وشره فيجدر بي أن أدلك على عشرة حروز منه ذكرها ابن القيم -رحمه الله- في الفوائد، وأسوقها لك هنا بمعناها، ملخصًا لها، غير معتمد على نص كلامه، بل يكفيني فحواه؛ لتفهم أنت، وأختصر أنا:

الحرز الأول: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ فربنا يقول: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠].

الحرز الثاني: قراءة المعوذتين؛ فلقد أمر بهما النبي ﷺ حتى قال: "ما تعوذ المتعوذون بمثلهما"(١).

---

(١) – أصل الحديث عند النسائي وأبي داود وأحمد: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (بَيْنَمَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَاحِلَتَهُ فِي غَزْوَةٍ ، إِذْ قَالَ: "يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ؟، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ، قَالَ: فَلَمْ يَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أُعْجِبْتُ بِهِمَا، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ أَمَّنَا بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الصَلَاةِ الْتَفتَ إِلَيَّ فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ كَيْفَ رَأَيْتَ؟ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نِمْتَ وَقُمْتَ فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا"، قَالَ عُقْبَةُ: فَمَا أَتَتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتُهُنَّ فِيهَا، وَحُقَّ لِي أَنْ لَا أَدَعَهُنَّ، "وَقَدْ أَمَرَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ").

ومن أضاف إليها الإخلاص تم له حفظه وصيانته: "كفته من كل شيء"(١).

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، وذلك إذا أويت إلى فراشك؛ فإنه "لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح"، فقال النبي ﷺ: "صدقك وهو كذوب، ذاك الشيطان"(٢).

---

(١) – ودليله الحديث الصحيح عند الترمذي وأحمد وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: (خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: قُلْ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: " قُلْ"، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: " قُلْ"، فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟، قَالَ: " قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ").

(٢) – في قصة طويلة رواها البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: " وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ " فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ "، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ" إِنَّهُ سَيَعُودُ "، فَرَصَدْتُهُ ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺقَالَ: دَعْنِي ، فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: " يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ"، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ:

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة؛ ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجعلوا بيوتكم قبورًا؛ إن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان"(١).

لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي وَأُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هِيَ؟ – وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ – قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَة، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: "مَا هِيَ؟"، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟"، قُلْتُ: لَا ، قَالَ: " ذَاكَ شَيْطَانٌ ".

(١) – رواه مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"، وعند الحاكم: عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِي بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَدْخُلُ بَيْتًا تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"، وفي صحيح مسلم: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:"اقْرَءُوا الْقُرْآنَ (وفي رواية: تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ (وفي رواية: تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ

الحرز الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة؛ فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"، رواه البخاري ومسلم، وفي الترمذي عن النعمان بن بشير ﵁ عن النبي قال ﷺ: "إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان"(١).

الحرز السادس: أن يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير"، ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشرة رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل

الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ، صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ"، وفي رواية: "تَعَلَّمُوا الْبَقَرَةَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ".

(١) – رواه الترمذي وأحمد وصححه الألباني: عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ".

أكثر من ذلك"(١)، فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره الله تعالى عليه.

الحرز السابع: كثرة ذكر الله، وهو من أنفع الحروز من الشيطان؛ ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري ﵁ أن النبي ﷺ قال: "إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها...، وذكر منها: "وآمركم بذكر الله كثيرًا؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه فأحرز نفسه منهم وكذلك العبد، لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله"(٢)، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: "قل أعوذ برب الناس"؛

---

(١) - رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ("مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا مَنْ قَالَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ").

(٢) - وهو حديث طويل رواه الترمذي وأحمد وصححه الألباني: عَنْ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا – عليه السلام – بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا ، فَقَالَ عِيسَى – عليه السلام –: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ ، وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ

فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله.

الْمَسْجِدُ، وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللهَ – عز وجل – خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَلَاةِ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟، فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ، وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ، لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ، اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْهِجْرَةِ وَالْجَمَاعَةِ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: "وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ").

الحرز الثامن: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة؛ فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي: "ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض"(١).

الحرز التاسع: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس؛ فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة؛ فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه"(٢)، أو كما قال فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر"(٣).

---

(١) – رواه الترمذي وأحمد: "أَلَا وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالْأَرْضِ".

(٢) – رواه أحمد في مسنده وهو حديث ضعيف، لو صح كان خير حديث في بابه.

(٣) – إلى هنا انتهى كل ابن القيم رحمه الله، وكان قد جعلها عشرة حروز فحذفت واحدًا؛ لضعف الحديث الذي استدل به في قراءة بداية سورة غافر وهو حديث شديد الضعف.

فوائد غض البصر

يحسب كثير من الناس أن مسألة الطاعة لا يثاب عليها إلا في الآخرة، ولا يرى ثمرتها إلا في الآجلة، ولا ريب أن الأمر ليس كذلك، بل كما قال ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله-: "حاش لله أن يحاسبه العبد نقدًا فيحاسبه نسيئة"، وبالتالي فهو يرى ثمرة طاعته قبل الآخرة فيما لا يحصى من فوائد شتى، ويكفيه أن يكسب الفوائد العشر التي ذكرها ابن القيم -رحمه الله تعالى-:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة؛ فإن من أطلق نظره دامت حسرته؛ فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم يحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِن مُسْتَصْغَرِ الشَّــرَرِ

وَالعَيْنُ أَصْلُ عِنَاهَا فِتْنَةُ النَّظَرِ ... وَالقَلْـبُ كُـلُّ أَذاهُ الـشُّـغْـلُ بِالـفِـكَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ نَقَشَتْ فِي القَلْبِ صُورَةَ من رَاحَ الفُؤَادُ بِهَا فِي الأَسْـرِ وَالحَـذَرِ

وَالمَرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ العِيْـن مَـوقُـوفٌ عـلى الخَـطَـر

يَسُـرُّ مُقْلَـتَهُ مَـا ضَرَّ مُهْجَتَـهُ ... لا مَـرْحَـبًا بِسَـرُورٍ جَـاءَ بِالـضَّــرَرِ

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه، ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: ٣٥]، عقيب قوله: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠](١)، وجاء الحديث مطابقًا لهذا حتى كأنه مشتق منه وهو قوله: "النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نورًا"(٢) الحديث.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة؛ فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحت الفراسة؛ لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفس فيها فإذا أطلق العبد نظرة تنفست نفسه الصعداء في مرآة قلبه فطمست نورها الحلال لم تخطئ فراسته، وكان شجاع لا تخطئ له فراسة، والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه؛ فمن غض بصره عن المحارم

---

(١) – يشبه كلام الإمام القرطبي في تفسيره حيث قال: قال القرطبي –رحمه الله – عند قول المولى جل وعلا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]: (وبدأ بالغض قبل الفرج؛ لأن البصر رائد للقلب، كما أن الحمى رائدة الموت، وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ألم تر أن العين للقلب رائد   فما تألف العينان فالقلب آلف " ا.هـ

(٢) – تقدم أنه ضعيف.

عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب؛ فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه، وأظلم، وانسد عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، وفي الأثر: "إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله"، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه، قال الحسن: "إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين، إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه"، وقال بعض الشيوخ: "الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه"، وفي دعاء القنوت: "إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت"(١).

---

(١) – رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم: عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ – رضي الله عنهما – قَالَ: ("عَلَّمَنِي جَدِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ إِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا السُّجُودُ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سرورًا وفرحة وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه لما كف لذته، وحبس شهوته لله، وفيها مسرة نفسه الأمّارة بالسوء، أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: "والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب"، ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يخلّص القلب من أسر الشهوة؛ فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل: طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكّن منه عدوه، وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كف طفل يسومها ... حياض الردى والطفل يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم؛ فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضري على المحظور، ولم تقف نفسه منه عند غاية؛ فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا، وأطيب مخبرًا، فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ").

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته؛ فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب؛ فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببا حتى يفكر ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة، ورقدة الغفلة؛ فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]؛ فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهًا)(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (غَضَّ الْبَصَرِ عَنْ الصُّورَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْ النَّظَرِ إلَيْهَا كَالْمَرْأَةِ، وَالْأَمْرَدِ الْحَسَنِ يُورِثُ ذَلِكَ ثَلَاثَ فَوَائِدَ جَلِيلَةِ الْقَدْرِ: إحْدَاهَا:

(١) – انتهى كلامه رحمه الله.

حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَلَذَّتُهُ الَّتِي هِيَ أَحْلَى وَأَطْيَبُ مِمَّا تَرَكَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَأَمَّا الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ فِي غَضِّ الْبَصَرِ فَهُوَ: أَنَّهُ يُورِثُ نُورَ الْقَلْبِ، وَالْفِرَاسَةَ، قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطٍ: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]، فَالتَّعَلُّقُ فِي الصُّوَرِ يُوجِبُ فَسَادَ الْعَقْلِ، وَعَمَى الْبَصِيرَةِ، وَسُكْرَ الْقَلْبِ بَلْ جُنُونَه، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، فَغَضُّ بَصَرِهِ عَمَّا حَرَّمَ يُعَوِّضُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِهِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. فَيُطْلِقُ نُورَ بَصِيرَتِهِ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْكُشُوفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَنَالُ بَصِيرَةَ الْقَلْبِ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قُوَّةُ الْقَلْبِ، وَثَبَاتُهُ، وَشَجَاعَتُهُ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ سُلْطَانَ النُّصْرَةِ مَعَ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ، وَفِي الْأَثَرِ: الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرُقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ، وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي الْمُتَّبِعِ لِهَوَاهُ مِنْ الذُّلِّ، ذُلِّ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا وَمُهَانَتِهَا، مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِمَنْ عَصَاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْعِزَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَالذِّلَّةَ لِمَنْ عَصَاهُ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ: وَإِنْ هَمْلَجَتْ بِهِمْ الْبَرَاذِينُ، وَطَقْطَقَتْ بِهِمْ الْبِغَالُ، فَإِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ، يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ، وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالاهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَفِيهِ قِسْطٌ مِنْ فِعْلِ مَنْ عَادَاهُ بِمَعَاصِيهِ)[١].

(١) – الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٨).

أثر النظر للحرام على قلب الإنسان

إن أعظم آثار الذنوب وأشدها خطرًا على القلوب تلك التي تأتي من قبل الحارس، وتدخل على يد البواب الفارس (العين)، وبالتالي تفري القلب فريًا، وتعبث به عبثًا، ولهذا كان لا بد من تفصيل شديد، وعناوين متعددة وكثيرة كعلاجات إسعافية، وجرعات وقائية ودوائب لهذه القضية المهمة والمفصلية فأقول:

القلب الحي والذنب!

إنها حسرات لا حسرة، وظلمات لا ظلمة، ونار تتوقد، وقلب فيه صراعات تتجسد وتتمدد، لكن القلب المضيء بنور الطاعة عندما تدخل عليه المعصية تظلم القلب، وتواجه النور، وتنكت نكتة في القلب يغتم لها، وتنقلب الدنيا أمامه رأسًا على عقب، ويكرهها، ولا يرضاها فيه، ويعلن غضبه وسخطه على صاحب الذنب، ولا يتأقلم مع الذنب، وهذه الظلمة هي أشبه بمحتل زاحف، أو عدو متربص، وبالتالي يضيق بها ذرعًا، وتبدأ همومه وغمومه وأحزانه فتراه عابسًا كئيبًا مغتمًا متحسرًا نادمًا باكيا، بل أغلبهم ينذر أن لا يعود، أو يحلف أيمانًا مغلظة أن لن يرجع، أو يعاهد الله تعالى وهكذا كثير مما يردني، كل ذلك خروجًا من الألم أو ما يسمى بجلد الضمير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على بقاء شعاع الإيمان، وحب الرحمن، والخوف من النيران، فيحتاج ضرورة لعيادات إسعافية، ونصائح إرشادية، وأدوية قلبية، وغذاءات روحية، وهو ما يتهافت إليها الكثيرون بعد المعصية، ويطلبها الغيورون بعد الزلة والموبقة، لكن المشكلة العودة إلى الذنب مرة بعد مرة؛ كونه لم يصدق حقيقة في الإقلاع، ودليله بقاؤه في أرض الصراع، وموطن الضياع، وأعني به النت وما فيه من خبث، لا أقول ابتعادًا تامًا بل معالجات توصله للفطرة السوية، والحالة العادية، وتجد كل ذلك في ثنايا الكتاب بعون رب الأرباب.

كالكوز مجخياً

القلب الحي إذا عُرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت؛ فإنه لا يفرّق بين الحسن والقبيح كما قال ابن مسعود ﵁: (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر)، والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسّليم، (فهذا القلب له حياة وبه علة ففيه من محبة الله -سبحانه وتعالى- والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشّهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب ما هو مادة هلاكه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة)(١)، فإذا عرفت هذه الأمور من أحوال القلوب، وأن نجاتك يوم القيامة مشروطة بسلامة قلبك: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، فيجب عليك حينئذ أن تعتني بقلبك أتم العناية، فتعرف ما يدخله من الخواطر، وما تمر عليه من المناظر، وتحفظ النّوافذ الموصلة إليه من كل ما يضعفه ويمرضه، وإن أعظم نافذة على قلبك، وأخطر منفذ إليه هو منفذ العين؛ فالعين رائد القلب، وهي منظاره التي يرى بها المحسوسات، ولذلك نادى جل وعلا المؤمنين والمؤمنات وليس المسلمين والمسلمات فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ} [النور: ٣٠، ٣١].

(١) – إغاثة اللهفان(١/ ٩) دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥–١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

الران!

فلا شك أن عمل المعصية إنما هو بجهل أو استخفاف بالذنب، أو عدم تقدير للعقوبة، أو غلبة للشهوة والشيطان حتى يصل بالإنسان إلى مرحلة الران، قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ويقول الحسن ـ رحمه الله ـ: (هو الذنب بعد الذنب، حتى يعمى القلب)، ولذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسومه حيث أراد)، وفي البخاري ومسلم: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا عُودًا كَالْحَصِيرِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا -وَأَمَالَ كَفَّهُ- لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"(١)، فلا بد من صفاء ونقاء القلب من الذنوب؛ كي لا تعميه فلا يرى الحق بسبب تراكمها عليه.

---

(١) – رواه البخاري ومسلم: عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟، فَقُلْتُ: أَنَا أَحْفَظُهُ قَالَ: فَهَاتِ، إِنَّكَ لَجَرِيءٌ فَقُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا عُودًا كَالْحَصِيرِ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ

القلب الزبالة

فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والأنس به، والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك كله؛ لأن بين العين والقلب طريقًا ومنفذًا ولا ينفصل أحدهما عن الآخر، وإن كلًا منهما يصلح بصلاح الآخر، ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ٢٨].

أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا –وَأَمَالَ كَفَّهُ– لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" (فَقَالَ عُمَرُ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ؟، قَالُوا: أَجَلْ ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الْفِتْنَةَ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فَقُلْتُ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا فَقَالَ عُمَرُ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ فَقُلْتُ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: فَإِنَّهُ إِذَا كُسِرَ لَمْ يُغْلَقَ أَبَدًا، فَقُلْتُ: أَجَلْ قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟، قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ عَنْ الْبَابِ، فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ").

طعنات متوالية

إما أن تسلم قلبك لربك ﷻ، وإما أن ترسله لعدوك، وتحارب به نفسك بنفسك؛ لكن فالنظرات المحرمة سهم في القلب، وجراحات غائرة في الفؤاد، ومهلكة تقود لطول الرقاد هذا إذا كان من النظر وحده فكيف بجرعات أخرى متواصلة، وسموم كثيرة متلاحقة، فإذا سمعت الحرام فهو سهم في القلب، وإذا بطشت في الحرام فهو سهم في القلب، وهكذا المحرمات عمومًا، وبالتالي يبقى القلب مطعونًا من كل جهة، أما قلب المؤمن فهو كالملك على العرش، متربع عليه، والجنود يذودون عنه، ويحمونه فلا يفترس أحد، ولا يصيبه مكروه أبدا!.

دوام تعلق القلب وجنايته

قال ابن تيمية -رحمه الله-: (من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا، وأقلهم ثوابًا؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبدًا له اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين، كما قيل:

سكران سكر هوى، وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران

وقيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله؛ فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر، قال تعالى في حق يوسف: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى

الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص، وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج، قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥]؛ فإن الصلاة فيها دفع للمكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع المكروه؛ فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله)[١].

---

(١) – الفتاوى الكبرى (٥/ ١٨٥)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م، المحقق: محمد عبد القادر عطا – مصطفى عبد القادر عطا.

نجاسة الفواحش والمعاصي للقلب

نجاسة عظيمة لا تطهرها مياه الأرض، ولا تنفعها غير توبة صادقة، وعودة حقيقية للواحد الأحد قال ابن القيم: (فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغَل في الزرع، وبمنزلة الخَبَث في الذهب والفضة والنحاس والحديد؛ فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا مُعَوِّق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفَّذ حكمه في رعيّته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج) (١).

وقال ابن تيمية -رحمه الله- في كلام يشبه كلام تلميذه، ولعل الأول أخذ من كلام شيخه وزاد عليه واستفاد منه: (كذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الاخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة، كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن، وكذلك

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٦)، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ـ ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغًا من تخليطاته حيث خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه؛ فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} [النور: ٢١]، وقال تعالى: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} [النور: ٢٨]، وقال: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠]، وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} [عبس: ٣]، وقال تعالى: {فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات: ١٨، ١٩]، فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة، وزيادة الخير؛ فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا)(١).

(١) – أمراض القلوب (ص: ٦)، الناشر المطبعة السلفية، سنة النشر ١٣٩٩هـ، مكان النشر القاهرة، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٦).

نور الله في قلب الطائع

(وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وما ابتُلوا به، ثم قال بعد ذلك: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرّسون الذين سلِموا من النظر المحرَّم والفاحشة، وقال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: ٣٥]، وسرُّ هذا أن الجزاء من جنس العمل، فمن غضَّ بصره عما حرَّمه الله عليه عوّضه الله من جنسه ما هو خير منه؛ فكما أمسك نورَ بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يَغُضَّه عن محارم الله، وهذا أمر يُحِسُّهُ الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صُوَر الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئَتْ لم ينطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخَرْص والظنون) (١).

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٨)، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥-١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

بين البصر والقلب

الجسد الواحد له علاقة كبيرة بكل شيء فيه، ولا ينفك أبدًا عن بعضه، بل بعض الأعضاء تعد المحور الأبرز فيه كالقلب والعين، وبالتالي فسلامة أحدهما مقترنًا بسلامة الآخر فهناك ربط بين غض البصر وحفظ الفرج؛ لأن الوقوع في الفواحش إنما يكون بمقدمات يأخذه الشيطان خطوة خطوة، ولذلك قال ربنا: {وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}، والعلماء يقولون: نظرة، ثم خطرة، ثم فكرة، ثم إرادة، ثم عزيمة، ثم فعل، فالشيطان يستدرجه استدراجًا ولا يقحمه إقحامًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [النور: ٢١]، ولتقريب هذه الصورة تعال لننظر إلى المثل الذي ضربه ابن القيم كما في كتابه روضة المحبين ونزهة المشتاقين في مثل الرجل الذي يتبع النظرة الأولى الثانية ولا يغض الطرف عما حرم عليه: (أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلى درب ضيق لا ينفذ، ولا يمكنها أن تستدير فيه للخروج، فإذا همَّت بالدخول فيه فاكبحها؛ لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصِحْ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإذا رَدَدْتها إلى ورائها سهل الأمر، وإذا توانيت حتى ولجت، وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذَنبها عسر عليك أو تعذر خروجها؛ فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوقُها إلى داخل؟!، فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجل الحازم وحسم المدة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب في محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكّنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى

يفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويلقي القلب في التلف، والسبب في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أولاً لاستراح قلبه وسلم، وكما روي عن النبي ﷺ كما عند الحاكم في المستدرك والطبراني (النظرة سهم من سهام إبليس)[١]؛ فإن السهم شأنه أن يسري في القلب فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه وإلا قتله ولابد)[٢]، فغض البصر استعفاف، وهو وسيلة لحفظ الفرج والقلب؛ فالعين رائد القلب كما قال بعضهم:

ألم تر أن العين للقلب رائد فما تألف العينان فالقلب آلف).

ويقول كما في كتابه الجواب الكافي عندما تكلم عن الزنا فقال: (ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج؛ فإن كل الحوادث مبدؤها من النظر تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة، فأما اللحظات فهي رائدة الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق نظره أورد نفسه موارد الهلاك، والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرى الإنسان ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب، ولما كان النظر من أقرب الوسائل

(١) – رواه أحمد في مسنده وهو حديث ضعيف، لو صح كان خير حديث في بابه.

(٢) – روضة المحبين (ص: ٩٣) دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة كما حرمت الصلاة في أوقات النهي؛ لئلا تكون وسيلة إلى التشبيه بالكفار في سجودهم للشمس، وأبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصحيح، من أجل هذا قال الله عز وجل: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، و(من) تبعيضية، أي أنه لم يأمر الله عز وجل بغض البصر مطلقًا بل أمر بالغض منه؛ لأن هناك أمور مستثناة في النظر كالخطبة، والتداوي، فجاء حرف (من) لبيان أنه يجوز النظر في حالات معينة، أما عند حفظ الفرج فلم يقل عز وجل: (ويحفظوا من فروجهم) وإنما قال: {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور: ٣٠]؛ لأن حفظ الفرج واجب في كل الأحوال، مأمور به، وحفظ الفرج أعم من كل محرم سواء أكان هذا الحفظ هو الإفضاء إلى كل محرم، أو حفظ الفرج بمعنى التستر أي عدم التكشف)[1].

---

(١) – الداء والدواء ط المجمع (١/ ٣٤٧).

أصل الفتن

أما علم ذلك العاصي بنظره أن عينه سبب البلاء، وأصل الداء بقول العلماء وناطقهم أبو الأعلى المودودي -رحمه الله- حيث قال: "من الذي يكابر في أن كل ما يحدث في الدنيا إلى هذا اليوم ولا يزال يحدث فيها من الفحشاء والفجور باعثه الأول والأعظم هو فتنة النظر"، بل فوق هذا وأعظم منه ما نقل ابن الحاج من إجماع العلماء بقوله: (ووقع الإجماع على أن النظر أعظم الجوارح آفة على القلب وأسرع الأمور في خراب الدين والدنيا)، ألا فالحذر الحذر.

القلب إناء ينضح بما فيه!

كن على يقين بأنك إن أطلقت بصرك رأيت من المناظر ما يؤثر في قلبك، ويترك نكتة سوداء على قارورة صافية نقية هي فؤادك، وإذا تأثر القلب فإن الأمر خطير، والشر مستطير، ومرض القلب سواء أكان مرضًا حسيًا أو معنويًا ليس كأمراض الجوارح، بل القلب كالإناء والجوارح تصب فيه، فما تراه بعينك، وما تسمعه بأذنك، وما تلمسه بيدك، وما تمشي إليه برجلك، وهكذا ما تكسبه بأي جارحة من جوارحك تجد أثره حتمًا في قلبك، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإذا ذكرت الله تعالى بلسانك تأثر قلبك وخشع، وإذا تكلمت بكلام الفحش تأثر قلبك وفسد واتضع، وهكذا كل معصية وكل طاعة بالجوارح فأثرها على القلب كأثر السموم في الأبدان، وكل إناء بما فيه ينضح، وأنت من يدخل في هذا الإناء ما شاء من خير وشر، ومن داء ودواء فاختر لنفسك، واحذر أن تفسد قلبك بيدك، وهو بيت ربك، وهو محل نظر إلهك ومليكك: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وأي سلامة لقلب امتلأ بالشر..!.

القلب المريض تشخيص وعلاج..!

إشكالية الكثير أنهم يعتنون بأمراض أجسادهم، وينفقون أموالهم لأجل علل تافهة من أمراض نزلت بهم، بينما تجد قلبه قد مات منذ سنوات دون أن يحرك ساكنًا لعلاجه، أو يحدث إثرًا لإسعافه، وما علموا على أن أمراض القلوب أخطر، وعلاجها أهم وأعظم وأفرض وأوجب؛ إذ بصلاح القلب صلاح البدن كله، وبفساده فساد البدن كله فَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" رواه البخاري ومسلم، بل ليس صلاح وفساد القلب في الدنيا بل نجاته ونجاتنا معه في الآخرة: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وعادة البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح، فتجده يتأذى من يسير ما نزل به كالحر والبرد ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه، بل يستسلم عند أول صورة عُرضت عليه، ويقتحم أي حرام ظهر له، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته، وعافيته وتجلده، فتراه يعرض عليه الحرام ويأباه، ويدفعه ولا يفكر فيه، ولا ينجر إليه، ولا يخشى عليه منه؛ فمعه درعه الواقي، وزاده الوافي، وطعامه وشرابه الكافي، فإذا حصل لمريض القلب عَرَض من هذه الأعراض وجب عليه أن يداويه، وأن يسارع لعلاجه، وقبل ذلك أن تكون له

حمية تامة، ووقاية كافية من الوقوع في أي فتنة قد تمرض القلب، وتسقطه من جديد في أوحال الذنب.

مصداق ذلك كله كلمات متنوعة لابن القيم -رحمه الله تعالى- قالها في كتابه إغاثة اللهفان تحت الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته: (كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به كما له في حصول ذلك الفعل منه ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين)[١]، ثم قال أيضًا: (وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئًا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض)، ثم قال: (وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألّم بورود القبيح

(١) – إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ط عالم الفوائد (١/ ١١٢).

عليه، وتألّم بجهله بالحق بحسب حياته: وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ)، ثم قال في المرجع نفسه: (علامات أمراض القلوب: عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعدولها عن دوائها النافع إلى دوائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذى، والقلب المريض بضد ذلك)[1].

(١) – المرجع السابق.

تعطل القلب

لا بد أن تجد ذلك الذي استمرأ العصيان، ودام على معصية الرحمن، ونسي ما أعد له في الجنان، وما توعده في النيران لا تنفعه موعظة، ولا تؤثر فيه عظة، ولا ينزجر بشيء، ولا ينفع معه شيء؛ فقلبه ميت لا يتحرك، وفؤاده متوفي لا يدرك، بل هو كالحديد، وهل ينفع الضرب في حديد بارد؟ فلا بد من أن ينصهر هذا الحديد ويلين، والموعظة -كما يقال- مثل الصقر لا يسقط على جيفة، بل لا بد من أن يصطاد الشيء الحي، فكذلك الموعظة لا تسقط إلا على القلب الحي فينتفع بها: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق: ٣٧]، بل قال: {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}[الأعلى: ١٠ - ١٣]، وقال: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[الذاريات: ٥٥].

أنوار الطاعات وظلمات المعاصي

لا ريب أن للطاعات أنوار وأضواء، وما المعاصي إلا نكبات وحسرات وظلمات وشقاء، وبقدر ظلمتها يكون تخبط العبد في الذنب، وعودته إليه الوقت بعد الوقت، وإدمانه عليه، وتردده في كل مرة، ورجوعه إليه كرة بعد كرة، وبين فترة وفترة، ولهذا قال ربنا: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]، ولقد قال الإمام مالك للشافعي لما قابله في أول مرة ورأى توقد ذهنه، وسرعة حافظته، وقوة فهمه، ونبوغه وهمته، وذكاه وفطنته: "يا أبا عبدالله إني أرى عليك نور الطاعة، فلا تطفئه بظلمة المعصية"، ولما أطفأه مرة بنظرة خاطفة لساق امرأة في السوق ذهب كلما كان يجد من حفظ، وعلم، وفهم، وحكمة، وفطنة... فعاد لشيخه وكيع بن الجراح في أبيات سجلها:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

وإنما القلب أشبه بمرآة كلما أذنب العبد نُكت فيها، وكلما زاد النكت فيها خف دقة المرئي إذا أراد أن يرى صورته أحد من خلالها، ثم إذا كثُر الذنب لا يرى فيها أي شيء بعد ذلك، والعكس بالعكس؛ فالقلب المشع بالطاعات يكون صقيلًا شفافًا يرى كل شيء، ولا تخفى عليه الفتن، ولا تنطلي عليه الشبهات، ولا يقع فريسة

للشهوات، ولا ينغمس في الملذات، بل يترفع كل الترفع عن القاذورات، والدخول في المتاهات.

العين حارس القلب

وكما أن العين بريد الفرج ورسوله نحو الفجور، فهي حارس وقائد للقلب إلى كل ذنب ومحظور، وبابه الأكبر، ومفتاحه الأول، ولهذا يأتي البلاء كله على القلب من عشق، وغرام، وحرام، ونار بسبب نظرة من العين للمنظور فتعلق القلب به، واشتغل بأمره، وتاه فيه، وأظلمت الدنيا أمامه إن لم يره، ولم يقعد إليه، ولم يجلس بين يديه، أو يلحظه بناظريه، فهي سلسلة متصلة، وحلقة مستمرة، لا تهدأ ولا تمل، ولا تكف ولا تستقر حتى تصل بصاحبها للزنا، والحرام، والفحش ثم النار...!.

قال ابن القيم: (وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته)[١]، وصدق - رحمه الله- فلولا العين لما دخل للقلب صورة المنظور، ولما تلوث بهذا الذنب بل الألم الدائم، والعذاب المستمر، ولهذا جعل النبي ﷺ العين زانية قبل أن تزني كل الجوارح؛ لأنها تابعة لها ففي البخاري ومسلم: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبَلُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ: يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، أَوْ يُكَذِّبُهُ"، قال ابن القيم معلقًا

---

(١) – روضة المحبين (ص: ٩٢)، دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

على الحديث: (فبدأ بزنا العين؛ لأنه أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج، ونبه بزنا اللسان بالكلام على زنا الفم بالقبل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل، أو مكذبًا له إن لم يحققه، وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر، وأن ذلك زناها)[1].

---

(1) - روضة المحبين (ص: ٩٢)، دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

العين بوابة القلب

نعم إنه البوابة الرسمية، والحارس الوحيد الشخصي، والمفتاح الأهم المعنوي، ولهذا قال الإمام القرطبي -رحمه الله-: (البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثُر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله، وقد قال ﷺ: "إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"، رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، خرجه البخاري ومسلم[1]، وقال ﷺ لعلي : "لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى وليست لك الثانية"[2]، وروى الأوزاعي -رحمه الله- قال: حدثني هارون بن رئاب: (أن غزوان وأبا موسى

---

(١) – متفق عليه ونصه: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ).

(٢) – رواه أحمد وأبو داود والترمذي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا عَلِيُّ، إِنَّ لَكَ كَنْزًا مِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا فَلَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ الْأُولَى لَكَ وَالْآخِرَةَ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى, وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ".

الأشعري كانا في بعض مغازيهم فكشفت جارية فنظر إليها غزوان ﷺ فرفع يده فلطم عينه حتى نفرت فقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك ولا ينفعك، فلقي أبا موسى ﷺ فسأله فقال: ظلمت عينك فاستغفر الله وتب؛ فإن لها أول نظرة وعليها ما كان بعد ذلك، قال الأوزاعي: وكان غزوان ﷺ ملك نفسه فلم يضحك حتى مات)، وفي صحيح مسلم: عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري، وهذا يقوي قول من يقول: إن {مِنْ} للتبعيض؛ لأن النظرة الأولى لا تملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف؛ إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودًا، فلا تكون مكتسبة، فلا يكون مكلفًا بها، فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تملك، ولقد كره الشعبي -رحمه الله- أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته وزمانه خير من زماننا هذا، وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات محرمة نظر شهوة يرددها)(١).

وقال أيضًا: (قوله تعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ" خص الله -سبحانه وتعالى- الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإن قوله "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ" يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين حسب كل خطاب عام في القرآن، وبدأ بالغض قبل الفرج؛ لأن البصر رائد للقلب، كما أن الحمى رائد الموت، فأمر -سبحانه وتعالى- المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ولا المرأة إلى الرجل؛ فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها)(٢).

---

(١) – تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٦/١٢).

وصدق -رحمه الله- فقد جاءت آية غض البصر في سورة النور بعد آيات الزنا، وقال القاسمي: (سر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج هو أن النظر بريد الزنا ورائد الشهوة، والنظر ليس محرمًا بذاته وإنما ما يؤول إليه، لهذا قال ابن القيم: "ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه")، وقال ابن كثير: (ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال السلف: النظر سهام سم إلى القلب، لذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث لذلك)[١].

والمعنى الجامع لما سبق، والمكّمل لما نقص، والمعلل لما لم يتضح: (أن العين بوابة إلى القلب، والشيطان يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها، ويجعله صنمًا يعكف عليها القلب، ثم يعده ويمنيه، ثم يوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيبعث ذلك على الفحش والفجور)[٢]، فهذا التوصيف هو التعليل الذي لا محيص عنه، ولا مفر منه، ويمثل الدواء الناجع على الجرح الثائر.

(١)- تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٤).

(٢) - الداء والدواء ط المجمع (١/ ٤٢٠).

القلب الميت من النظرات

نعم ميّت وإن كان على ظهر الحياة؛ لأنه لم يسلك سبل النجاة، ولم يعرف للهداية أي سبيل، ولم يتحرك لأجلها أي تحريك: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢]، فيعيش في ظلماته وغيه، وذنوبه ومعاصيه دون أن يشعر بجرمها، أو يعاني من وطأتها، أو يهتم لمأساتها فتراه يصبح ويمسي، وتأتي السنة والتي تليها وهو هو لم يتب، لم يراجع نفسه، ولم يقرر عودة أبدًا لربه؛ وذلك أن كثرت الذنوب تُسوّد نور القلب فلا يتأثر بأي شيء، ولا يردعه أي رادع، بل عنده يوم الذنب وغيره سواء، ولا يبالي بشيء أبدًا، فتراه يتعثر بالذنب ولا ينزجر، وتعيقه المعاصي فلا يرعوي، وكفى بهذه عقوبة لقوم يعقلون؛ إذ لا يفيق من غفلته حتى يأتيه أجله: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، أما من لم يتعود على الذنب، ولم يكثر منه، ومن كان قلبه حيًا، ولم يظلم بعد، ولم ينتكس ويرتكس، ويجخي، ويعلوه الران، ولم تسود مرآة القلب؛ لكثرة تلطيخها بالذنب!.

دليل ذلك ما في البخاري ومسلم: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا عُودًا كَالْحَصِيرِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا -وَأَمَالَ كَفَّهُ- لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ".

عبودية القلب للصور

ليس على القلب أضر من تعلقه بغير الله، وإدمانه على معصيته، وبعده عنه بذنوبه، وخضوع قلبه لغيره، وما القلب إلا لله فإن زاحمه شيء من الحياة فربنا كريم، والعبد بطبعه لئيم يحب العاجل وينسى الآجل وبالتالي تركه الرب لغيره، قال ابن تيمية -رحمه الله-: (وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أسره كافر، أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استُعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أُكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك، وأما من استُعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس؛ فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس قال النبيﷺ: "ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس"، وهؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبدًا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فداوم تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبّهون بالسكارى والمجانين كما قيل:

سُكران سُكر هوىً وسُكر مدامة   ومتى إفاقة من به سُكران؟

وقيل:

قالوا جُننْت بِمَنْ تهوى فقلتُ لَهُمْ   العشقُ أعظمُ مِمَّا بالمَجانين

العشقُ لا يستفيقُ الدَّهْرُ صاحِبُهُ   وإنَّما يُصْرعُ المَجنونُ في الحين

وهذا لعمرو الله إذا كان قد استبعد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة أو صبي فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب)(١).

(١) - العبودية (ص: ٨٨)، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، المحقق: محمد زهير الشاويش.

أفسد مفسدات القلب

مفسدة عظيمة، ومعصية جليلة، وأقطع القواطع عن الله والدار الآخرة، وأمنع الموانع عنه سبحانه إنه التعلق بغيره ﷻ من الصور الفاضحة، والمقاطع المخزية، والرذائلة المنحطة، ويصبح عبدًا لها، تابعًا ذليلًا منقادًا لأصحابها، قال ابن القيم -رحمه الله-: (وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه؛ فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله -عز وجل- بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}[مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: {اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس: ٧٤، ٧٥]، فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه، وسعادته، وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرّض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت، وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}[الإسراء: ٢٢]، مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك؛ إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذمومًا منصورًا كالذي قهر وتسلط عليه

بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة لا محمود ولا منصور) [1].

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٧).

فراغ القلب!

إن مصيبة المصائب، وأم الكوارث، وبداية كل معصية وفتنة وشر هو فراغ القلب عن الله والدار الآخرة، وبالتالي الانشغال تلقائيًا بالمعاصي؛ فلا بديل للرحمن إلا الشيطان، ونفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، فالقلب باختصار لا يحب الفراغ، فإما أن تشغله بالرحمن أو الشيطان، فبادر لحراسته، وأشغله بطاعة ربه، والتمتع بلذيذ خطابه، وترتيل آياته، والنظر في ملكوته: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٩]، وفي سورة البقرة قال منبهًا ومحذرًا: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]!، وصدق مجنون ليلى حين قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا فارغًا فتمكنا

وهنا لا بد أن أسوق كلامًا رائعًا لابن القيم ذكره في روضة المحبين وهو يتحدث في الباب السابع عن ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم: (وأصل بليتك أنه خلا منك حب الله، وحب ذكره، وكلامه، وأسمائه وصفاته، وأقبلت على غيره، وأعرضت عنه، وتعوضت بحب من سواه، والرغبة فيه منه، هذا وقد سمعت ما قص عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالهم طعامًا بطعام أدنى منه، فذمهم على ذلك ونعاه عليهم، وقال: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [البقرة: ٦١]، فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه، وفاطره، ووليه، ومالك أمره، الذي لا صلاح له، ولا فلاح، ولا نعيم، ولا سرور، ولا فرحة، ولا نجاة إلا بأن يوحده في الحب ويكون أحب إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت، وبمحبة من تعوضت، رضيت لنفسك بالحبس في الحش، وقلوب محبيه تجول حول العرش، فلو أقبلت عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب، ولأمنت من المتالف والمعاطب، أو ما علمت أنه خص بالفوز والنعيم من أتاه بقلب سليم، أي سليم مما سواه ليس فيه غير حبه، واتباع رضاه قالت وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماك في القياس وقد قال من بيده أزمة الأمور: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]) (١).

فما من بلاء أعظم، ولا داء أدوأ من فراغ القلب، وتعطل وظيفته، وخلوه عن عمله؛ فالقلب لا يحب الفراغ ولهذا تجد أكثر الناس تعلقًا بالحرام، وتمتعًا بمعصية الرحمن هم أولئك الذين فرغت قلوبهم، ولعبت بهم أهواؤهم، وابتعدوا بها عن طاعة

---

(١) روضة المحبين (ص: ١٠٩) دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

ربهم، ولم يخضعوها لأوامر شرعهم: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: ٣٦]، قال ابن القيم: (وعشقُ الصُّوَر إنما تُبتلى به القلوبُ الفارغة مِن محبة الله تعالى، المُعرِضةُ عنه، المتعوِّضةُ بغيره عنه، فإذا امتلأَ القلبُ من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفَع ذلك عنه مرضَ عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حقِّ يوسفعليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[يوسف: ٢٤]) [١]، وإنما القلب كما قال -رحمه الله-: (لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه)[٢]، فاختر ما هي النقوش التي تود أن تنقشها في قلبك، وقال كما في: طريق الهجرتين: (والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه[٣] فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب، يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله؛ فهو إناء واحد، والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبقَ فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأما إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه كما قال بعضهم[٤]:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٦٨)، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

(٢) - الجواب الكافي (ص: ١١٠) دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) - يشير لقول الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

(٤) - وهو مجنون ليلى قيس بن الملوح، وقد نسب البيت ابن القيم -رحمه الله- لمجنون ليلى في كثير من كتبه لكن كما هي عادته -رحمه الله لا هنا وفقط- بأنه أحيانًا ينسب، وأحيانًا يترك النسبة، انظر مثلًا: روضة المحبين (ص: ١٣٨).

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إنائه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة؛ لأن كل شراب مسكر ولا بد، وما أسكر كثيره فقليله حرام، وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر، وكيف يوضع شراب التسنيم الذي هو أعلى أشربة المحبين في إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى، ولا يفيق من سكره، ولا يستفيق ولو فارق هذا السكر القلب لطار بأجنحة الشوق إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضي المسكين بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن، صفقة خاسر مغبون، فسيعلم أي حظ أضاع إذا فاز المحبون وخسر المبطلون)(١).

وفي إغاثة اللهفان يقول بعد أن عدد تدرج الحب من القلب: (إنما تبتلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره)(٢).

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِن مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

وَالعَيْنُ أَصْلُ عِنَاهَا فِتْنَةُ النَّظَرِ...وَالقَلْبُ كُلُّ أَذاهُ الشُّغْلُ بِالفِكَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ نَقَشَتْ في القَلْبِ صُورَةَ من رَاحَ الفُؤَادُ بِهَا في الأَسْرِ وَالحَذَرِ

وَالمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا..في أَعْيُنِ العِيْنِ مَوقُوفٌ على الخَطَر

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَبًا بِسَرُورٍ جَاءَ بِالضَّرَرِ

فَالقَلْبُ يَحْسُدُ نُورَ العَيْنِ إِذَ نَظَرَتْ وَالعَيْنُ تَحْسُدُهُ حَقًا عَلَى الفِكَرِ

(١) – طريق الهجرتين (ص: ٣٨)

(٢) – إغاثة اللهفان (١/ ٤٧) دار المعرفة.

يَقُولُ قَلْبِي لِعَيْنِي كُلَّمَا نَظَرَتْ ... كَمْ تَنْظُرِينَ رَمَاكِ اللهُ بِالسَّهَرِ

فَالعَيْن تُـورثُهُ هَمـًا فَتُشْغِلُهُ ... وَالقَلْبُ بالدَّمْعِ يَنْهَاهَا عَنِ النَّظَرِ

هَذَانِ خَصْمَانِ لا أَرْضَى بِحُكْمِهِمَا...فَاحْكُمْ فَدَيْتُكَ بَيْنَ القَلْبِ وَالبَصَرِ

وأختم بكلام خطير لابن تيمية -رحمه الله-؛ إذ قال: (وَبَابُ التَّعَلُّقِ بِالصُّوَرِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْفَوَاحِشِ، وَبَاطِنُهُ مِنْ بَاطِنِ الْفَوَاحِشِ، وَهُوَ مِنْ بَاطِنِ الْإِثْمِ، قَالَ تَعَالَى: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}، وَقَدْ قَالَ: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ})[١].

(١) – الفتاوى الكبرى (١/ ٢٩٠)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

الخواء الروحي

عندما لا يجد القلب ما ينشغل به، ولا حظ له من عبادة تملأ قلبه، وحبًا لربه جل وعلا يشغل به جوارحه، وحياة مع الله تعالى تنسي كل حياة ثانية، يتخبط في الحياة تخبط العشواء، ويظل يلهث خلف الشهوات، ويجري وراء الملذات، ويصبح أسيرًا للدنيا، عبدًا حقيقيًا لها فلا يتركها حتى يأتيه الموت على غرة، وليس بعد الموت عودة، ولا تنفع حتى الندامة، والطريق الأمثل هنا هو شحن القلب برصيد الإيمان، ومراقبة الرحمن، والشوق للجنان، والتفرغ لرب الأرض والسماء، وسلامة القلب من أي شائبة سوى الحياة الأخرى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨، ٨٩]!.

غيرة الله على قلب عبده

لا ريب أن القلب الذي اتصل بخالقه، وتعرّف على ربه، واقترب منه منذ زمن، ورحل إليه منذ أجل أن الله جل وعلا لن يتركه فريسة لدنيا فانية، وأهواء زائلة، ومتع بالية، وسيحميه من الدنيا كم نحمي المريض مما نخاف عليه ونحذر، ولن يرتضي له أن يتلطخ في الحرام، أو أن يعيقه عن ربه ودرجته الآثام، بل حتى قواطع الدنيا من حب وبغض لا يحب له أن ينشغل بها عن ربه: "إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَنْ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ الْمَرِيضَ عَنْ الْمَاءِ"، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام لما بدأ يتملك قلبه حب يوسف عليه السلام حرمه الله منه، وقل كذلك عن خليله إبراهيم عليه السلام حين أمره بذبح وحيده الذي انتظره عشرات السنوات إسماعيل عليه السلام.

{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}

نعم هو شرط للنجاة، وركن ضروري لدخول جنة الله، لا في أي يوم بل: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، وفوق هذا فالمطلوب سلامته من كل آفة، وعافيته من كل نازلة، وحياته من كل سقم ومرض وألم؛ فالسليم هنا عام من كل شهوة وشبهة ومتعلق أيًا كان، فسليم من حب الصور، والتعلق بالحرام، ومتابعة الأفلام وكل المعاصي والآثام: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، قال العلماء: "القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله"، على أن علامة صاحب القلب السليم هذا الذي أتحدث عنه أنه ودائمًا يغض الطرف، ويخاف من النظر، وهو منه على حذر؛ لأنه يعلم أن فيه هلاكه، ومنه بلاؤه، ويأتي من خلاله حتفه، وحسرته، ومصيبته، وحرمانه الأكيد من جنة ربه، فضلًا عن سخطه، وأليم عقابه، أما صاحب القلب المريض فيستلذ بسهم النظر الذي فيه هلاكه وداؤه، ومصيبته، ونقمته، وعذابه، كما يستلذ الأجرب بحك الجلد، بالرغم أن حكه لجلده يزيد من مرضه، ويؤخر عافيته، ويعدمه حياته، فكذلك الذي يطلق بصره في ما حرم الله فإنه يضر نفسه، ويهلك فؤاده، ويعرض نفسه للخطر، وكل شيء في دينه ودنياه للضرر.

قسوة القلب

وكفى بها عقوبة لقوم يعلمون، ولو لم يكن من هذه العقوبة العظيمة إلا أنه تشبه بأهل الكتاب لكفى بها موعظة وزجرًا: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٧٤]، بل حذّر المؤمنين من مصير أهل الكتاب، وما آل إليه أمرهم، وانتهى إليه حالهم: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦]، وانظر بما ختم ربنا -جل وعلا- الآية الكريمة؛ فالفسق نتيجة قسوة القلب، وابتعاده عن الرب جل جلاله، وانغماسه في الذنب.

وكعلاج لقسوة القلب التي يشتكي منها الكثير خاصة من طال سباتهم، وغرقوا في شهواتهم، وأكثروا من معصية ربهم ما أورده الإمام ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- في كتابه ذم الهوى عن المعلى بن زياد -رحمه الله تعالى- قال: (قال رجل للحسن يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي؟ قال: أذبه من الذكر)، وقد روي: (أن رجلًا سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما دواء قسوة القلب، فأمرته بعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وتوقع الموت)، وشكا ذلك رجل إلى مالك بن دينار فقال: (أدمن الصيام، فإن وجدت قسوة فأطل القيام، فإن وجدت قسوة فأقل الطعام).

الباب الثالث

وعظيات

وباب هنا أفتحه، ومنزل واسع نلجه، وقصر عظيم ندخله، إنه باب الخواطر المتنوعة، والمواعظ المؤثرة، والأضرار المترتبة، والآثار الظاهرة والباطنة للنظر، والكوارث اليقينية لمن لم يغض بصره، ويحصن فرجه، ويعف نفسه، ويتق ربه، وهذا الباب الذي بين يديك هو الأطول، والأهم، والأعظم، وفيه ما فيه مما يصلح كوعظ، وكعلاج، وكزجر، وكحث... وقد تجده غير مرتب بالنسبة لك، لكنه كذلك بالنسبة لغيرك، وقد يصلح لهذا ما لا يصلح لذاك، والأهم هو الانتفاع به، فإليه إليه على بركة الله بنية صادقة للعمل، واستعانة حقة بمن بيده علاج العلل جل جلاله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]!.

{وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ}

وإن رأيته في عزة ظاهرة، ومنعة واضحة، فهو في ذلة دائمة، وخسة متواصلة؛ فقد قال جل وعلا: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ } [الحج: ١٨]، قال ابن القيم -رحمه الله- وهو يسوق فوائد غض البصر(١): (وفي الأثر: "إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله"، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه، قال الحسن: "إنهم وإن هملجت بهم البغال، وطقطقت بهم البراذين، إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه"، وقال بعض الشيوخ: "الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه"، وفي دعاء القنوت: "إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت")(٢).

وهذا ابن الجوزي -رحمه الله- شاهد على ذلك في صيده إذ قال: (بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى، لا تبع عزها بذل المعاصي، وصابر عطش الهوى في هجير

---

(١) – سبقت ص١٠٧ من كتابنا هذا.

(٢) – رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم: عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ – رضي الله عنهما – قَالَ: ("عَلَّمَنِي جَدِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ إِذَا رَفَعْتُ رَأسِي وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا السُّجُودُ اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ").

المشتهى وإن أمضَّ وأرمض)، أي وإن آلم وأحرق، وقال: (وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة؛ ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلاً؛ لأنه قُهِر، بخلاف غالب الهوى؛ فإنه يكون قوياً؛ لأنه قَهَر)[1]، وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: "إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته"، وقيل: "إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهنا"، وعن الحسن البصري -رحمه الله- أنه كان إذا ذكر أهل المعاصي يقول: "هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم".

---

(١) – صيد الخاطر (ص: ٤٥).

المعصية خوف

تجد العاصي يتخفى عند معصيته، ويستتر عند فعلته، ولا يحب أن يطلع أحد عليه، ويُحكم مكانه، ويتخيّر زمانه، ويتلفّت في كل جهة، ويحترز من كل ناحية، وينظر يمينه، وشماله، وأمامه، وخلفه، وتبدأ دقات قلبه، وعرق جبينه، حتى لو سقطت ورقة، أو رفت شجرة لانخلع قلبه خوفًا، بل يحسب الدنيا كلها عليه فمن تكلم أو أشار أو ما يدل على فعله كأنما يقول أنتم تقصدونني، وتعنون إياي... كل هذا وأكثر يدلك على أن لا أمان في معصية الله، ولا أمن لمن عصا الله -عز وجل-، وفي الحديث القدسي الصحيح: عَنْ شداد بن أوس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَقُولُ اللهُ - عز وجل -: وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وفوق هذا فالله يهدد ويتوعد، ويحذر وينذر: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، وقال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]!.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنما تخفي عليه يغيب.

كالشارب من البحر

والكارثة الكبرى، والمعضلة العظمى، والعقوبة الشديدة في الدنيا قبل الأخرى أن الناظر للحرام لن يقنعه شيء على الإطلاق، ولن يشبعه شيء، ولن يرضا بشيء، ولن يقف عند حد، ولن يوقفه أحد، وإنما هو كالشارب من البحر كلما شرب ازداد ظمأ حتى يموت، وكذلك الناظر للحرام لا يزال يطلب المزيد، ويلهث لكل جديد، ويتطلع نحو ما يرِد، وما ينتج، وما يُرسل، وما يوصل، ولا يجد لذلك أي رواء، أو قطع للظماء، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- وهو يعدد فوائد غض البصر(١): (وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضري على المحظور، ولم تقف نفسه منه عند غاية؛ فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا، وأطيب مخبرًا، فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه).

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق
ولما رأى أدمعًا تستهل ... وأبصر أحشاءه تحترق
تمنى الإفاقة من سكره ... فلم يستطعها ولم يستفق

---

(١) – وقد تقدمت ص١٠٧ من كتابنا هذا.

الأكثر وقوعًا في الحرام هو الأقل عقلا!

من لم يفكر بالعواقب، ولم يخف من شر النوائب، ولم يستشر عقله، ويحصي ما أنعم الله عليه به، وما سماه الله حجرًا أي يحجر من الوقوع فيما فيه حتفه في العاجل أو الآجل: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر: ٥]، وما سماه لبًا وبصرًا: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١]، ولمّا فعل ما فعل ببني النضير قال: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: ٢]، فمن لم يعد إليه، وينتفع به، ويهديه إلى سواء السبيل فليس له عقل، بل بقدر اقتحامه للخطر يكون خفة عقله، ومقدار نقصه، وتفاهة ما معه؛ إذ كيف يقود نفسه للتهلكة في معصية لا يجد لذتها إلا ثوان معدودة، ولحظات محسوبة، ثم ينتهي كل ذلك ويصير لألم وحسرة، وغصة وندامة، ونار خالدًا فيها بالرغم ذنبه للحظة: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣]، {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ١٦٩]، وكيف يفضّل عاجل لحظات بنار يلبث فيها مليارات السنوات وهو لا يستطيع الصبر هنا حتى على غمسة للحظات: فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلَاءً كَانَ فِي الدُّنْيَا فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا

رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤُسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ") رواه مسلم وبعض ألفاظه عند ابن ماجه وأحمد.

وَأَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبَبًا ... حَتَّى يُفَكِّرَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهُ.

سكر من نوع آخر!

أما علم ذلك اللاهث وراء الحرام، والمهدر دينه في النظر للمحرمات والآثام، أنه سكران حقيقة، لكن لا سكر شراب، بل سكر ألم وعذاب، وليس بألم أبدان، بل هو أعظم من ذلك على الإطلاق، إنه سكر القلب، وعذاب الروح، وإهلاك الفؤاد، مصداق ذلك في كتاب الله ما ذكره -تبارك وتعالى- عن قوم لوط عليه السلام وأنهم سكارى في شهواتهم اللوطية: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]، وقد تقدم معنا قول ابن القيم -رحمه الله-: (فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات).

الأطراف في نزاع الحسرات!

يحارب نفسه بنفسه، ويعلن عداوته وغضبه على جوارحه، ويضيع في متاهات الاتهام من المسؤول عن ضياعه: هل قلبه، أم عينه، أم فرجه، أم هواه، أم شيطانه... فيكون الحريق لكبده، والعذاب الأليم لقلبه، والهلاك لجوارحه، وسريان ذلك على كل بدنه!.

يقول قلبي لطرفي إذ بكى جزعًا تبكي وأنت الذي حملتني الوجعا

فقال طرفي له فيما يعاتبه بل أنت حملتني الآمال والطمعا

حتى إذا ما خلا كل بصاحبه كلاهما بطويل السقم قد قنعا

ناداهما كبدي لا تتلفا فلقد قطعتماني بما لا قيتما قطعا

وذكر ابن الجوزي عن أبي طاهر البغدادي -رحمها الله-:

عاتبت قلبي لما رأيت جسمي نحيلا

فألزم القلب طرفي وقال كنت الرسولا

فقال طرفي لقلبي بل أنت كنت الوكيلا

فقلت كفا جميعا تركتماني قتيلا

ونقل عن أبي محمد بن الخفاجي:

رمت عينها عيني وراحت سليمة فمن حاكم بين الكحيلة والعبرى

فيا طرف قد حذرتك النظرة التي خلست فما راقبت نهيًا ولا زجرا

ويا قلب قد أرداك من قبل مرة فويحك لم طاوعته مرة أخرى

وأختم بمقولة لابن القيم -رحمه الله-: (ومن أطلق نظره دامت حسرته؛ فأضر شيء على القلب إرسال البصر؛ فإنه يريه ما لا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، وقد قيل:

وَأَنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدَاً لِقَلْبِكَ يَوْمَاً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الذي لاَكُلَّهُ أَنتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ)[١].

يَا رَامِيًا بِسِهَامِ ِ اللَّحْظ ِمُجْتَهِدًا أَنْتَ الْقَتِيْلُ بِمَا تَرْمِ ِ فَلاَ تُصِبِ ِ

وَبَاعِثَ الْطَّرْف يَرْتَادُ الْشِفَاءَ لَهَ تَوَقَّـــهُ إِنَّهُ يَأْتِيْكَ بِالْعَطَبِ

---

(١) روضة المحبين (ص: ٩٧).

شبهة شيطانية!

الشيطان كعادته يلقي على ضعفاء النفوس، ومرضى القلوب، وأصحاب الأهواء، ومن تسلط عليهم الأعداء، وتملكهم السفهاء تلك الوساوس الشيطانية، والإيحاءات الإبليسية: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، فقد نقل مثل هذه ابن الجوزي في ذم الهوى، ورد على هذه الشبهة رد العلماء الفضلاء فقال: (قال لي بعض أهل هذا البلاء يومًا: قد سمعت منك تحريم النظر، وقد بالغت في التحذير من النظر، وإني نظرت يومًا إلى امرأة نظرة فهويتها، وقوي كلفي بها، فقالت لي النفس: إنك في بلاء عظيم مما لا تتيقنه؛ فإن أول نظرة لا تثبت الشخص، فلو أعدت النظر فربما أوجب التثبت السلو، فما تقول في هذه الحادثة؟.

فقلت له: هذا لا يصلح؛ لأربعة أوجه:

أحدها: أن هذا لا يحل.

والثاني: أنك لو نظرت فالظاهر تقوية ما عندك؛ فإن ما بهتك بأول نظرة فالظاهر حسنه، فلا تحسن المخاطرة بتوكيد الأمر لك؛ لأنك ربما رأيت ما هو فوق ظنك فزاد عذابك.

والثالث: أن إبليس عند قصدك لهذه النظرة يقوم في ركائبه ليزين لك ما لا يحسن، ثم لا تعان عليه؛ لأنك إذا أعرضت عن امتثال أمر الشرع تخلت عنك المعونة.

والرابع: أنك الآن في مقام معاملة للحق عز وجل على ترك محبوب، وأنت تريد أن تتثبت حتى إذا لم يكن المنظور مرضيًا تركته، فإذن يكون تركه لأنه لا يلائم غرضك لا لله تعالى، فأين معاملته بترك المحبوب لأجله وقد قال سبحانه: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان: ٨]، وقال: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢]، فإياك إياك)(١).

وأختم بكلمات نفاعة في هذا الباب لابن تيمية -عليه رحمة الله- حيث قال: (وَإِنِ انْتَفَتِ الْشَهْوَةِ؛ يَبْقَى النَّظَرُ مَظَنَّةَ الْفِتْنَةِ؛ وَالأَصْلُ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ سَبَبَاً في الْفِتْنَةِ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَجُوْزُ، وَمَنْ كَرَّرَ النَّظَرَ وَأَدَامَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لاَ أَنْظُرُ لِشَهْوَةٍ؛ فَقَدْ كَذَبَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ النَّظَرُ إِلاَ لِمَا حَصَلَ في قَلْبِهِ مِنَ اللَّذَّة، وَأَمَا نَظَرُ الْفَجْأَةِ؛ فَهْوَ عَفْوٌ إِذَا صَرَفَ بَصَرَهُ)(٢)، وبالتالي فالنظر باب للخطر، فأغلق الباب بما في كتاب رب الأرباب مهما طالت شبهات أصحاب الأهواء، وتعددت مبررات الشيطان القرناء: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}[النور: ٣١].

(١) – ذم الهوى (ص: ١٠٤).

(٢) – الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٧).

دحض وسوسة نسوية!

أعني تلك الكلمات المبررة لنظر النساء للرجال، وأن الحرمة مقتصرة على حرمة نظر الرجال للنساء، وهي لا تخرج عن سابق القول من أنها من إيحاء الشيطان الرجيم، وأعوانه المفلسين، أما كتاب رب العالمين فسوى بين الجميع: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} [النور: ٣٠، ٣١]، فأمر الرجال والنساء بالغض، وزادهن تكليفًا بالحشمة، وحرمة إظهار الزينة، فكان التكليف الشرعي عليهن أعظم، والعقل يوافق ذلك جد موافقة؛ إذ أن شهوة المرأة للرجال كشهوة الرجال للنساء بل أشد، فكيف يجيز الشرع لها أن تنظر ثم يحرم عليها ما وراء ذلك، بل إن أجاز فقد فتح عليها باب الفتنة، وعلى المجتمع بأسره؛ إذ ستدعو الرجال للحرام باشتهائها لصورهم، وتمتعها بمناظرهم.

فلا يحل للمرأة أن تنظر للرجال، وتتمعن النظر فيهم بغير حاجة شرعية مباحة، قال ابن كثير-رحمه الله-: (وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إلى أَنَّهُ لاَ يَجُوْزُ للمَرأَةِ الْنَّظَرُ إلى الْرِّجَالِ الأَجَانِبِ؛ بِشَهْوَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلاً، وَاحْتَجَّ كثير منهم بما روي عن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَيْمُونَةُ رضي الله عنها، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَذَلِكَ بَعْدَمَا أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "احْتَجِبَا مِنْهُ" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَوَ عَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ")[1] أخرجه أبو داود والترمذي، وقد قال ﷺ: "كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ" متفق عليه، واللفظ عام في الجميع رجالًا ونساء؛ ولأن العلة الشهوة وهي موجودة في الجنسين إن لم تكن في المرأة أكثر، ومادام مفتاحها النظر، ووسيلتها البصر فيجب أن يحرم.

---

(١) - مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٩)، دار القرآن الكريم، بيروت لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م، (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني.

نظر الله أقرب وأقرب وستره سيرفع!

نعم هذه هي الحقيقة ولو حاول التهرب منها، والتذمّر عليها، وتناسيها، وإلا فربه أقرب إليه من حبل الوريد، وقادر على إهلاكه، والانتقام منه، وأخذ أعضائه، وإعلاله في جسده ونفسه وجوارحه من لحظته، فماذا ينتظر غير امتلاء كأسه، ونزول العذاب على رأسه، وهو يمهل ولا يهمل ﷻ: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: ٤٥]، ولا تظن أن الأجل المسمى في الآية الكريمة الآخرة وحدها، بل هو في الدنيا قبل الآخرة، وربك يستر ثم يستر ثم يفضح، وقد أُلقي القبض في خلافة الفاروق رضي الله عنه على سارق فأقسم أنها أول سرقة، فأقسم عمر رضي الله عنه أنها ليست كذلك، ثم اعترف الرجل أنها العشرون!.

فسيأتي يومك مهما طال ستره عليك، وتركه لك دون عذاب، وإمهاله لك دون نزول عقاب، وإنما ينظر إلى أين يسلمك عقلك، وإلى أين يتجه بك هواك وشيطانك، وهو حليم، صبور، فإذا غضب فإنما يقول للشيء: {كُنْ فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧]، وقد قال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فإلى أين الملجأ والمهرب: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٤٥ - ٤٧]، {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك:

١٦، ١٧]، {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } [الإسراء: ٦٨، ٦٩]، فماذا تقول بعد هذا التهديد الرباني، والوعيد الإلهي!، وقد قيل للحسن البصري -رحمه الله-: (بِمَ نستعين على غض البصر؟ قال: بعلمك بأن نظر الله إليك أسرع من نظرك إلى المنظور إليه)!.

ربك يغار!

سؤال يجب أن أصارحك به، وأن أضاعه عليك، وإجابة يجب أن تحتفظ بها في نفسك، وتكون صريحًا مع ربك:

هل تستطيع أن تنظر إلى فتاة وأبوها -أو أحد من أقار بها- يراك ؟!.

هل تستطيع أن تنظر إلى امرأة وزوجها -أو أحد من أقار بها- يراك ؟!.

لا ريب أنك لن تفعل أبدًا؛ إذ تستحي، أو تخاف، فكيف تنظر إلى امرأة والله يراك، ويراقبك، ويغار على محارمه أن تنتهك، وعلى حدوده أن تجترح، هل جعلته أهون الناظرين إليك، وجعلت خوفك من البشر أعظم من خوفك من الله جل وعلا، أي استهتار بلغ بك، وأي كارثة وصلت إليها ؟!.

أيها الناظر للحرام، المستلذ بالآثام، العاصي طوال الليالي والأيام: أنت تنظر، والله ينظر، أنت تجترئ على حرمات الله، وتـمتع نظرك بالتلذذ بمحاسن امرأة لا تحل لك، والله ينظر إليك، ويغضب ويسخط عليك، ويمقتك من فوق سبع سماوات، ويحضّر لك عقوبة مدوية، ومصيبة منسية، وآلامًا مضنية فإلى أين أنت ذاهب، وإنما أنت أحد رجلين: إما أن تقول: لا يراني، وهو كفر، أو تقول يراني لكن تستهين به وهي كبيرة عظيمة!.

ما يتبع المعصية

لو علم العاصي أن توابع المعصية أشد وأكبر وأعظم وأجرم من المعصية نفسها لما هانت عليه المعصية، ولما فكر في الدخول في الفتنة، والخوض في سخط وغضب رب العزة جل جلاله، ولكف وارتدع وانزجر؛ لأنه علم أن تبعات الذنب أشد من الذنب، وأن صغائر الذنوب تتحول إلى كبائر بسبب توابعها، وما يرافقها وفي هذا يقول حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما-: "يا صاحب الذنب لا تأمن من فتنة الذنب، وسوء عاقبته، ولخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ولضحكك وأنت تذنب أعظم من الذنب، وفرحك به أشد، وحزنك عليه إن لم تتمكن منه أعظم من الذنب"، وفي رواية: "يا صاحب الذنب لا تأمنن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته)[1]، فماذا بربك تنتظر، وأي ذنب سيوقفك، وأي معصية ستعيد لك صوابك، وتردك إلى خالقك، أما ستبقى في غطاء الغفلة حتى يأتيك موتك: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [ق: ٢٢]!.

(١) - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٣/ ١٠٤١).

كبائر تحيط بالصغائر من معاصيك

أيها العاصي لعلك غفلت عن أسباب اتفق العلماء أنها تنقل صغائر الذنوب (والأصل أن كل الذنوب كبائر لو نظرنا لعظمة من نعصيه جل في علاه) إلى كبائر منها:

١- تعظيم الذنب، حتى يظن العاصي أنه أعظم من أن يغفره الله، أو لا يمكن أن يغفره، فكأنه شكك في قدرة الله تعالى، وظن به السوء، وفي صحيح مسلم: عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟؛ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ"، وفي كتاب الله تعالى سمّاه يأسًا، وجعله كفرًا: {وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، وفي أخرى قنوطًا وجعله ضلالًا: {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦]، ولا أحد يرتضي لنفسه ذلك أبدا.

٢- استصغار الذنب، وهو عكس الأول تمامًا، والأول قد يقع مع الطائعين المخبتين إن عصوا ربهم وكرروا، أما الثاني فيقع للمكثرين من المعاصي، المستخفين بها، غير المبالين بعظمتها، فهم يحتقرون ذنوبهم، ولا يكترثون بعظمة من يعصونه تبارك وتعالى، وهو عينه الأمن من مكر الله، وعدم الخوف من عقابه، وشديد عذابه: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]، وقبل ذلك قال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ

يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]، وقال محذرًا ومتوعدًا: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، وقد ورد عن ابن مسعود ﷺ: (أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يكاد أن يقع عليه، بينما المنافق يرى ذنبه كذباب سقط على أنفه فقال به هكذا أي بيده)، وهذا في حد ذاته يعد من سقوط الحياء من الله ﷻ، فضلًا عن تراكم تقاريره عند ربه، ثم بغضه له!.

٣-التعود على الذنب، وهذا يؤدي للاستهانة به، وإيصاله للكبيرة؛ فالإصرار على الصغائر يجعلها من الكبائر.

٤-المجاهرة بالذنب، إما بالحديث عنه، أو بنشره، أو بتوثيقه أو بأي شيء من أنواع نقل الذنب من ساحة السر بينه وبين الله ﷻ، إلى ساحة العلانية بينه وبين العباد، فضلًا عن أن في المجاهرة به تحد للربﷻ، ودعوة الخلق للإكثار منه.

٥-الجرأة على الذنب، ومعناه عدم المبالاة بأي ذنب وقع عليه، واقترفه، وبارز به ربه؛ لأن كثرة الذنوب غطت على القلب فأصبح أسودًا لا يبالي بأي سواد آخر أتاه، بل لا يحب إلا كل أسود يوافق ما في قلبه (أعني

الذنوب)، بينما القلب الأبيض يضيق من اللون الذي يخالف لونه (أعني الطاعة)، ويضيق به ذرعًا، ويرى كأن الدنيا قد سقطت عليه.

الجهل بالله

اعلم أيها العاصي لربك أنك لو عرفت قدرته، وبانت لك عظمته، واتضح لك جلاله وسلطانه ما بارزته بذنبك، ولا عصيته بجوارحك، ولا أذنبت بما وهب لك: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]، ولهذا نجد الملائكة -عليهم السلام- لا يعصون ربهم على الدوام، بل هم في عبادته منذ خلقهم حتى تقوم الساعة وهم على ذلك لا يفترون، بل يقولون: "سبحانك ما عبدناك حق عبادتك" وما ذاك إلا لأنهم عرفوه ﷻ فعظموه، ولم يعصوه أبدًا: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠]، بينما قال عن سبب معصية العباد له، موضحًا أنها الجهالة به: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧]، ولم يُعصَ الله ﷻ إلا عن جهالة كما قال الإمام الغزالي -رحمه الله-!.

شعاع الإيمان

نعم شعاع الإيمان كلما زاد في قلب العبد أحرق الشبهات والشهوات، وكلما ضعف لا يتمكن من ذلك، وبقدر وجود هذا الشعاع بقدر بعد العبد من الذنب، واقترابه من الرب ﷻ، وازدياد خشيته تعالى في قلبه، وتعظيمه من أن يعصيه، وخوفه من أن يفعل ما يغضبه، وبالتالي هذا الشعاع يحيل بين العبد وبين المعاصي، ويجعل بينه وبينها حاجزًا عظيمًا، وجسرًا منيعًا: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

وهنا لا يفوتني أن أنقل كلمات في صميم ما تقدم لابن القيم -رحمه الله- وهي بمعنى كلامه لا بنصه؛ إذ غالب نقلي هنا كان من حافظتي، ولم يتسنَ لي العودة لكثير من المراجع: (هناك أناس بينهم وبين الحرام والمعاصي حائلًا:

١- كالجبل، فلا يشم لها رائحة، ولا يسمع لها صوتًا، ولا يرى لها لونًا، ولا حركة، وهذا يدخل فيه عصمة الأنبياء، وحفظ الفضلاء، وكرامات الأولياء.
٢- وأناس الحائل بينهم وبين المعصية كالزجاج، فلا يستطيع صاحب المعصية اختراقه، ولا يسمع الأصوات من ورائه، ولا يشم الروائح لكن يرى الألوان والحركة، ومعناه أنه يسول له الشيطان الوقوع في الذنب، ويفكّر في المعصية وإن لم يأتها؛ لمجاهدة نفسه، وخوفه من ربه.
٣-وأناس الحائل بينهم وبين الذنوب كالماء، فيمكن للعاصي أن يخترقه لكن بصعوبة، وعادة الماء تنفذ منه الروائح، ويرى الألوان من خلاله، ويسمع

بعض أو كل الأصوات، وبالتالي فهو واقع في فتنة الذنب أكثر من الثاني وأشد.

٤-وأناس الحائل بينهم وبين المعاصي والذنوب كالهوى، وبالتالي فيسهل اختراقه، والقرب منه، والدخول إليه، بل هو والمعصية في لحاف واحد تضاجعه ويضاجعها، والعلاقة بينه وبينها علاقة جسد لجسد، فالناس في تفاوت منهم من يحال بينه وبين الكبائر، ومنهم من يحال بينه وبين الكبائر والصغائر، ومنهم من يحال بينه وبين والمكروهات، ومنهم من يحال بينه وبين والمشتبهات).

من رده عن الحرام صعوبة أسباب ووسائل الذنب

قد يشتاق الإنسان للحرام، ويحبه، ويود لو تلبّس به، ثم لا يكتفي بذلك بل يسعى إليه ببذل أسبابه كالبحث عنه، أو الذهاب إليه، لكن تعيقه عنه أمور خارجة عن إرادته، وأسباب ليست تحت سيطرته، مع نيته تلك، وسعيه وبذله، فهنا ما الحكم، وماذا يترتب عليه، وما هي أقوال العلماء في ذلك، أسئلة وأسئلة تتوارد يجيب عنها الإمام ابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين، ويفصلها أجمل تفصيل فقال: (العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه، هل تصح توبته، وهذا كالكاذب، والقاذف، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُب (قُطع ذكره)، والسارق إذا أُتي على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده، ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها، ففي هذا قولان للناس فقالت طائفة: لا تصح توبته؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك، فالتوبة من الممكن لا من المستحيل، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار والطيران إلى السماء ونحوه، قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا؛ إذ يعلم استحالة الفعل منها، قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك، المحمول عليه قهرًا، ومثل هذا لا تصح توبته، قالوا: ومن المستقر في فطر الناس وعقولهم أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح توبة غير معتبرة، ولا يحمدون عليها، وبل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة، قال الشاعر:

ورحت عن توبة سائلًا ... وجدتها توبة إفلاس

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع؛ لأنها توبة ضرورة لا اختيار، قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٧، ١٨]، والجهالة ههنا: جهالة العمل وإن كان عالمًا بالتحريم، قال قتادة: "أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصي الله به فهو جهالة عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصا الله تعالى فهو جاهل"، وأما التوبة من قريب فجمهور المفسرين على أنها التوبة قبل المعاينة، قال عكرمة: قبل الموت، وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت، وقال السدى والكلبي: أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وفي المسند وغيره عن ابن عمر-رضي الله عنهما- ما عن النبي ﷺ قال: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"(١)، وفى نسخة دراج أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: "إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب عز وجل: "وعزتي وجلالي، وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"، فهذا شأن التائب من قريب، وأما إذا وقع في السياق فقال: إني تبت الآن، لم تقبل توبته؛ وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله، قالوا: ولأن حقيقة

---

(١) - رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد: عَنْ ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ" وفي رواية: "مَنْ تَابَ إِلَى اللهِ قَبْلَ أَنْ يُغَرْغِرَ، قَبِلَ اللهُ مِنْهُ ".

التوبة هي كف النفس عن الفعل الذي هو متعلق النهي، والكف إنما يكون عن أمر مقدور، وأما المحال فلا يعقل كف النفس عنه، ولأن التوبة هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع، قالوا ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور، والتوبة منه عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال، والترك في حق هذا ضروري لا عزم غير مقدور، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال وغير ذلك.

والقول الثاني: وهو الصواب أن توبته صحيحة ممكنة، بل واقعة؛ فإن أركان التوبة مجتمعة فيه، والمقدور له منها الندم، وفي المسند مرفوعًا: "الندم توبة"[١]، فإذا تحقق ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه، فهذه توبة، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه، وحزنه، وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفعل مقدورًا له لما فعله، وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إذا صحت نيته كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: "إذا مرض العبد أو سافر كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا"، وفي الصحيح أيضا عنه ﷺ : "إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم

---

(١) – رواه ابن ماجه وأحمد: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "النَّدَمُ تَوْبَةٌ".

واديًا إلا كانوا معكم قالوا: وهم بالمدينة قال: وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر"[١]، وله نظائر في الحديث، فتنزيل العاجز عن المعصية التارك لها قهرًا، مع نيته تركها اختيارًا لو أمكنه منزلة التارك المختار أولى، يوضحه أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة، ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلًا وعزمًا، والعقوبة تابعة للمفسدة، وأيضًا فإن هذا تعذر منه الفعل ما تتعذر منه التمني والوداد، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته أنه لو كان سليمًا لباشره فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني والحزن على فوته؛ فإن الإصرار متصور في حقه قطعًا، فيتصور في حقه ضده وهو التوبة، بل هي أولى بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح، والفرق بين هذا وبين المعاين ومن ورد القيامة أن التكليف قد انقطع بالمعاينة، وورود القيامة، والتوبة إنما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصور منه عن التمني والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله، والله أعلم)[٢].

---

(١) - رواه البخاري ومسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: ("رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ الْمَدِينَةِ، قَالَ: لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، وفي رواية: (إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟، قَالَ: "وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: "حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ"، وفي رواية: "حَبَسَهُمْ الْمَرَضُ").

(٢) - مدارج السالكين (١/ ٢٨٣).

خطوات الشيطان

الشيطان لا يصطاد الناس من طريقٍ أعظم من طريق العين، ولا يأتيهم من باب أكثر من باب الشهوات، والأخطر أنه لا يهجم عليهم دفعة واحدة، ولا ينفرهم منه بأول مرة، ولا يحذرهم منه بأول وهلة، إنما يأتي للمسلم حسب هواه، ودينه، وتفكيره فمثلًا قد يقول: انظر فقط مجرد نظرة خاطفة، وبعد هذه تتكرر النظرة، ثم خطرة، ثم سلام، ثم كلام، ثم مواعيد، ثم لقاءات، ثم جرائم وزنا، ثم جهنم، فبدأت بالنظر، وانتهت بسقر: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ٢٧ - ٣٠].

فقدان حلاوة الإيمان

حياة لا طعم فيها، وبقاء لا خير فيها، وأيام تطوى ولا يعرف قيمتها، ولا جمال ما فيها، وقد يصلي ويصوم ويعمل العبادات والطاعات لكنه بعيد عنها، وهي بعيدة من الوصول لقلبه وبالتالي فلم ينتفع بها، ولم يجد متعتها في الدنيا التي تستمر في الآخرة كما قال ابن القيم -رحمه الله-: (لا نعيم له، ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها، قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه)[١].

(١) – مدارج السالكين (١/ ٤٥٤).

من نسي الله نسيه!

دائمًا الجزاء من جنس العمل، فمن نسي ربه عند معصيته، نسيه عند حاجاته، وضرورياته، وشؤون حياته، ونحن لا ريب أصحاب حوائج دائمة، وفي كل شيء من النفس حتى كل شيء: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه:١٢٤-١٢٦]، فكيف نسيت تلك الآيات البينات، والحجج الواضحات، والأدلة الدامغات، وكيف تعاميت عنها، وتناسيتها، وحاولت جاهدًا تجاهلها؛ فالجزاء من جنس العمل، فكذلك يوم القيامة، وهو أعظم الأيام خطرًا، وأعظمها شدة، وأكبرها حاجة وملحة لرب العزة، ومع هذا تُنسى وتعمى وتُؤمر بالسير على الصراط: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} [الإسراء:٩٧].

كذبة: القلب طيب ونظيف

كم أولئك الذين ينظرون، ويدققون، ويستفصلون، ثم يتفوهون ويقولون كذبًا وزورًا بل وتكذيبًا لله ولرسوله ﷺ: القلب نظيف وطيب، ولو طاب باطنه لطاب ظاهره؛ فالطيب لا يسقط إلا على الطيب، والخبيث لا يقع إلا على الخبيث وفي الصحيح عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ".

أول فتنة في الأرض

فتنة عظيمة هي تلك فتنة النساء، ومحنة كبيرة تلك هي محنة بنات حواء، كم افتتن بهن الرجال، وكم وقع في أسرهن الأبطال، بل قد يكون غائبًا عن ذهنك أن أول فتنة على ظهر الأرض هي قتل قابيل لهابيل بسبب امرأة: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة: ٢٧ - ٣١]، وفي البخاري ومسلم: عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ"، وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»!.

ولقد قال ذلك الصليبي مقالته الصادقة: كأس وغانية يفعلان بالمسلمين ما لا تفعله الجيوش، أو ألف مدفع، فهن والله الفتنة العمياء الصماء البكماء الظلماء، تلك الفتنة التي حذر منها سيد الخلق ﷺ، ومن لا ينطق عن الهوى: "مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ"، ولهذا تجد العباد الزهاد، والأئمة الأمجاد لا يخافون

فتنة أعظم من فتنة النساء مع ما آتاهم الله من إيمان وزهد وخشية لله عظمى تمنعه عن الحرام واقترافه، والاقتراب منه، بل والتفكير فيه، ومع هذا يخافون منه أشد خوف، ويحذرون منه أبلغ تحذير، بينما سفهاء اليوم يتعرضون لهذه الفتنة العظمى ثم يقولون قلوبهم نظيفة، وما ذاك إلا من إيحاء الشيطان: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "إنه لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء، وهو كفر من بقي أيضًا"، وقال ابن المسيب: "ما يئس الشيطان من ابن آدم إلا أتاه من قبل النساء".

وأخيرًا: إذا كان الله قد أمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، وأن يكلمهن الصحابة من ورائه: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣]، ثم علل ذلك بقوله: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٣]، وهن نساء رسول الله ﷺ الذي قال عنهن: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} [الأحزاب: ٣٢]، وهم الصحابة الذين قال عنهم: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]، فكيف بشباب زماننا، وفساد نسائنا، ومع ذلك يقولون: القلوب نظيفة، وطيبة، فقل لي بربك هل بعد هذه من كذبة!.

وإذا كان إمام عالم، وتقي فاهم، بل من خيار الصحابة وأعظمهم-ابن عمر رضي الله عنهما- لم يتمالك نفسه أمام شهوة نفسه في جاريته المملوكة له أن قبلها أمام الناس فكيف بغيره إذ قال: "وقع في سهمي جارية يوم جلولاء كأن عنقها إبريق فضة، فما صبرت أن قمت فقبلتها والناس ينظرون"، بل قال سعيد بن المسيب إمام عصره، وفريد دهر: "ما يئس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قبل النساء، ثم قال وهو (أي نفسه) ابن تسع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشو بالأخرى، وما شيء عندي أخوف من النساء"، وقال سفيان الثوري: "ائتمني على بيت مملوء مالًا، ولا تأتمني على جارية سوداء لا تحل لي"، وعن سفيان بن عيينة قال: "يقال إن إبليس قال: سهمي الذي إذا رميت به لم أخطِ النساء"، بل روى ابن طاووس عن أبيه في قوله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: ٢٨]، قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر)[١]، هذا هم فكيف بنا نحن!.

(١) – ذم الهوى (ص: ١٦٤).

رجعت للوراء سنوات

أما علم ذلك العاصي أن معصية واحدة من معاصيه قد تعيده للوراء سنوات، وتؤخره عن الوصول لما يريد في مستقبله، وتوفيقه، وصلاحه، وأعماله، وفي كل شؤون حياته، فماذا استفاد من متعة لحظات، ولذة نسيها بعد دقائق معدودات، أمام ما خسر في هذه الدنيا وفي الآخرة أعظم خسارة: {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} [هود: ٢١، ٢٢]، {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} [الزمر: ١٥، ١٦]! وكان بعض الحكماء يقول: "هب أن المسيء قد غُفر له أليس قد فاته ثواب المحسنين"!.

لست لهذا

كيف تلطخ نفسك بالحرام، وتقع في وحل الآثام وربك يهيئك لمرتبة عظيمة، وغاية نبيلة، ومنزلة رفيعة، ولقد قيل ليوسف عليه السلام: "يا يوسف لا تعمل عمل السفهاء؛ فأنت مكتوب في ديوان الأنبياء"، فكيف يليق بمن يعده الله لمقام أعظم، ومنزلة أجل أن يطلخ نفسه بالقاذورات، وينجس باطنه بالمحرمات، وبالتالي يسقط من عين رب البريات، ويطرد من تلك المقامات، وحتمًا إذا كنت كما يريد، فسيهديك لما يريد، ويصرف عك ما لا يريد حتى لو كنت تريد مادام تنزلك عن الدرجة التي يريد!.

{فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}

نعم صَمَم وأي صمم، وعمى وأي عمى في إنسان يجد اللذة في الحرام وإن كان دنيئًا وضيعًا، ومتعبًا مذلًا وخوفًا، ولا يجدها في الحلال وإن كان طيبًا وضيئًا، بل قد تمر من عنده زوجته في حجابها فيسترق النظر إليها بلذة وشهوة، فما إن يعرفها حتى يكرهها، وهكذا يراسل مخطوبته ويشتهيها، ويكون الحب والغزل، والفرح والمرح، والدعابة والمزاح، والكلمات المحرمة بينه وبينها فما إن يتزوجها حتى يعاديها، وصدق الله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد:٢٣].

الفراغ مفسدة

جندي من جنود إبليس، وشيطان من الشياطين، ذلك القاتل الصامت، والمدمر المهلك، والطامع فيك غير اليائس منك خاصة في زمن شبابك، وكمال قوتك، وتمتعك بصحتك، فإما أن تشغل نفسك بالطاعة أو يوصلك للمعصية، وقديمًا قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة ... مفسدة للمرء أيما مفسدة

ذلك هو الفراغ؛ فالفراغ مهلكة، بل فتنة من الفتن، وراية من رايات الشيطان، ولقد قيل: "كلما ظللت فارغًا، ظل الشيطان بك طعامًا"، فإياك والفراغ، وانشغل بطاعة الرحمن، أو بأي عمل نافع من الأعمال، والأهم تجتنب الفراغ كل الاجتناب، وقدر الإمكان، وعادة إذا اجتمع الفراغ مع ضعف الإيمان كان الهلاك والخسران، ولقد ذكر ابن حزم -رحمه الله- في طوق الحمامة أن ملوك السودان كان الواحد منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يُشغلن بها أبد الدهر؛ لأنهم يقولون: "إن المرأة إذا ظلت بغير شغل إنما تتشوف إلى الرجال، وتحن إلى النكاح[١]، وما أحوج نساء عصرنا لهذه الخطة المحكمة في عصر أصبح كله للهاتف، والمراسلات، والتواصل، ثم يسول لها الشيطان الحرام ولابد.

(١) – طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ١٦٦).

جوارحك عليك لا لك

وإذا غفل العبد، أو نسي أو تناسى الملائكة الكاتبين، والحضور الشاهدين، وقبل ذلك رب العالمين، فليتذكر شهادة جوارحه عليه يوم القيامة كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: ١٩، ٢٢]، وفي سورة يس قال متوعدًا: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥]، وفي سورة النور بين بلفظ الإشهاد مرة أخرى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤]، بل فوق ذلك كله الأرض وما فيها ستشهد عليه، ويعرض كل شيء كما يعرض الفيديو عليه وبأدق تصوير، ومن الجهات الست: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ١ - ٨]، وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس ﵁ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ

الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ، وَبَيْنَ الْكَلامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»، وفوق كله فأين الملائكة الحافظون، الأبرار الكاتبون الذين لا يفارقون: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢]، {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام: ٦١]، وأخيرًا: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧].

والجوارح تزني!

نعم إن جوارحك ولعلك لا تعي ذلك، ولم يخطر على بالك، بالرغم أنه خبر الصادق المصدوق ﷺ وللأسف غفل عنه كثير من الناس فحسبوا أن الزنا إنما هو زنا الفروج، وما علموا أن لذلك مقدمات لا بد منها للوصول للملمات فالمحرمات، فلقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ».

أيسرك أن يراك أهلك!

لا ريب أن العصاة لا يحبون أن يظهر عليهم الناس وهم في معاصيهم، -وأتحدث عن النظر- ولهذا يحرصون على الخلوة التامة، وإحكام كل شيء، وتفقد كل شيء حوله، وبالتالي فحياؤه وخوفه منهم أكثر من خوفه وحيائه من الله الأجل الأكبر، وهذا في حد ذاته معصية خطيرة؛ إذ جعل ربه أهون الناظرين إليه، فاستفرد به ثم بارزه بالمعصية، ثم لماذا يستتر عن الخلق ويبارز الملك الحق ﷻ؛ لأنه يعلم في قرارة نفسه أنهم لو رأوه لكرهوه، وغضبوا عليه، وزعلوا منه، وتغيّروا عليه، وسقط سقوطًا مدويًا من أعينهم للأبد، لكن ماذا عن الله تعالى، ماذا لو غضب جل وعلا وهو الذي يملك كل شيء، وبيده كل شيء، والقادر على كل شيء ﷻ، ما الذي سيحل على العبد المغضوب عليه فيصبح كاليهود، وماذا سيرتفع عنه من نِعم كانت له، وفي الحديث الصحيح: «أُوصِيكَ أَن تَسْتَحِيَ اللهَ عز وجل، كَمَا تَستَحْيِي رَجُلاً صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ».

وهنا نداء: يا من تسترق ببصرك النظرات، وتختلس خفوة من الناس النظرات تلو النظرات، يكفي من عقوبات الله عليك أنه جعلك خائنًا، ولعهده غادرًا، وبربه متهاونًا: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩].

سحائب البلاء

من الطبيعي أن يجد من أظلم قلبه بالنظرات، والمعاصي الموبقات ظلمة في قلبه لا يرى معها إلا كل شر، ولا يوفق إلا لكل مصيبة وضرر، ولا يهتدي معها إلا لكل خطر، وصدق الله: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ١٠]، أما من أشرق قلبه بالطاعات، وتواردت عليه الحسنات، وأقبلت عليه الخيرات وُفّق لكل خير، واجتنب كل شر وضير، واهتدى لما فيه التقى والبر والخير: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: ٥ - ٧].

القدوة

من فضل الله على الناس، ورحمته بهم، ومنته عليهم أن جعل لهم قدوات من الأنبياء في كل جانب من جوانب حياتهم، ومن ذلك في جانب النساء، والصبر على فتنتهن الكبرى، التي لم يترك حبيبنا ﷺ فتنة أعظم ولا أشد ولا أشر على أمته منها كما سبق في البخاري ومسلم: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»، وقدوتهم هنا، وقدوة كل صابر على فتنة النساء، خاصة في عصر الانفتاح، بل والبلاء كل البلاء: نبي اللَّه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السَّلام: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٣، ٣٤].

ماذا لو أن يوسف وقع!

هي لحظات فقط، وثوان فحسب، ثم طُوي تاريخه، وانتهى خبره ونبوته، وأصبح كبلعام بن باعوراء، ولم يكن نبيًا أبدًا، ولم يخلد الله قصته، ولم يذكره القرآن البتة، أو يذكره بفعلته وسقطته لكن تحذيرًا لا تبشيرًا، وتنفيرًا لا تحبيبًا، لكنه عليه السلام مع كل الإمكانات المتاحة له، والوسائل المغرية التي هيئت له إلا إنه استطاع وبكل صلابة، وقوة إيمان منقطع النظير أن يرد عنه شر امرأة العزيز، وصاحباتها اللاتي شاركنها في الحب والتدبير: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٣، ٢٤]، هذا عنها وعنه عليه السلام، أما عن بقية صاحباتها فقال: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [يوسف: ٣١ - ٣٤].

قال ابن القيم -رحمه الله-: (وقد ذكر اللَّه -سبحانه وتعالى- عن يوسف الصِّدِّيق عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق

غيره، فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شابًّا والشباب مركب الشهوة، وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة، والمراودة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله عفَّ لله ولم يطعها، وقدَّم حق اللَّه وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتُلي به سواه لم يعلم كيف تكون حاله)(١).

لكن على عكس ذلك انظر لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف وقع في مخالفة الرب جل وعلا فكان ما كان عليه وعلينا من هبوط من جنة الله إلى الدنيا وما تلاه: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

(١) – روضة المحبين (ص: ٣١٨)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [طه: ١١٧ - ١٢٣].

وهنا لفتة مهمة: إذا كان الله عز وجل لم يداهن أو لم يجامل – وحاشاه جل وعلا– آدم عليه السلام وهو نبيه، ومن نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ومنحه ما لم يمنح غيره، فكيف بي وبك، وما هي قرباتي وقرباتك، وفضائلي وفضائلك، وكم هي ذنوبنا جميعًا أمام معصية واحدة لآدم عليه السلام!.

الجنة لك إن حفظت فرجك

ويكفي ذلك الصابر على الحرام نظرًا، وقولًا، وفعلًا، والذي غض بصره ابتغاء وجه ربه، وفضّل الجنة على النار، ومنازل الأخيار على منازل الفجار، أن النبي ﷺ جعل الجنة ثوابًا لمن حفظ فرجه، وحصّن نفسه مما يغضب ربه؛ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»!.

قوم جاهدوا فنالوا

أيها العاصي: لا تظن أن من غض بصره، وحفظ فرجه، وفضّل مراد ربه على مراد نفسه، وجاهد هواه لينال رضاه تعالى أن لا شهوة له، ولا رغبة عنده، لا أبدًا إنما صبر فظفر، وكف فانزجر، وأرادته نفسه فطاوعها وغلبها، وسوّل له شيطانه فرفضه، ودعاه داعي الهوى فحاربه، وما ذاك إلا لأنهم علموا ما عند الله لهم إن حفظوا فروجهم، وغضّوا أبصارهم، وعلموا عقوبة من فرّط فنظر، وحفظ فضيّع: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠، ٤١]، {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، وتركوا ملذاتهم الزائلة للآخرة الباقية: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: ٣٧، ٣٨]، وفي المقام قصة عن الأصمعي قال: "مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ فقال: زجرني الطبيب، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أُمر لا يأتمر، فقلت: أما تشتهي شيئًا؟ فقال: أشتهي ولكن أحتمي؛ لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا".

من عقوبة الزنا وإخوانه

ما ظهر من عقوبات الزاني في الدنيا أمر فظيع، وشر خطير، فكيف بما استتر، وما خفي ولم يظهر، وقد ذكر الهيتمي أنه مكتوب في الزبور: (إن الزناة يعلقون بفروجهم في النار، ويضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث أحدهم من الضرب نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك، وتفرح، وتمرح، ولا تراقب الله، ولا تستحي منه).

وهي والله حقيقة واقعة، وكارثة مسلّمة، ومصيبة وبلية أيما بلية، وفي البخاري ومسلم في قصة رؤياه ﷺ المنامية الطويلة و"رؤيا الأنبياء في المنام وحي" كما في الحديث الصحيح، ومنها: "فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهَبُ ضَوْضَئوا وَارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَ رَجَعُوا، فَقُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤلَاء؟"، ثم في آخره أخبره الملكان بما رأى فقال: "وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي"، وهذا عذابهم في القبر فكيف بعذابهم بعد الحساب والعقاب، والمصير للنار، وتأمّل كيف كان عذابهم من جنس فعلهم، أعني من جهة فروجهم!.

خزي الدنيا وعذاب الآخرة

أرءيت لتلك اللحظات التي يقضيها العاصي في الحرام كيف تعود عليه بخسارة في الدارين، وعذاب ونكال وخزي وإهانة وذلة وحسرة لأبد الآبدين: {سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف: ١٥٢]، ألا ترى كيف أمر الله بجلد البكر مائة على مرأى ومسمع من الناس، ورجم المحصن حتى الموت أمام الناس أيضًا، وكأشد عقوبة في الإسلام وأشقاها وأذلها، وفوق هذا فقد أمر جل وعلا أن لا يأخذ الناس بالزناة رأفة (رحمة): {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢]، وأعظم من هذا فقد نهى ﷻ المؤمنين من الزواج بالزانيات، والمؤمنات من الزواج بالزناة، وإعلان مقاطعة اجتماعية لهم، وعزلة مجتمعية للمذنبين جميعهم: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٣]، إنها لحظات في الحرام ثم بعدها ما بعدها من عذاب وآلام وخزي وعار ونار...!.

الثيّب عذابه أشد

إذا كان البكر يعذّب أمام الناس بالجلد مائة، ثم الطرد من بلده لعام بكله، ومع هذا كله فإن الثيب وعذابه أشد وأشق، وأغلظ وأعظم؛ لأن الله جل وعلا قد منّ عليه بنعمة الزواج فكفرها، وبزوجته التي حُرم منها العازب فتركها، وذهب يقضي شهوته في غيرها، وبالتالي فعذابه الدنيوي والأخروي أشد، وإثمه أعظم وأغلظ وأشق؛ قياسًا على تغليظ عقوبة الحد عليه في الدنيا: {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

ولهذا كان الإثم دائمًا على من خصه الله بنعمة أعظم ممن لم يخصه بها وهذا النبي ﷺ قال الله له مهددًا ومتوعدًا: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، وقال عن نسائه: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [الأحزاب: ٣٢]، وقال للعلماء: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: ١٥٩]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } [البقرة: ١٧٤، ١٧٥]، {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الجمعة: ٥]، بل

مسخ عالمًا لكلب: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧]، وقال عن قوم عيسى عليه السلام كشرط لنزول نعمة المائدة: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ١١٤، ١١٥].

الزنا والشرك

قرينان أصبحا، وشريكان في الإجرام والبعد عن الرحمن أعني الشرك والزنا، كما قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: (ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا)، وقد أكد سبحانه حرمتها في آية واحدة، وجمع بينهما فيها بقوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

التهديد لا يمنع

ندائي لتلك الحرة المصونة، والأخت الطيبة التي سقطت في لحظة ضعف وغفلة، واستدراج شيطاني اشترك فيه شياطين الإنس والجن أقول لها: إن وقعت في شيء من هذه القاذورات، ولطخت نفسك بشيء من التفاهات، ووقعت أسيرة لسفيه بصورتك أو بشيء من ذلك فلا تستسلمي، وسيجعل الله لك فرجًا ومخرجًا، وعلى أسوأ حال وافتراض أن يفضحك بين الناس لكن تذكري أن الفضيحة الكبرى، والمصيبة العظمى، والجريمة الشنعاء هي استمرارك معهم أو معه، وبقاؤك أسيرة لديه، ومرتمية في أحضانه، وكوني على يقين أنه في يوم من الأيام سيفضحك، ويجرجرك لكل شر، وحيث يريد، فاقطعي عنه الحبال من الآن، وغلطك محمول في البداية خير من جريمته وإياك حتى النهاية، واستمرارك معه يعطي الناس انطباعًا سيئًا وظنًا غير محمود، فضلًا عن يوم القيامة وذلك العذاب الأليم، والعقاب الشديد، والفضيحة الكبرى على رؤوس الأشهاد، وبالتالي خزي الدنيا أهون من خزي الآخرة!.

الناظر للحرام يستنزل العذاب

والحقيقة التي يجب أن تقال، والأمر الذي يجب أن يعلن ويذاع، أن الناظر للحرام بنظره إنما يتعجل عذاب ربه، ونقمة خالقه ومليكه، ويطلب رفع نعمه عليه، وحلول سخطه ونقمته به: {إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، بل قال: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: ١٤٧]، والأخطر أن العذاب عليه قد يعم مجتمعه بأكمله: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥]!.

يغض بصره في نومه

قد لا تتصور أنه بلغ بأقوام أن إذا اعترضتهم امرأة في نومهم غضوا طرفهم عنها، وصرفوا بصرهم عن مفاتنها، واجتنبوا النظر إليها، فهذا أحمد بن حنبل -رحمه الله قال: "إني لأرى المرأة في المنام لا تحل لي فأغض طرفي عنها"، هذا وهو مرفوع عنه القلم حال نومه، فيا لله ماذا تقول لمن يتقصد النظر في غير المنام ويبحث عنه بانتظام، وفي خلاء التام برب العزة والجلال!.

كيف سموا!

كثير هم القوم الذين رفع الله مقامهم، وأعلا شأنهم، وأشهرهم بين الملايين، وأبلغ علمهم العالمين، أو تحسب أن القوم سادوا، وارتفع شأنهم، وأعلى الله مقامهم، وخلّد علمهم، ووهبهم العلوم التي وهبهم بلا مقابل، وبدون ثمن بينهم وبين ربهمﷻ!، كلا والله إنه لم يرفعهم تبارك وتعالى إلا بسرائر بينهم وبينه، وحسن علاقة معه، ولم يلقِ لهم القبول إلا لبواطن ستروها، ولأعمال أسروا بها، ولقربات خلت، وحسنات سبقت، وأسرار كانت، وانظر كيف قيل عن الصديق ﵁: "ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه"، وقال ابن المبارك عن الإمام مالك -رحمها الله-: "ما رأيته ارتفع بكثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له خبيئة"، وانظر لأحمد -رحمه الله- الذي أفشا سرًا لعله لضرورة رآها: "إنها لتمر بي المرأة في نومي فأغض بصري عنها" أو كما قالوا رحمهم الله جميعًا!، فقل لي بربك ما هي سرائرك، وكيف بواطنك، وماذا سترت بينك وبين ربك؛ لتستحق أن يعلي مقامك، ويرفع شأنك، ويوهبك علمًا لك، ويخلده لغيرك!.

أنت تشجع الباطل

أما علم الناظر للحرام أنه يشجع أهل الباطل والعصيان، ويكسبهم قوة وشهرة وشعبية عند الخواص والعوام، بل وتدر مشاهدته لهم الأموال، وذلك يعني يجعلهم يستمرون في أعمالهم، ويزيدون في جرائمهم، وينشرون فسقهم: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور: ١٩]!، وحتمًا أنه يدخل في وعيد الآية معهم، وشاركهم في جرائمهم، ويكسب مثل آثامهم!.

أنت مع من أحببت

أيها العاصي اللاهث وراء الحرام والمعاصي، المستمر في المآسي، إن الخوف الأكبر، والحديث الأعظم، والفاصل الأهم قوله عليه الصلاة والسلام: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"(١)، كما في البخاري ومسلم، وقوله ﷺ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (رَأَيْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرِحُوا بِشَيْءٍ، - وفي رواية: لَمْ أَرَهُمْ فَرِحُوا بِشَيْءٍ- أَشَدَّ مِنْهُ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُحِبُّ الرَّجُلَ عَلَى الْعَمَلِ مِنَ الْخَيْرِ يَعْمَلُ بِهِ، وَلَا يَعْمَلُ بِمِثْلِهِ، (وفي رواية): وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ كَعَمَلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ")، وهذا ربك يقول: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف: ٦٧]!.

---

(١) – رواه البخاري ومسلم وأحمد: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟، قَالَ: "وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ فَإِنَّهَا قَائِمَةٌ؟ " فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ ثُمَّ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ عَمَلٍ مِنْ صَلَاةٍ، وَلَا صَوْمٍ، وَلَا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكَ مَا احْتَسَبْتَ قَالَ أَنَسٌ: فَقُلْنَا: وَنَحْنُ كَذَلِكَ؟، قَالَ: "نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ"، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"، قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ").

هم أخلاؤك

ألا تعلم أن من تنضم إلى مجموعاتهم، وتعجب بصفحاتهم وحساباتهم، وتشاهد منشوراتهم، وتطالع ما يصدر عنهم، وما يأتي منهم هم أخلاؤك الذين تصدق عليهم الآية الكريمة: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧]، والحديث الصحيح: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِيرِ: إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ، أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ"، وفي رواية: "إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"، فاحذر منهم، وحذر أيضًا {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ٢٥٤]، وقبل أن تعض أصابع الندم على تلك المتابعة: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا قَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

متابعاتك تحدد إيمانك وشخصيتك

لم يعد معرفة قدر إيمانك وتقواك وخوفك من مولاك بالأمر الصعب، بل بمجرد خلوتك بمن تتابع، وإعجابك بمن تشاهد، ورغبتك في النظر لذلك، بل وصداقاتك، ومرسلاتك واهتماماتك ومتابعاتك تحدد كل ذلك، فقل لي من تتابع وتشاهد أقول لك من أنت؛ فذاك كله يحدد شخصيتك، ومستوى دينك، وضعف أو قوة إيمانك، وبعدك أو انقطاعك عن ربك فاتخذ من الآن حذرك قبل أن تقول: {رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ثم بعده: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر: ٣٧]!.

انتظارك الآثم

أما علم ذلك المتابع للمحرمات، أو المنضم إلى أي شيء فيها من مجموعات أن انتظاره للصورة الأخرى، أو الفيديو الآخر كلها مكتوبة عليه وكأنه يشاهد أو يعمل الحرام، ويرتكب الآثام؛ إذ انتظار الحرام كفعله، فلو وجده لفعله، بل اشتياقه له أعظم من حصوله عليه، وفي الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَلَاةَ") رواه البخاري، وعند الإمام أحمد في مسنده عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَلَاةَ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ"، ويقاس عليه انتظار الحرام فهو فيه مادام ينتظره!.

الشر عادة!

والمشكلة العظيمة التي قد لا يدركها كثير من الناس، ولا يراعيها أغلب العصاة بالرغم معايشتهم ومشاهدتهم لها، والإحساس بخطورتها: أن الشر يأتي بالتعود، ثم عدم إمكانية الانفكاك عنه، والبعد منه، بل لا يجد نفسه إلا ملقاة فيه، عائدة إليه، راغبة فيه، غير قادرة على تركه والابتعاد عنه كلية، فيصبح كالعبد المأمور، والرجل المأسور!.

الحرام لا لذة فيه

ثم ليعلم يقينًا صاحب الحرام أن اعتياده عليه يفقده لذته، والتضجر منه، والملل منه، ومع هذا فلا يستطيع تركه، والابتعاد عنه، وإنما يداوي نفسه به دون لذة عائدة عليه، وفي ذلك قيل:

وكأسًا شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

ولقد قرأت قصة لأحد كبار السن المدمنين للنظر للحرام وفعله أنه في آخر عمره كان يستأجرهم للمجيء لبيته؛ لفعل الفاحشة، ويتمتع هو بالنظر فقط، ومن شب على شيء شاب عليه، ولكل امرئ من دهره ما تعودا!.

وفي هذا يقول ابن الجوزي -رحمه الله-: (وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عُشر التذاذ من لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقى نفسه في المهالك؛ لنيل ما يقتضيه تعوّده، ولو زال رين الهوى عن بصر بصيرته لرأى أنه قد شقي من حيث قدّر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وألم من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ، لا هو نال ما خُدع به، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه)[1].

---

(١) – ذم الهوى (ص: ١٣).

الحرام يفقدك لذة الحلال

ومن باب العقوبة الإلهية، والرسائل الربانية أن يجعل المتمتع بالحرام غير متمتع بالحلال فيسلبه حب الحلال واللذة فيه، ولهذا في الجنة لو دخلها -بعد توبة- لن يدخل من جنة المخلدين، وباب المقربين، ولن يستمتع بما يتمتع به عباد الله الصالحين: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠]، وأما أهل النار فهم أبعد من ذلك: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سبأ: ٥٤].

{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ}

ومن باب الشيء بالشيء يُذكر: فكثير أولئك الذين يتعجّلون مالهم عند الله في جنة باقية لدنيا فانية، ويتركون وراء ظهورهم جنة عرضها السماوات والأرض، ويقدمون أمامهم ما لا فائدة منه، ولا خير فيه، ولا منفعة تعود منه له: {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} [الإنسان: ٢٧]، {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: ١٦، ١٧]، وإذا كان شارب الخمر في الدنيا إن دخل الجنة بعد توبة وصدق مع ربه لا يشربها فيها؛ لأنه تعجلها في الدنيا، واستمتع بها قبل أن يؤذَن له، فكذلك يقاس عليه غيره ممن استمتع بالحرام في الدنيا ثم دخل الجنة فإنه يحرم تلك المتعة في الآخرة؛ كونه تعجلها، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ("مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ")، وفي رواية: "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَتُبْ، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنْ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ") رواه البخاري ومسلم، ومصداق ذلك في كتاب الله: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠]، ورحم الله الفاروق رضي الله عنه لما قُدّم له الطعام الهني اللذيذ في الشام ولم يعهده في المدينة تلا الآية السابقة وقال: "أخشى أن تكون قد عُجّلت لنا طيباتنا في الحياة الدنيا، واستمتعنا بها".

المنكر يغطي على المعروف...!

نعم أيها المكثر من العصيان، البعيد من الرحمن، والقريب من الشيطان كن على يقين تام أن المنكر يحجب عليك نور القلب، ولن ترى بعده الحق، ويستوي أمامك ظلمات الحرام وأنوار الحلال، وأضرب لك مثالًا بقصة حقيقية ذكرها لنا أحد مشايخنا في بداية الطلب مختصرها: أن أحد الدعاة سافر من اليمن إلى بلد أوروبي بغرض الدعوة، ومن الطبيعي في المطار اليمني أن يرى أجنبيات عائدات لبلدانهن، فكان يغض طرفه من كاشفات الوجوه، ثم نزل لمطار البلد الأوروبي فكان لا يبالي بكشف الوجه، وإنما يغض عن ما دونه، وهكذا أيام وأيام حتى انتهى كل غض، وأصبح منظر الحرام مألوفًا لا يبالي به، وكأنه لا حرام يُفعل، ولا شر يُرى، وما ذاك إلا لاسوداد القلب، وإلف الحرام، وعدم استطاعة القلب التفريق بين النور والظلمة، والحق والباطل، ولقد قيل: "كثرة النظر للباطل تذهب نور الحق من القلب"، والمتأمل لسورة النور يجد ذل صريحًا فيها؛ إذ أمر ﷻ بغض البصر في سورة أسماها سورة النور، ثم عقّب ذلك بقوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٣٥]، بل ليس نور الحق وفقط بل ونور الإيمان، فيرى الجريمة أمام ناظريه وكأنها عادية، ويرى الكبيرة من كبائر الذنوب حسنة، والمنكرات معروفات لديه، فانتكس، وارتكس، وضل وأظلم، وخلا قلبه من ربه، واستولى عليه

شيطانه، وصدق الله: ﴿وَمَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّض لَهُ شَيطانًا فَهُوَ لَهُ قَرينٌ وَإِنَّهُم لَيَصُدّونَهُم عَنِ السَّبيلِ وَيَحسَبونَ أَنَّهُم مُهتَدونَ حَتّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيتَ بَيني وَبَينَكَ بُعدَ المَشرِقَينِ فَبِئسَ القَرينُ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَومَ إِذ ظَلَمتُم أَنَّكُم فِي العَذابِ مُشتَرِكونَ﴾[الزخرف: ٣٦-٣٩].

لا تعبد سواه!

احذر أن تعبد ربًا غير ربك، وتخضع لإله غير إلهك، وتسجد ذليلًا مهانًا تحت قهر إله هواك ونفسك بالرغم علمك بحرمة فعالك، وشناعة ارتكابك، وجريمة صنيعك وبالتالي فاخش قول الله جل في علاه: ﴿أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَن يَهديهِ مِن بَعدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾[الجاثية: ٢٣]، إنه إله حقيقي، خفي، بثوب عصري: ﴿أَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ أَفَأَنتَ تَكونُ عَلَيهِ وَكيلًا أَم تَحسَبُ أَنَّ أَكثَرَهُم يَسمَعونَ أَو يَعقِلونَ إِن هُم إِلّا كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبيلًا﴾[الفرقان: ٤٣-٤٤]، وانظر كيف شبّه من عبده، وارتهن له بالأنعام وأضل، وكفى به زجرًا، ثم ليكن في غيرك عبرة لك، وفي سواك عظة قبل أن تكون أنت عظة لغيرك، والسعيد من وُعظ بغيره، والشقي من انتظر حتى يكون عظة لغيره: ﴿وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ الَّذي آتَيناهُ آياتِنا فَانسَلَخَ مِنها فَأَتبَعَهُ الشَّيطانُ فَكانَ مِنَ الغاوينَ وَلَو شِئنا لَرَفَعناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخلَدَ إِلَى الأَرضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث ذلِكَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا فَاقصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرونَ ساءَ مَثَلًا القَومُ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا وَأَنفُسَهُم كانوا يَظلِمونَ﴾[الأعراف: ١٧٥-١٧٧]!.

الشرط والمشروط

هب أنك في جامعة، أو مؤسسة وظيفية ما، ألا ترى أن من حقها أن تشرط عليك ما شاءت، فإن خالفت فُصلت وأُبعدت، ولن تستمر مشاريعك معهم، ولن تواصل في سلكهم، ولن يأتيك راتبك منهم، فكذلك ما يمكن أن نسميها مؤسسة هذا الدين العظيم فعلى قدر تمسك به يكون انتماؤك إليه، وعلى قدر تفلتك منه يكون بعدك عنه، وبعده عنك!.

يزرع حبًا ويريده عنبًا

مثال أقوله لذلك الذي علا في تفكيره، وسما في أهدافه وطموحاته، وأراد أن يصل لمبتغاه، وأن يقطع شوط الحياة الطويل بأمله بربه العظيم لكنه يصبح منتكسًا في المعصية، ويمسي مرتكسًا فيها، كيف يريد أن يكون الله معه في حاجياته، وقضاء مطالبه وهو يبعده عنه بمعاصيه، ويصرفه عنه بذنوبه، أليس الله طيبًا لا يقبل إلا طيبًا، وأن الجنة طيبة لا يدخلها إلا من كان طيبًا فكيف تدخل نفسك في الخبائث وتريد الطيبات، وكيف تزعم أنك تحب الله وأنت تعصيه، وكيف تريد الجنة وطريقها وأنت تسلك سبيل النار وجحيمها، أرءيت لو أن رجلًا زرع في مزرعته حبًا ثم انتظر تحوله إلى عنب لعده الناس مجنونًا فماذا عن من يطلب الجنة، ورضا الرحمن، والمستقبل الزاهر، والوصول للطموحات والغايات بينما هو يبتعد عن كل ذلك بالآثام، وسلوكه طريق الشيطان!.

البداية منك

لا تنتظر أن يأتيك ملك من السماء ليصب عليك هداية، ويغسل قلبك كما غسل قلب محمد ﷺ، بل المطلوب منك الجهاد والاجتهاد، والبعد والابتعاد، ومحاربة كل سبب يوصل للذنوب والآثام، وبصدق نية، وعزيمة قلبية، وإرادة كبرى داخلية فهناك الضمان أن الله يخرجك مما أنت فيه، ويبعدك عما تحول الابتعاد عنه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[الرعد: ١١]، وفي قصة الأعرابي عظة وعبرة كما روى الحديث النسائي وصححه الألباني: عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَعْرَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قَسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالَ: "قَسَمْتُهُ لَكَ"، فَقَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى بِسَهْمٍ هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ"، فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَهُوَ هُوَ؟"، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ"، ثُمَّ كَفَّنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جُبَّتِهِ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ")، وفي كتاب الله ما يصدّق ذلك ويؤكده: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا

بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣]، {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: ٧٦]، فالبداية منك ولابد، ثم يأتي ما عند الله بعد ذلك إن رأى فيك الصدق والعزم: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، فلا بد أن تستعفف ليعفك الله، وأن تتجنب ليجنبك الله، وأن تبتعد ليبعدك الله، وأن تحاول الهداية وسيهديك الله: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ" رواه البخاري ومسلم.

ذل المعصية

لقد أذلتنا المعاصي، وأسرتنا الذنوب، وأوهن قوانا البعد عن المعبودﷻ، فخارت لنا كل قوة، ووهنت لنا كل عزيمة، وأصبحنا أهون الخلق، وفي مؤخرة القافلة، وأبعد الأمم عن ذوق لذة الحياة الدنيا، وقطْف ثمرتها العاجلة مصيرًا للجنة الآجلة: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٢]، لكن جهِلنا ذلك فارتكسنا، وأعمتنا ذنوبنا فانتكسنا، ونعوذ بالله أن ينزل بنا ما نزل بمن سبقنا: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠]، {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف: ٢٦، ٢٧].

نظر الله إليك أسبق

من استشعر أن نظر الله إليه أسبق، وبالتالي فعقابه أشد وأشق، ونقمته أقرب وأحق لعله يقصر عينه عن النظر، ويمنعها من التطلع لما حرم الشرع، وفي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ قال: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ: ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ"، بل قال جل وعلا محذرًا ومتوعدًا: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، وقال: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]، وأحاط بكل شيء علمًا: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]، {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦]، فإلى أين المفر!.

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

تريد ترتفع وأنت تتضع!

عجيب ذلك العبد الذي يريد من الله أن يكرمه، ويرفعه في الدنيا وينفعه، وله آمال وطموحات يريد من الله أن يحققها له، وله أهداف يسعى لها من زمن طويل، وله أمل بعيد، ويريد من الله أن يوفقه لذلك كله فضلًا عن نيل جنته، ورضاه عنه، ثم هو ينتكس في بحر الحرام، ولا يخرج من ظلمات الآثام، ويرتمي في أحضان القاذورات لعله منذ أعوام، ولا يعلم أن فيه سقوطه، وتأخره، بل لربما يعود أعوامًا للوراء، فيا من يريد توفيقًا، وتسهيلًا، وصلاحًا، وبلوغًا: الزم طاعة ربك، واحذر أن تغضب من تريد منه حاجتك، وتلتمس منه توفيقًا لنيل مطالبك: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الكهف: ٣٠]، بل قال مشترطًا الإيمان: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١].

{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}

إعذارك لنفسك، وهروبك من لوم ذاتك لذاتك، وفرارك من الواجب أن تستمعه من ضمير حي في كل لحظاتك، لن ينفعك كل ذلك، وواجبك رد وساوس الشيطان، ونفسك الأمّارة بالسوء والبهتان، وعدم السماح للنفس بمبرراتها الإبليسية كالتعلل بكثرة الفتن، ولا يمكن إلا النظر، والقلب نظيف، وربك غفور رحيم...!.

لا مبرر للمعصية

النظر يجب غضه عن الحرام في جميع الأمكنة والأزمان، وليس لك أن تحتجَّ بفساد الواقع، وتبرِّر الخطأ بوجود ما يدعو إلى الفتنة؛ فإن الله تعالى قال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا} [الأحزاب: ٣٦]، والحرام يبقى حرامًا ولو اجتمع العالم على فعله، أو اتفقوا على إباحته، فلا يغير ذلك في الحكم مثقال ذرة.

إن لم تردعك اتهمها...!

نعم لا خير في صالحات، ولا حسنات، ولا ما فعلت وتقربت من الخيرات، ما دامت تلك كلها لم تزجرك عن معصية ربك، ولم تكفك عن الانغماس في ذنوبك، والتوقف عن سيئاتك؛ إذ أن الله قال: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، وكتطبيق عملي انظر كيف علل حجب الحرام عن يوسف عليه السلام بقوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، وعن يونس عليه السلام: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، واحذر من توعَّدك وأرصد لك، وتجهز لك: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: ٨٢، ٨٣]، {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأعراف: ١٦ - ١٨].

يكفي أن الله وصفه بالغواية

ألم يأنِ لذلك العاصي أن ينزجر، وأن يكف ويأتمر، بعد أن يصفه أصدق القائلين، ورب العالمين بأنه من الغاوين؛ كونه اتبع الشيطان، وترك طريق الرحمن: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: ٤٢]، بينما أعلن الشيطان عجزه من مس أصحاب الطاعات المخلصة، والعبادات الصادقة: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: ٨٢، ٨٣]، ثم توعده الرحمن ﷻ ومن اتبعه بالنار، ويكفي ذلك لك أعظم انزجار: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٢ - ٤٤]، وفي الأعراف: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأعراف: ١٦ - ١٨]، فاختر لنفسك هل تكون في حماية الرحمن، أم في أحضان الشيطان، وهل تكون من أصحاب الجِنان، أم من أصحاب النيران!.

عورات البيوت!

اعلم أن لكل شيء عورة، ولكل شيء خصوصية، وللبيوت عورات وخصوصيات لا يحل لأحد انتهاكها، واستطلاع ما فيها، قال ابن تيمية -رحمه رب البرية-: (وكما يتناول غضّ البصر عن عورة الغير وما أشبهها من النظر إلى المحرمات فإنه يتناول الغضّ عن بيوت الناس؛ فبيت الرجل يستر بدنه كما تستره ثيابه، وقد ذكر سبحانه غض البصر وحفظ الفرج بعد آية الاستئذان، وذلك أنّ البيوت سترة كالثياب التي على البدن، كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل:٨١]، فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سمومًا مؤذيًا كالحرّ والشمس والبرد، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك)[١]، ثم قال: (وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيها وابن أختها ومملوكها عند من يجعله محرَمًا متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب بل وجب...)، - وقال: - (والنظر إلى وجه الأمرد لشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة، سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو شهوة التلذّذ بالنظر، فلو نظر إلى أمّه وأخته

---

(١)- مجموع الفتاوى (٣٧٩/١٥)

وابنته يتلذّذ بالنظر إليها كما يتلذّذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبيّة كان معلومًا لكل أحد أن هذا حرام، فكذلك النظر إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة)[١].

---

(١)- المرجع السابق: (١٥/٣٧٧، ٢١/٢٤٦)

التقوى

إنها ذلك الحجاب الحاجز، والحارس المدافع، إن وجدتها وجدت حصنًا منيعًا، وحرزًا واقيًا من الحرام، إنها التقوى التي هي جعل وقاية بينك وبين عذاب الله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] فهل هي متحققة فيك:

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التّقى

واصنع كماش فوق أرض الشّوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة إنّ الجبال من الحصى

بين خيارين

العين باب لأحد شيئين: إما تعاسة، وحرقة، وحرارة، ومرارة، وذلة، واستكانة، وفوق ذلك العذاب الأليم في الآخرة، والشقاء السرمدي عند رب العالمين، أو أن تختار باب السعادة في الدارين، والحياة المطمئنة في المنزلتين، والراحة النفسية في الحياتين...: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]، {مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٤].

من لم يحفظ فرجه

إن من لم يحفظ فرجه من شهواتها، ومن لم يمسكها من نزواتها فقد فاتته صفات المؤمنين، ولن يكون من المفلحين، وابتعد عن الفردوس الأعلى الذي أعدها الله لأولئك العاملين، وأصبح ممن حكم الله عليهم بالعادين، وأنهم من الملومين، فقال في محكم التنزيل: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١ - ١١]، فأي حرمان بعد هذا!.

خطوات جهنمية لتدرج الحب

لا ريب أن الحرام لا يأتي فجأة، وأن التعلق به لا يكون في ساعة، وإنما المسألة خطوات وخطوات، ومحرمات تتلوها محرمات، ثم تكون سكرات لا يغفو منها، وإدمان لا ينفك عنها، وجرائم لا يتركها: (فمن أطلق لحظاته دامت حسراته؛ فإن النظر يولد المحبة فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة ينصب إليه القلب بكليته، ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عشقًا وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفًا وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيمًا، والتتيم التعبد، ومنه تيمه الحب إذا عبده، ويتم الله عبد الله فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له، وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكًا ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا يتظلم من الطرف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني، وهذا إنما تبتلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره)[1]، وصدق الله ﷻ حين قطع كل طريق، وأغلق كل باب وسبيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [النور: ٢١]، وانظر بما علل الله ﷻ نهيه عن تتبع خطواته: {وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، وقال معللًا في آية

(١) – إغاثة اللهفان (١/ ٤٧) دار المعرفة.

أخرى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]، وكرر الآية نفسها في سور ثلاث وكأنه ﷻ يقول: {قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: ١١٨]، {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٠]، {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام: ١٢٦]، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [النحل: ١٢].

وأختم هنا بكلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث قال: (ثُمَّ النَّظَرُ يُؤَكِّدُ الْمَحَبَّةَ، فَيَكُونُ عَلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ صَبَابَةً لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إلَيْهِ، ثُمَّ غَرَامًا لِلُزُومِهِ لِلْقَلْبِ كَالْغَرِيمِ الْمُلَازِمِ لِغَرِيمِهِ، ثُمَّ عِشْقًا إلَى أَنْ يَصِيرَ تَتَيُّمًا، وَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ، وَتَيَّمَ اللَّهُ عَبَدَ اللَّهِ، فَيَبْقَى الْقَلْبُ عَبْدًا لِمَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَخًا، بَلْ وَلَا خَادِمًا، وَهَذَا إنَّمَا يُبْتَلَى بِهِ أَهْلُ الْإِعْرَاضِ عَنْ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ})(١).

(١) – الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٩) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

الغض غضان

قال ابن تيمية- رحمه الله تعالى-: (قد أمر الله في كتابه بغض البصر وهو نوعان: بغض البصر عن العورة، وغضه عن محل الشهوة.

فالأول منهما: كغض الرجل بصره عن عورة غيره، كما قال النبي ﷺ: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة"[١]، ويجب على الإنسان أن يستر عورته.

وأما النوع الثاني: فهو غض البصر عن الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية وهذا أشد من الأول)[٢].

---

(١) – رواه مسلم ونصه: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ" رواه مسلم.

(٢) – مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١٤).

غضي طاعة لربي

أيها التائب العائد تذكّر أن في غضك، وتركك لشهوة نفسك طاعة لربك ﷻ، واستجابة لأمر رسولك ﷺ، وبالتالي أنعم بها من مكافأة، وانتظر لأعظم قصور الجنة، وأعلى مراتب الكرامة: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠، ٤١]، بل ليست جنة واحد بل هي جنان كثيرة: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، ثم قال معقبًا: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، أفلا تستحق أن تترك شهوة زائلة لجنة باقية دائمة، وعند الترمذي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ"، ومن عرف الغاية هانت عليه الوسيلة، ومن علم عظمة المنزلة سهلت عليه المسافة.

السمع الرباني

لا ندري كيف نتحدث عن هذه العظمة، ونتكلم عن هذه المنزلة، ونخبر عن هذه الدرجة التي قل من يصل إليها، والمنزلة التي قل من ينالها، بل هي كما قال عنها ابن القيم: (المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون؛ فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون:

من لي بمثل سيرك المدلل　　　تمشي رويدًا وتجي في الأول

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح)(١).

فهل يا تراه ينالها العصاة، وأصحاب الشهوات، ومن تلطخوا في المعاصي والمنكرات، بل لا أبدًا لن ينالوها ولو حاولوا، ولن يصلوا إليها ولو فعلوا ما فعلوا، وإليكم حديثها، وحماية الله لأهلها: عَنْ عائشة ~ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ: سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري، وبالتالي فإن نلتها فأنت في حماية ربانية من الحرام، وفي حظر تام عن موارد الآثام على الدوام، فإن وجدت نفسك في بُعد عن هذه الحماية، ولست من أهل هذه الرعاية فعليك أن تعزي نفسك، وأن تصلي عليها صلاة الجنازة لوفاتك؛ إذ لو أحبك لحجبها عنك، وصرفها وصرفك، ولما فكرت أصلًا، ولما ولجت أبدًا، لاشك أنك عرفتها إنها مرتبة المحبة: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، كان الحسن البصري إذا ذكر أهل المعاصي يقول: "هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم".

(١) – مدارج السالكين (٣/ ٦).

لن يعود لدينه سالما

قلَّ إنسان ينظر إلى هذه المحرمات فيرجع إلى دينه سالمًا -والعياذ بالله-؛ فالغالب في من يشاهد الأفلام الخليعة، والمناظر الفاتنة، والمقاطع الآثمة ألا يرجع إلى دينه سليمًا صحيحًا طيبًا إلا أن يرحمه الله، ويحتاج إلى توبة وبكاء وتضرع صادق؛ كي يغسل قلبه، ويطهر باطنه، ويدخل فيه ربه جَلَّ جَلَالُهُ، وينصرف عنه شيطانه، ولهذا قل من رجع، وكثير من انتكس واتضع: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠]!.

حفت النار بالشهوات

سُوْر من الشهوات جعله الله ﷻ يحيط بالنار فتنة للناس؛ {لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [المائدة: ٩٤]، {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، فمن اجتازه نجا، ومن سقط فيه هلك، وفي مسند أحمد وغيره: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وللترمذي وأبي داود: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ ' إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ اللهُ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، قَالَ: فَأَمَرَ اللهُ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا").

قال ابن القيم -رحمه الله-: (ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق؛ لمخالفتها لشهواتهم، ومباينتها لإراداتهم ومألوفاتهم، قل سالكوها، وزهدهم فيها قلة علمهم، وما هيئوا له وما هيئ لهم، فقل علمهم بذلك، واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى، وتوعرت عليهم الطريق، وبعُدت عليهم الشقة، وصعُب

عليهم مرتقى عقباتها، وهبوط أوديتها، وسلوك شعابها، فأخلدوا إلى الدعة والراحة، وآثروا العاجل على الآجل، وقالوا: عيشنا اليوم نقد، وموعودنا نسيئة، فنظروا إلى عاجل الدنيا، وأغمضوا العيون عن آجالها، ووقفوا مع ظاهرها، ولم يتأملوا باطنها، ذاقوا حلاوة مبادئها، وغاب عنهم مرارة عواقبها، اشتغلوا عن التفكر، وقال مغترهم بالله، وجاحدهم لعظمته: "خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به")، وبالتالي صدق فيهم قول الله: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥].

{استَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ}

ثق أن كل شهوة تستدعي أخواتها، وتنادي ما حولها، وتجلب إليك ما دونها حتى يهلك الإنسان، وتلفحه النيران وهو ما أقسم عليه الشيطان أمام الرحمن: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٦-١٧]، بل قال: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٣٩ - ٤٤]، بل إذا كان ربنا ﷻ أخبرنا عن الذين فروا في أحد بأنهم استزلهم الشيطان، وهم صحابة رسول الله ﷺ فكيف بغيرهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا} [آل عمران: ١٥٥]، وهكذا الذين يسقطون في فخاخ الشهوة إنما استزلهم الشيطان من الصغيرة حتى الكبيرة!.

{سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ}

ما سواد الوجه وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه، والكمد والحسرة التي يتميز بها، والبغض الذي يلقيه الله عليه في قلوب العباد، وتعسير كل شيء في وجهه خاصة إذا كان مطلبه من الناس إلا بسبب الحرام، وكثرة الآثام، وكم أعرف من أناس كانوا في قمة جمالهم فلما سقطوا في هذه الأوحال قبُحت صورهم، وتشوه خلقهم، وأصبح سيماهم في وجوههم: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وبياضه في الآخرة ناتج عن بياض أعماله في الدينا، وسواده من سواد أعماله كذلك، وأسودها النظر، وتقليب البصر فيما لا يحل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس: ٣٨ - ٤٢]، وفي البخاري ومسلم في الحديث الطويل عند ذكره للقبر وما فيه قال ﷺ عن المؤمن: (قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ)، وقال عن رجل السوء: (وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ).

وإن غض البصر يورث في القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين والوجه والجوارح، فضلًا عن انبساط في وجوه الناس، وسلوة في الحياة، واستمتاع بها، وطلاقة لسان، وإسعاد للأهل والخلان، أما المنغمس في الذنوب فتراه عابسًا، مكفهرًا، تعلوه الغبرة والقترة، قال الإمام الغزالي: (القلب كالمرآة، ومنه الآثار المذمومة كدخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، فلا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى حتى يسود ويظلم، ويصير محجوبًا عن الله تعالى، وهو الطبع والرين، ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلب، وعند ذلك يعمى عن إدراك الحق، وصلاح الدين، ويستهين بالآخرة، ويستعظم أمر الدنيا، ويهتم بها، وإذا قرع سمعه أمر الآخرة وأخطارها دخل من أذن وخرج من أخرى، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة: ١٣]، قيل لحكيم: لم لا تعظ فلاناً قال ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه فلا سبيل لمعالجة فتحه، ولا يذنب العبد ذنبًا إلا ويسود وجه قلبه فإن كان من السعداء ظهر السواد على ظاهره لينزجر وإلا أخفى عنه لينهمك ويستوجب النار)(١).

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٤/ ٢٥٠).

سلبه لأوصاف وأسماء

وكم هي مهانة وحقارة، وذلة ونذالة تلك المعاصي التي تسلب عن العبد تلك الأسماء الجميلة، والأوصاف الطيبة كاسم المؤمن، والصالح، والعفيف... وتعطيه الأسماء والأوصاف القبيحة والمشينة كاسم الفاجر، والفاسق، والزاني، والخائن... وفي البخاري ومسلم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ فِيهَا حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ حِينَ يَغُلُّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَكِنَّ التَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ"، (قَالَ عِكْرِمَةُ: فَقُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ يُنْزَعُ الْإِيمَانُ مِنْهُ؟، قَالَ: هَكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا- فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-)، ولا خير فيه وقد نُزع الإيمان منه، بل فوق هذا يفارق وصف الطيب: {والطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ} [النور:٢٦]، ويلزمه وصف الخبيث: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} [النور:٢٦]، وقد حرم الله على الجنة كل خبيث، وجعلها مأوى الطيبين فقال: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ} [النحل:٣٢]، {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } [الزمر:٧٣]، {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال: ٣٧].

أسوار الحرام في الإسلام

لو عملوا بقواعد الإسلام، والتزموا بما فيه من أسوار للحلال والحرام، لما اجترحوا الآثام، واقترفوا السيئات العظام، ولو عملوا بالمنهج الإسلامي في المجتمع وفي قضية علاج الشهوات لما رأينا، ونرى، وسنرى، أما وضع حدًا للزنا، أما قبحه وقال: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً} [الإسراء:٣٢]، أما قال: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} [النور:٢]، أما جعل عقوبة الزاني الثيب الرجم بالحجارة، أما حرَّم القذف، وجعل الذي يقذف بالزنا ويشيع الفاحشة في المؤمنين عليه حد ثمانين جلدة، أما شرع الاستئذان حتى للصغار، أما شرع غض البصر، أما شرع الحجاب، لماذا أمر المرأة بالقرار في البيت، لماذا حرم الخلوة بها، لماذا حذر من الدخول على النساء، لماذا حرم على المرأة السفر من غير محرم، لماذا شرع النكاح وحث عليه، لماذا أمر بالاستعفاف، وغض البصر، وحفظ الفرج....إلخ؟ إجراءات يجب أن تطبق في المجتمع؛ لتحميه من الحرام، وتمنعه من معاقرة الإجرام.

حسرة وندامة أصحاب المعصية

نعم إنهم يتحسرون، ويودون لو لم يفعلوا، ويحبون أن لو عادوا فأحسنوا لكن هيهات هيهات: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، بل يعضّون على أيديهم من الندم: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وقال جلَّ شأنه: {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢١ - ٢٦]، فهل ترضا أن تكون من هؤلاء!.

المعصية سبب اللعنة!.

ليت العاصي علم أن معصيته سبب لعنة الله وغضبه عليه، ونقمته التي تحل بواديه، وتمحق عليه كل شيء، وتقلب الحياة عليه رأسًا على عقب: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [المائدة: ٧٨]، وليسوا بني إسرائيل وفقط بل قوم سبأ أيضًا: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ: ١٥ - ١٧]، بل قال عن قريش الذين لم تحمهم مكة وحرمها من عقوبة الله: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: ١١٢].

الطرد من حوضه ﷺ

يا لها من حسرة وندامة، ومهانة وذلة، وخزي وملامة أن تطرد من حوض رسول الله ﷺ والناس يشربون شربة لا ظمأ بعدها أبدًا، بل وفوق هذا تحرم من رضا رسول الله ﷺ وقربه منك، وقربك منه ﷺ، والأكبر والأخطر أن يدعو عليك كما روى البخاري ومسلم وغيرهما ما مجموعه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: ("أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا"، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: " أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ"، قَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: "أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟"، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: "فَإِنَّ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ الْأُمَمِ غَيْرِكُمْ: تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ بُلْقًا مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمَ أَذُودُ النَّاسَ عن حَوْضِي كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ مِنْ الْإِبِلِ عَن الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، فلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي").

الشيطان سيتبرأ من وساوسه لك

تخيّل ذلك الذي أوصلك للعصيان، وأقحمك في الحرام، وأدخلك النيران يتخلى عنك، ويعلن براءته منك، بل ويكون عليك لا لك، ويتوعدك، ويخونك في أحوج ما تكون إليه: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢]، فتبرأ منه اليوم قبل أن يتبرأ منك هو، بل ليست البراءة منه وفقط، بل ومن كل من يسول لك الحرام، ويقرب إليك العصيان، ويحبب إليك معصية الرحمن، ويرميك في أحضان الشيطان: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٦٦ - ١٦٩].

الله أغير منك

الغيرة محبوبة إلى الله تعالى، ومرضية له، بل هو -تبارك وتعالى- يغار بأن تنتهك حدوده، ويعصى سبحانه، فهنيئًا لأولئك الذين حافظوا على هذه الفطرة، وامتازوا بهذه النخوة، وكسبوا رضا الله ﷻ بهذه الغيرة؛ فنجد كثيرًا من المسلمين لو بلغه أن امرأته أو قريبته قُتلت كان أسهل وأهون عليه من أن يبلغه أنها زنت، وفي البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ")، وفيهما: ("وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ")، وعند البخاري عَنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه: ("لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؛ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي")، أما ذلك الفاحش المتفحش، والآثم المجرم، الذي لا يبالي بأهله، ولا يراقب ويتابع ويعاتب أسرته، بل الأمور عنده عادية حتى لو بلغه أنهم فجروا فلا يحرك ساكنًا، وإن كان فيخاف الفضيحة في المجتمع فقط، ولا يبالي بدين ولا رب، فهذا قد قال عنه الحبيب عليه الصلاة والسلام كما في حديث ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا، ولَا يَنْظُرُ اللهُ -عز وجل- إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ الْمُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ، وَالدَّيُّوثُ)، وفي رواية: (وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ"، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَّا مُدْمِنُ الْخَمْرِ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الدَّيُّوثُ؟، قَالَ: "الَّذِي لَا يُبَالِي مَنْ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ")، وفي رواية: " الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ") رواه النسائي وأحمد.

المجاهرة بالمعصية

جريمة كبيرة، ومعصية عظيمة، ومبارزة خطيرة، بل وتحد لرب البرية -جل في علاه- ذلك الذي ينشر الحرام، ويعلن عن جرمه وسوء فعله بين الخواص والعوام، وهذا قطعًا قل أن يعافى ويتوب، وإن تعافى من مرضه عاد من توه، وفكر فيه من ساعته، وانتكس في لحظته، وأصبح أسير شهوته، مكبلًا في جرائمه؛ فلقد ورد في البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ: عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ"، وعجبًا ثم عجبًا له ما الذي يعود عليه نفعه بنشره، ولو نظر وحده فيعقل عند أصحاب المعاصي أن يستمتع لكن أن ينشر الجرائم فهذا لا يقوله عاقل، بل هو يتحدى ربه، ويعلن الحرب بينه وبينه كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور: ١٩]، فإذا كان بمجرد الحب ينزل العذاب الأليم وفي الدنيا والآخرة فكيف بالنشر حقيقة، وتسهيل الحرام صراحة!.

ويدخل في هذا من باب أولى ذلك الفاجر الخبيث المجرم الذي يباشر نشر صور أو مقاطع لفرجه، أو يصور نفسه وهو يفعل الحرام بيده، أو مع غيره، أو بزوجته، أو بزناه فهذا أفجر من أن يذكر، ولا يتصور أن يقوم به مسلم، لكن إن كان فهي جريمة تفوق الخيال، ومعصية عظيمة على كل حال، وليس حرامه على نفسه بل على كل من نظر فعليه مثل جرمه.

الاستخفاف يستدعي العقاب

حذاري حذاري من قوم استخفوا بأوامر الله، وتعدوا حدود الله، ووقعوا فيما نهى عنه الله، وتمردوا على شرع الله، وتجاوزوا ما لم يأذن به الله أن ينزل عليهم عقاب الله، وأن يجعلهم عبرة لكل من حارب الله ﷻ، ومن حاد شرع الله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة: ٥، ٦]، {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢٠، ٢١]!.

سبب ما تمر به الأمة

إن كل ما هو نازل اليوم بالأمة من كثرة الحروب، والخطوب، والهموم، والمصائب والكروب، والزلازل والمحن، والبلاءات والفتن، والأمراض والأسقام والأدواء والآلام والنقم إنما هو بسبب الزنا، واللواط، والنظر للحرام، والذنوب بشكل عام، وشيوع كل ذلك في كل مكان وناد، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا إِلاَّ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" رواه أحمد، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما - قَالَ: "أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ ﷺ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ " رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

نسيان العلم

تخيّل تعب سنوات، وعذاب مئات الساعات، وذهاب العمر واللحظات، وسهر الليالي، والسفر الشاق والمضني، والجهود الجبارة، والهمة العالية لكن كل ذلك يذهب بذنب لحظات، ويتبخر بمعاصي الخلوات، فأي حسرة وندامة، وأي ملامة وانتكاسة تلك، ومن باب الواقع الفعلي، والمثل التطبيقي، والقصص الزمني فأذكر لك ثلاث قصص فيها عبرة وعظة وإن كانت القصص في الباب كثيرة لا تحصى لكن للعبرة فقط: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]، قال عبدة بن عبد الرحيم: خرجنا في سرية إلى أرض الروم فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه، ولا أفقه، ولا أفرض، صائم للنهار، قائم لليل، فمررنا بحصن فمال عنه العسكر، ونزل بقرب الحصن، فظننا أنه يبول فنظر إلى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها، فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟، قالت: حين تتنصر يُفتح لك الباب وأنا لك، ففعل فأُدخل الحصن، قال عبدة: فقضينا غزاتنا في أشد ما يكون من الغمِّ، كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صلبه، ثم عدنا في سريةٍ أخرى فمررنا من فوق الحصن مع النصارى، فقلنا: يا فلان ما فعلت قراءتك؟، ما فعل علمك؟، ما فعلت صلواتك وصيامك؟، قال: اعلموا أني نسيت القرآن كله، ما أذكر منه إلا هذه الآية -وكأنه المعني بها-: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٢، ٣]!.

وذكر ابن النجار في تاريخه أن رجلًا كان يطلب العلم يقال له ابن السقة، كان عند الشيخ أبي إسحاق الشيرازي فسأل الشيخ مسألة وأساء الأدب مع الشيخ، فقال أبو إسحاق: اجلس؛ فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، فاستغرب الحاضرون، ثم بعد حين أرسل الخليفة هذا الرجل بعد ذلك برسالة إلى ملك الروم، فذهب وافتتن ببنت ملك الروم وطلب زواجها، وامتنعوا إلا أن يتنصر فتنصر، ورئي في القسطنطينية مريضًا وبيده مروحة يذب بها الذباب عن وجه، فسُئل عن القرآن فذكر أنه نسيه إلا آية واحدة: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر:٢].

وأختم بقصة رواها ابن الجوزي رحمه الله: (وروى بسنده عن عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى بن أبي الادان قال: كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فمر حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي أنظر إليه فقال: يا بُني لتجدن غبها ولو بعد حين، فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغب، فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله)(١).

(١) – غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (١/ ٧٠)، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، وانظر: التبصرة . لابن الجوزي(١/ ١٣٣). وذكرناها مرتين هذه القصص، وأعدناها لمناسبتها للعنوان.

ضعف الذاكرة جزاء النظرة الآثمة

كم عرفنا من نوابغ الدهر، وفرسان الحفظ، وأوائل كانوا منذ عرفوا الحياة، وفي المقدمة دائمًا أينما حلوا وارتحلوا، ثم استرسلوا في المعاصي فتناقصت عقولهم، وزالت قوة حفظهم، وخوارق ذكاهم، وما خبر الإمام الشافعي -رحمه الله- وعدم تمكنه من الحفظ عنا ببعيد، مع نبوغه، وسرعة حفظه، وعظيم ذكاه وفطنته، وبمعصية عابرة، وزلة غير مذكورة أمام معاصي الزمان، وجرائم عصر الجوال، ومع هذا أُقفل عليه باب الحفظ، ولم يستطع حفظ كلمة حتى ذهب لشيخه وكيع بن الجراح -رحمهما الله- فقال يشكي له ذنبه، ودله على علاجه، وحكى لنا ذلك بشعره:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

أقسام المحبة

المحبة للحرام، والتعلق بالآثام لا يأتي في ساعة، ولا ينطلي على القلب في أول لحظة، ولا يضره في أول نظرة، بل يحتاج لمراس لا بأس به، وسبق أن العلماء يقولون: نظرة، ثم خطرة، ثم فكرة، ثم إرادة، ثم عزيمة، ثم فعل، وهنا أنقل كلام ابن حزم ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن أقسام المحبة بعد أن جعلها خمس درجات فقال: (أولها: الاستحسان، وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور حسنةٌ، أو يستحسن أخلاقه، وهذا يدخل في باب التصادق، ثم الإعجاب، وهو رغبة الناظر في المنظور إليه، وفي قربه، ثم الألفة، وهي الوحشة إليه متى غاب، ثم الكَلَفُ، وهو غَلَبَةُ شُغْلِ البال به، وهذا النوع يسمى في باب الغزل بالعشق، ثم الشغف، وهو امتناع النوم، والأكل، والشرب إلا اليسير من ذلك، وربما أدى ذلك إلى المرض، أو إلى التوسوس، أو إلى الموت، وليس وراء ذلك منزِلَةٌ في تناهي المحبة أصلاً)[1].

---

(١) – الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي (ص: ١٢٠)، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨م، وانظر: مداواة النفوس (ص: ٥٥)، الناشر دار الآفاق الجديدة، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكان النشر بيروت.

وقتك محاسب عليه

اعلم علم اليقين على أن كل لحظة من عمرك، وكل ثانية مضت من وقتك، بل كل نفس أخرجته من جوفك أنك محاسب عليه كل حساب، فأعد للسؤال الجواب الصواب: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، وفي الصحيح عند الترمذي وغيره: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ"، فلا تذهب أوقاتك منك سدى، وتكون بها الشقي الأشقى.

احذر أن يراك حيث نهاك

يكفيك من بعدك عن الله، وغضبه عليك، وسخطه الذي نزل بك أن يراك في مواقع الرذيلة، ويفتقدك في مواطن الفضيلة، أن تهتم بفرجك بينما الأمة في مأساتها، وتعتني بشأنك بينما الأمة فيما لا يخفى على أي فرد من أفرادها، بل أعظم من هذا أن يراك متصلًا بالنت بينما يخلو منك المسجد، ووقت الصلاة، ويرى جوالك في يدك لكن لا تعرف المصحف منذ كذا وكذا، ولا يرفع الملائكة لله تعالى أي حسنة منك!.

باب الشيطان

الشيطان لا ينتظر منك أن تعلن كفرك، وتمردك على ربك، وعبادة سوى خالقك، بل يريد منك الانتكاسة في المعصية، ونسيان التوبة، وقلّت الطاعة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، وَلَكِنَّهُ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ" رواه أبو يعلى، وانظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني، وانظر كيف جعل الحبيب ﷺ الذنوب لكثرتها موبقات وهن المهلكات، وتجد أن ذلك هو الواقع؛ فالأعم الأغلب من المسلمين لا يقتلون، ولا يشربون الخمر، ولا يزنون، لكن الصغائر منتشرة فيما بينهم، فإذا أصر الإنسان على صغيرة انقلبت إلى كبيرة ولا بد: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]، وورد في الأثر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (لا صغيرة من الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار).

تزيين الشيطان

انظر معي كيف يلعب الشيطان على عقول الكثيرين، وكيف يزين الحرام في قلوب الضعيفين فتجده يستمتع بالحرام بالرغم بشاعته، ولا يهوى الحلال بالرغم حُسنه، وأمانُه: (فهو لطيف جدًا مع أخت زوجته، لطيف جدًا مع موظفة بالدائرة، يصبح كالملك، ابتسامة، وسلام، وخضوع، ويسألها عن صحتها، وكأنها مريضة، هل أخذت الدواء اليوم؟ يدخل إلى البيت فتجده كالوحش مع زوجته، هذا واقع اليوم أنا لا أتكلم من فراغ، بل من واقع، فالرجل شرس مع زوجته، لئيم لا يتكلم كلمة، وقد كان في أيام الخطبة يمضي معها ثلاث عشرة ساعة في الاتصال، وبعد العرس يجر الكلام منه جرًا فلا يتكلم، أما إذا كان هناك ضيفة تجده إنسانًا آخر، ناعمًا، لطيفًا، بسرعة يحسن وضعه، يرجل شعره، يلبس، يبتسم، لماذا هذه النعومة البالغة مع مَن لا تحل لك؟ ولماذا الفظاظة مع من تحب؟ هذا مرض المسلمين)(١).

(١) – دروس صوتية للشيخ النابلسي.

من كان لله أعرف كان له أخوف

على قدر معرفتك بربك، وقربك من خالقك، وكثرة اطلاعك على ما وهبك، وما منّ به عليك تبتعد عن العصيان، وتقترب من الرحمن، وترفض طاعة الشيطان، ولذلك الملائكة لما عرفوا ربهم حق معرفته لا يفترون عن عبادته: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠]، {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، وعند الحاكم: عَنْ سَلْمَانَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوُسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟، فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ"، وهكذا قال عن العلماء الذين هم أشد خشية للرحمن: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨]، وقال عن الجاهلين: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧]، فاختر لنفسك مع من تكون، خاصة وقد جاء في الأثر: "إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي".

لذة العفة

لذة العفة أعظم من لذة الذنب، وأمتع، وأجمل، وأحسن، وأعظم أمانًا لقوم يعقلون، ومن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه، ولكن عمى البصيرة، وطغيان الشهوة، وتوافه الحياة الدنيا على الآخرة يعمي ويصم، ويحتاج لمجاهدة قوية، ونفس لله محبة ومستعدة للتضحية: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]!.

الغض بين الزوجين!

ما لا يخطر على بالك، ولا يتخيله تفكيرك، وقد لا يدخل عقلك أن الفقهاء اختلفوا في جواز النظر لعورتي بعض (العورة المغلظة)، وهو من عظيم روائع هذا الدين في جهة العفاف، ومنع إسقاط الحياء حتى بين الزوجين فكيف بغيرهم، ولهذا ورد في سنن ابن ماجه: عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ فَلْيَسْتَتِرْ، وَلاَ يَتَجَرَّدْ تَجَرُّدَ الْعَيْرَيْنِ"، وورد عن عائشة ﵂ أنها قالت عن علاقتها الجنسية مع رسول البرية ﷺ: "ما رأيت قط فرج رسول الله ﷺ"، وفي رواية: "ما رأيت ذاك منه، ولا رأى ذاك مني"، مع أن الأمر على جواز ذلك إنما من باب الأفضل، والأدب، وهو مذهب الجمهور، وإن كان للشافعية ثلاثة أقوال: الحرمة، والجواز، والكراهة.

لو أحبك ما تركك

لا تحسب أن الحبيب يترك حبيبه فيما لا يرضا، ويتركه فيما يغضب عليه ويكره أن يفعله، ولا يمكن أن يدعه يرتع فيما يبعده عنه، وانظر لنموذج يوسف عليه السلام كيف صرفه عن امرأة العزيز بالرغم ما هيّأت له، ونبينا ﷺ حين هم بسماع اللهو في الجاهلية فأنامه الله جل جلاله فلم يستيقظ إلا على حرارة الشمس، فكن على يقين أنه لو أحبك لما شغلك بهذه التوافه، وانتكست في هذه السفاسف، ولرفعك عن هذه المتاهات، وأبعدك عن هذه السفاهات: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، والحبيب لا يعذب حبيبه، ولا يسقطه فيما يغضبه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]، وثق أنه لو كان معك لما كنت مع هؤلاء السفهاء، وتجالس هؤلاء الحقراء، وإنما الله جل جلاله مع عبده ما داما معه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، وفي الحديث الصحيح: "إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - يَقُولُ: "أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ"، وفي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً")، فإما أن تشغل نفسك به، وتشتغل معه فذاك دليل

حبه لك، وقربك منه وبالتالي قربه منك، وإلا تنصرف عنه وتبتعد وبالتالي بعده عنك وأنت الخسران: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة: ٥٧].

{وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}

ما تركك إلا لهوانك عليه، وبغضه إياك، وعدم حبه لك، وكونك سقطت من عينيه، وأبعدك عن ناظريه: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام:١١٠]، وإلا لو أحبك لشغلك بطاعته، والعمل في مرضاته: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٤١]، بل قال: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } [التوبة: ٤٦]، فأعيذك بالله أن تكون ممن لم يطهّر قلوبهم، ولم يعنهم على تنقية بواطنهم، والتخلص من قاذوراتهم!.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}

إن صاحب الطاعات، والمكثر من الصلوات، ومن بينه وبين الله ﷻ قربات يخشى ربه، ويتقي خالقه، ويخاف من عقابه، ونزول فجأة عذابه: {وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج: ٢٧، ٢٨]، وقد جاءت الآيتان بعد حديث عن من صلوا، واستقاموا، وعبدوا الله تعالى كما ينبغي، فكانت النتيجة: آثارهم ملموسة، وفضائلهم محسوسة، وذنوبهم متروكة: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المعارج: ٢٢ - ٣٥]، فانظر كيف انتفعوا بالصلاة في حفظهم لفروجهم، وخوفهم من ربهم، وخشيتهم لعذابه أن ينزل عليهم، وهنا رسالة مهمة من الآيات: إن لم تنفعك عباداتك وطاعاتك بتجنب المعاصي، والبعد عن الزلات فراجعها؛ فلعلها لم تقبل أصلًا: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥].

بين العلو والسفول

اختر لنفسك إما أن تضعها بأعمالك، وتخفضها بأوزارك، وإما أن ترفعها بطاعاتك، وما تسره بينك وبين ربك فاختر لنفسك؛ فالأمر بيدك لا بيد غيرك: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [المدثر: ٣٧]، وفي صحيح مسلم: "إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ"(١)، وقد ميّزك الله على سائر المخلوقات بعقلك؛ لتعرف الخير والشر: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٢، ٣]، فاحذر الشر وما يجني، وعليك بالحق وما يثمر.

---

(١) - والحديث له قصة فَعَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ قَالَ: لَقِيَ نَافِعُ بْنُ عَبْدِ الْحَارِثِ عُمَرَ - رضي الله عنه - بِعُسْفَانَ - وَكَانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟، قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمِ ابْنَ أَبْزَى، فَقَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟، قَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، فَقَالَ عُمَرُ: اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟، قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ - عز وجل - عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صلى الله عليه وسلم قَدْ قَالَ: " إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ ".

ذل النفس

كفى العاشق للصور، والمدمن للنظر، والملاحق لأهل الأهواء، وأصحاب البلاء أن في ذلك ذله، وحسرته، ودنوه، وسفولته، وحقارته، أو ليس من الذل أن تكون حياة الإنسان معلقة بغيره، وسعادته بيد سواه، فهو مضطر إليه، وهو لعبة في يديه، إن أقبل سَعُد، وإن أعرض شقي، وإن مال إلى غيره اسودت الدنيا في عينيه، فهذا -والله- الصغار بعينه، وهو الذل الذي لا ينفع معه المال الكثير، ولا الجاه العريض، فإذا أراد الخلاص لنفسه من الذل، ولعقله التحرر من الرق، ولقلبه الطمأنينة، وترك الحسرة، وعدم الوقوع في زلة وعثرة فيجب أن يجاهدها، ويقودها مغصوبة لشرفها وعزها وعفتها: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وبالجملة فشرف النفس وزكاؤها يقود إلى التسامي، والعفة، والجلالة، وذلك أن المرء بين عاطفة تخدعه، وشهوة تتغلب عليه، فمتى لم يجد من عقله سائسًا، ومن دينه وازعًا يقاومان الضعف، ويصارعان الميول والأهواء وقع في الخطايا، وانغمس في الشرور والرذائل، وإن قوي على عصيان الهوى، والنفس، والشيطان، والشهوة، وثبت في مواقف هذا الصراع الهائل كان في عداد المجاهدين، وترتب على انتصاره وفوزه جميع المكارم والفضائل التي تنتهي به إلى خيري الدنيا والآخرة: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

ومن كان ذا نفس ترى الأرض جولةً   فلا بدَّ يومًا للسموات يرتقي

ولو عدت بنفسك أيها المدمن للحرام، المذل لنفسه في الآثام أن سبب وقوعك في هذا الذل هو فضول النظر الذي يوقع القلب في ذل اتباع وضعف وهوان، ومهانة النفس وحقارتها، وتصبح أسير الشهوة؛ فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه فهو كما قيل: (طليق برأي العين وهو أسير)، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكّن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كف طفل يسومها حِياضَ الردى والطفل يلهو ويلعب

وقد جعل الله العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[فاطر: ١٠]، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، فمن أطاع الله فقد والاه، وله من العزة بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته، ولهذا تجد في المتبع هواه من ذلِّ النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها، وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن: (إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذلَّ المعصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه)، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[المنافقون: ٨]، وقال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}[فاطر: ١٠]، وقد ورد: "إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته"، وقيل: "إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهنًا"، وعن الحسن البصري أنه كان إذا ذكر أهل المعاصي يقول: "هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم".

همة عالية

إنك لن تجد يتقوقع في هذا الميدان، ويشغل نفسه بهذه الآثام، ويتلطخ بهذا الحرام إلا الفارغ الذي أقعدته همته، ورخصت عليه نفسه، وهانت عليه كرامته، وتفه عنده وقته، وضاع عليه عمره، أما صاحب الهمة العالية، والنفس الطموحة فهو مشغول عن كل شاغل، بعيد كل البعد عن كل انحطاط سافل، جعل الحياة كلها سلم عبور ليقفز نحو ما يريد ثم ترك السلم خلفه، وكل شيء وراءه، ولا يمكن أن يضيع حياته في هذه التفاهات، ولا يجد وقتًا لهذه المتاهات، ولا يشغل تفكيره بهذه القاذورات، وكنموذج حي انظر لصقر قريش عبد الرحمن الداخل -رحمه الله- هذا الرجل الذي أهديت له جارية بارعة الجمال، تشرئب لها الأعناق، ويطمح إليها كل الرجال، وذلك أول قدومه الأندلس، وهو في أشغل ما يكون، فلما رآها قال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا شغلت عنها بما أَهِمُّ به ظلمتها، وإن أنا اشتغلت بها عما أَهِمُّ به ظلمت همتي، فلا حاجة لي بها الآن، وردَّها على صاحبها، ثم بعدها صنع حضارة، وأسس دولة يضرب بها المثال حتى الآن، هذا الرجل الذي ولي الأندلس وهي ولاية تميد بالفتن، وتشْرَقُ بالدماء، فما لبث أن قرَّت له، وسكنت لهيبته، ثم خرج في طليعة من جنده، فافتتح سبعين حصنًا في غزوة واحدة، ثم أمعن في قلب فرنسا، وتغلغل في أحشاء سويسرا، وضم أطرافًا من إيطاليا، حتى ريَّض كل أولئك له، وبعد أن كانت قرطبة دار إمارة يذكر فيها الخليفة العباسي على منابرها، وتمضي باسمه أحكامها أصبحت مقر خلافته، يحتكم إليها عواهل أوربا، وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها.

فنريد من المسلم أن يكون دائمًا صاحب الهمة الأبية عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل؛ فمن لم تكن له همة أبية لم يكد يتخلص من هذه البلية؛ فإن صاحب الهمة العلية يأنف أن يملك رقَّه شيء، وما زال الهوى يذل أهل العز، وهذا الذل لا يحتمله ذو أنفة؛ فإن أهل الأنفة حملهم طلب علو القدر على قتل النفوس، وإجهاد الأبدان في طلب المعالي، ولهذا نرى طالب العلم يسهر ويهجر اللذات؛ أنفة من أن يقال له: جاهل، والمسافر يركب الأخطار؛ لينال ما يرفع قدره من المال، حتى إن رُذالة الخَلْق ربما حملوا كثيرًا من المشاق؛ ليصير لهم قدر فكيف بك أيها المسلم:

وكل امرئ قاتلٌ نفسَه　　　　على أن يقال له: إنه[1].

(١) - انظر ذم الهوى (ص: ٦٤٢).

فلا تطفئها بظلمة المعصية

كم هم أولئك الشباب النوابغ، والأخيار الأفاضل، أصحاب العقول الناضجة، والأجسام الصحيحة، والأعمار الصغيرة، الذين يحتاجون لنصيحة الإمام العلم إمام دار الهجرة -رحمه الله- الإمام مالك وهو ينصح الإمام الحجة الإمام الشافعي -رحمه الله- وكان الأخير صغيرًا حينها، بعد أن قدم على الإمام مالك فرأى قوة حفظه، وثقابة ذهنه، وصفاء قريحته فقال: "يا محمد إني أرى عليك نور الطاعة فلا تطفئها بظلمة المعصية"، وهي نصيحته -رحمه الله- لكل مسلم، ووصيته لكل موحد؛ فأنوار الطاعات تطفئها ولا بد ظلمات المعاصي، وبالتالي لن يرى النور، ولن يعرف طعم الحياة وهو في ظلمات: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]، ومن يمشي في غير نور الله فهو يتخبط وإن وجد كل نور دنيوي: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠]، بل يكون في ظلمات ويخرج من الأنوار الساطعات: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧].

الفراسة الحقة

من المتفق عليه عند العلماء، والمحسوس عند طلبة العلم وعموم الأذكياء أن إطلاق البصر يذهب نور البصيرة، ويولد العمى وقلة الفهم، ونسيان العلم، وصعوبة الحفظ، والبلادة وقلة البديهة... وذلك أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن غض بصره أطلق الله له بصيرته، ومن أطلق بصره حبس الله بصيرته، وعاقبه بعكس ذلك في الدنيا فضلاً عن ما ينتظره في الآخرة، ولهذا قال شاه بن شجاع الكرماني: (من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد الحلال لم تخطئ فراسته)، وكان شاه لا تخطئ له فراسة، وجزء من الفراسة ما سبق.

بين الغفلة والهوى

جراحات غائرة، وندامات متواصلة، وظلمات متلاحقة يتلقاها ذلك الناظر للحرام، والمطلق لبصره العنان؛ فإطلاق البصر يوقع العبد في الغفلة واتباع الهوى، وبالتالي سيئته تجر سيئات، ومعصيته تجر معاص موبقات: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣]، قال الله: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه، وغضه لله -عز وجل- يفرغ القلب للتفكير في مصالحه والاشتغال بها:

ولو كان سهمًا واحدًا لاتقيته ... ولكنه سهم وثان وثالث

يُوقع العبد في الغفلة

ومن عقوبات ممارسة الذنب، والإدمان عليه، وكثرة معاودته أنه يورث الغفلة عن الله والدار الآخرة، ونسيان الموت، ولقاء الرب -عز وجل- وما وراء ذلك من خطب، والغفلة من علامات أهل النار كما قال ربنا في القرآن: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]، وصاحب المعصية هو هو ذلك الذي لديه عقل لا يستعمله، بل يوصل بنفسه للهاوية في الدنيا والآخرة لأجل لذة لحظات منسية، وله عين لكن يستعملها في الحرام وقلما ينتفع بها في طاعة الرحمن، بل تجده على جواله أكثر منه على مصحفه وإقباله على ربه، ويضيق ذرعًا بتطويل الإمام في الصلاة، لكنه يقف لساعات ليتكلم مع صديقه لا يمل، وقل عن أذنه أيضًا كما تحدثت عنه الآية الكريمة، ويوضحها أكثر قوله: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف: ٢٦]، ولكن الهوى يؤدي للعمى، ونسيان الهدى، ويورث البلاء، ويوقع في الشقاء في الدنيا والأخرى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية: ٢٣]، {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: ٤٣]!، والنجاة في قول الله بلزوم الصالحين ومجالسهم، والبعد عن الطالحين وما لديهم: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ

مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]!.

السيئات تداعي الشرور

الذنوب تكسب القلب ظلمة وإذا أظلم القلب أقبلت عليه سحائب البلاء والشر من كل مكان، فما شئت من بدعة وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة، واشتغال بأسباب الشقاوة إلا وجدته في صاحب ذنب النظر، والمنغمس في معاصي البصر، وعلى قدر معصيته يكون ذلك فيه، وإنما يكشف ذلك النور الذي في القلب، فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام: ١٢٢]، وقال: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]، بينما غض البصر لله -عز وجل- يكسب القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح: ٢٩]، وعند الترمذي والنسائي وابن ماجه: عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ"، ولهذا ذكر الله ﷻ آية النور عقب الأمر بغض البصر فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} [النور: ٣٠]، ثم قال إثر ذلك: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ} [النور: ٣٥]، أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب.

وأخيرًا: فهذا الله يقول: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى: ٤٠]، فالسيئات تداعي أخواتها كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ولا ترضا بالبقاء وحدها، ولهذا عادة من يعمل سيئة يتبعها بأخرى، ثم هكذا حتى تتراكم عليه ذنوبه، ثم تحيط به: فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ ") رواه أحمد.

سكرة بلا سُكْر

فضول النظر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، وذل المعصية، وغرام الصور، وإدمان النظر، كما قال تعالى عن عشاق الصور: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]، فوصفهم -جل وعلا- كما قال ابن القيم -رحمه الله- بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمه الذي هو فساد نور البصيرة، فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الخمر، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات نادمًا مع الخاسرين(١).

---

(١) ـ روضة المحبين (ص: ١٠٤).

الأنس بالله

لا شك أن للطاعات أنوارها الخاصة التي تقذفها للقلب فتنكس السعادة فيه، ويجد الراحة بداخله، ويحس بالحياة الحقة حوله: (لا نعيم له، ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها، قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه)[١].

(١) – مدارج السالكين (١/ ٤٥٤).

ضاع وأضاع!

كم من نساء حدثنني –ورجال أيضًا- عن كيف كان عمل الزوج، ونفقته، وصرفياتهم في البيت، وسرورهم، وفرحتهم، ولياليهم السعيدة، وأوقاتهم الجميلة، وماذا دخل عليهم بعد أن انشغل الزوج بملاحقة الصور، ومتابعة الحرام، وملاحقة الأرقام والروابط هنا وهناك، ولم يغض البصر، فلم يتوفق لأي عمل، ولم يفلح في أمر من أمور الحياة، ولم ير النجاح بعدها: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ١٠]، وبالتالي ضاعت حياتهم، وانقلبت أوضاعهم، وفشل مستقبل أولادهم، وبدأت الهموم تتكدر عليهم: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} [طه: ١٢٤، ١٢٥]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]!.

أين أهلك!

لقد شكت إليّ نساء مؤمنات صالحات بأنهن كن في نعمة بأزواجهن ثم تعلق بالصور والمراسلات فأصبحن في نقمة، وعذاب، وجحيم، لقد خرّب داره بيده، وأفسد نفسه وأهلك أهله معه، لقد أضاع تلك الابتسامة لأولاده، والمزاح معهم وزوجته، والانبساط إليهم في يومه وليلته، وأبدل كل ذلك بالسهرات، وملاحقة الفتيات هنا وهناك، والبحث عن أرقامهن في الجوال، ومراسلتهن في كل الأوقات!.

يُورث الحكمة

الحكمة مطلب جليل، وهدف نبيل، لا يصل لحيازتها إلا الفضلاء، ولا ينالها إلا العظماء: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: ٢٦٩]، لكنها محرومة كل الحرمان عن ذلك العاصي للرحمن، المتبع للشيطان، الممارس للعصيان؛ فهي منحة ربانية لمن يشاء الله تعالى، ومن لم يتذلل له، ويترك معصيته فلا يستحقها، وهو أبعد الناس منها، ولهذا قال عن يحيى عليه السلام وأسباب استحقاقه للحكمة: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: ١٢ - ١٥]، وقال عن داود عليه السلام حين استحق منحها له: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ } [ص: ١٧ - ٢٠]، وكل ذلك لن يصل إليه البطالون، إنما يصل إليه من أكرمه الله، وأحبه، ومن المقطوع به، والمسلم بأمره أن من حرم نفسه الشهوات، وقطع عنها الملذات، وحاربها من الانغماس في الموبقات أن الله يحبه، ويدنيه منه، ويقربه إليه؛ فقد ترك كل ذلك لأجله تعالى، وربنا أهل الكرم: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١]، ودليل محبته وكرامته أن يعطيه الحكمة، يرفعه عنده.

الباب الرابع:

معالجات

وهنا نحط رحالنا على الدواء بعد أن عرفنا الداء، وشخصناه كما علمنا الإسلام، وأحطناه -ما استطعنا- بأسوار وأسرار، ومواعظ وأقوال، وأدلة وبيان، ولو أننا أطلنا فالأمر يحتاج لأكثر من هذا؛ نظرًا لعموم البلاء، واشتداد الداء لكن يكفينا ما ذكرنا و: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، والآن إليك الدواء، الرافع للبلاء بإذن المولى جل وعلا، مع أنه كضرورة لابد أن تسجل هنا أن فيما سبق أدوية ناجعة، وكافية، ولا غنى لمن طلب العلاج عن ما مضى على كل حال، وإنما سنسوق هنا ما نراه كإسعافات طارئة، وعلاجات ضرورية، قد لا تبدو مرتبة بالنسبة لبعضهم لكنها مرتبة بالنسبة لغيرهم، وليس المطلوب الترتيب بل الانتفاع، وقد ينفع لهذا من العلاج ما لا ينفع لذاك، فليرتب كل مصاب لنفسه، وهو أعرف بحاله، ومكامن نفسه، وأهل مكة أدرى بشعابها، بل الله يقول: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} [القيامة: ١٤]، وليلخص كل من به لم هذه المعالجات، ويأخذ منها ما يراه مناسبًا له، ويقدم منها ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير لديه:

اتبع السيئة الحسنة تمحها

نصيحة نبوية، وقاعدة مهمة، فمهما عظم الذنب أو صغر فلا بد من مطهر، وإطفاء غضب الله تعالى بأي طاعة خاصة الصدقة: "صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ" صححه الألباني، وعند الترمذي وابن ماجه: "وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ" وصححه الألباني، فعلى المذنب أن لا يستصغر ذنبه، بل يعظمه؛ ليصغر عند ربه: ففي البخاري والترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ"، وأن يعود إلى ربه من فوره، وأن يعلن خطأه وتقصيره من لحظته: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء: ١٧، ١٨]، وإن تمادى فلا يأمن مكر الله أن ينزل، وعقوبته أن تحل: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠]، وفوق هذا فهو يظلم مجمعه معه إن لم يبادر بالعودة، ويحسن التوبة: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥]، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]!.

ومن محو السيئة المبادرة لصلاة التوبة التي ثبتت في كتب السنة كما عند الترمذي وأبي داود وابن ماجه وأحمد عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِذَلِكَ الذَّنْبِ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: ١١٠]، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]")، وعند أحمد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صلى اللهُ عليه وسلَّم - يَقُولُ: " مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ يُحْسِنُ فِيهِمَا الذِّكْرَ وَالْخُشُوعَ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللهَ - عزَّ وجل - غَفَرَ لَهُ ".

والقلب إنما هو كالمرآة في أصله، فكلما نُكت فيه نكتة أثّرت فيه، ثم لا تكاد ترى في المرآة شيئًا، فتحتاج لأن تغسل هذه المرآة أو ما سماه ﷺ بالكوز وذلك بكثرة الطاعات: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا عُودًا كَالْحَصِيرِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا -وَأَمَالَ كَفَّهُ- لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"(١)، والحل النبوي، والعلاج الرباني فيما رواه الترمذي وأحمد: عَنْ

---

(١) – رواه البخاري ومسلم: عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ قَالَ: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ ، فَقُلْتُ: أَنَا أَحْفَظُهُ

أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي فَقَالَ: "اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)، وفي رواية: (إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، فَاعْمَلْ حَسَنَةً؛ فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؟، قَالَ: "هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ").

فإن لم تفعل تراكمت الذنوب، واستفحلت المعاصي، وعشعش الشر، ونسيت الخير، وانتكس القلب، وأحببت الذنب فتصبح لا ترى إلا الحرام، ولا تصبح إلا عليه، ولا تمسي إلا له، ثم لا ينفع علاج، ولا تنتفع بدواء، فالزم الغسل بالطاعات

قَالَ: فَهَاتِ، إِنَّكَ لَجَرِيءٌ فَقُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا عُودًا كَالْحَصِيرِ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَالَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا –وَأَمَالَ كَفَّهُ– لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ " (فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ؟، قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الْفِتْنَةَ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فَقُلْتُ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا فَقَالَ عُمَرُ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ فَقُلْتُ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: فَإِنَّهُ إِذَا كُسِرَ لَمْ يُغْلَقَ أَبَدًا، فَقُلْتُ: أَجَلْ قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟، قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ قَالَ أَبُو وَائِلٍ: فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ عَنْ الْبَابِ، فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ).

بعد كل ذنب خاصة الصدقة؛ لتكف بها غضب ربك ﷻ: "وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ"(١)، والصلاة: فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لِيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ(٢) عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوْ

---

(١) – رواه الترمذي والطبراني وأحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ، قَالَ: "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟، الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟"، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟"، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، "فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟، فَقَالَ: "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟ إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فَإِذَا تَكَلَّمتَ، كُتِبَ عَلَيْكَ، أَوْ لَكَ").

(٢) – والساعة في لغة العرب يراد بها اللحظة من الزمان، وليست الساعة المعروفة الآن، وانظر على سبيل المثال: تاج العروس (ص: ٥٣٢٧) للزبيدي، ومجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار(٣/ ١٤٧) للكجراتي.

الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً" رواه الطبراني وصححه الألباني، وقيام الليل: : فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ" رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني، وما في مسند الإمام أحمد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ: "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"!.

احذر اليأس من رحمة الله فأعظم من الذنب

أيها المذنب: إن الشيطان يأتيك فيقول لك: ها قد وقعت فانتهى أمرك، فلا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به، فلا داعي لأن تعاهد نفسك بعدم النظر، وتندم على ما لا بد من عودة إليه، وتمتنع من شيء تعلم يقينًا أنك سترجع له، وهكذا ينسج الشيطان الرجيم حولك خيوطًا من الوهم، والوهن، حتى تصبح أسيره، ولا تلبث أن يصدق عليك قول الله عز وجل: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: ٤٣]، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣]!، فاحذره من الآن، بل كلما سقطت نهضت، وكلما وقعت أفقت، وكلما وهنت قويت فلا تستسلم أبدًا.

ماذا ستجني عند استمرارك

إن مما يوجب محاربتك لنفسك، وانتقامك من عدوك، وصرفك هواك إلى طاعة ربك، وجهادك الأعظم لهواك ونفسك وشيطانك أنك إن لم تفعل اليوم، وتقلع الساعة، وتنتهي اللحظة ستصبح أسيره حتى الموت، وسيطول عناؤك وشقاؤك ومرضك وألمك وغمك وإدمانك حتى يأتيك أجلك، وبالتالي الويل ثم الويل لك، فواجب عليك أن تتوقف الآن، وأن تقرر الحسم الساعة، وأن تنتهي اللحظة، وأن تنوي تغييرًا حقيقيًا من قلبك هذه المرة: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[الرعد: ١١]، وسبقت قصة الأعرابي عند النسائي وصححه الألباني: عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ ﵁ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الْأَعْرَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قَسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالَ: "قَسَمْتُهُ لَكَ"، فَقَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى بِسَهْمٍ هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ"، فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَهُوَ هُوَ؟"، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ"، ثُمَّ كَفَّنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جُبَّتِهِ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ").

خوفك هل حجزك

إن لم ينهك خوفك من الله عن معصيته، ولم ترقب ربك عند خلوتك، ولم يزجرك علمك عن معصية ربك فلا خير في علمك، ولا ما استفدت من حياتك، ولا تنظيرك في خوف ربك، واستعدادك لآخرتك، ورأس العلم الخشية، فمن ادعى علمًا وسُلبت منه الخشية فعلمه حجة عليه لا له: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨]، {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]، فراجع علمك، ومعلوماتك، واتخذ من ذلك جسرًا للعبور للجنة لا للنار!.

التوبة المطلوبة

كثير أولئك الذين يتوبون من النظر للحرام، بل ويعاقبون أنفسهم، وقد يصل بعضهم للعهد، والنذر، أو اليمين على المصحف، أو يعلق النظر بالطلاق... لكن أغلب هؤلاء ينقلب رأسًا على عقب، ولا يفي بشيء من ذلك للأبد، ولا يمسكه عن الحرام شيء مما تقدم، والسبب أنها لا تعدو أن تكون توبة لحظية، ونوع ندم وقتي، وكل هذا ليس المطلوب، وليس بمقبول، وهو عائد للذنب لا محالة، وإنما يسلّي نفسه بيمينه، أو نذره، أو عهده، والواجب شرعًا، والمقبول توبة هو ذلك الندم الدائم، والأسى المتواصل الذي قال عنه الحسن البصري: "رب مذنب يدخل بذنبه الجنة؛ إذ يطول حزنه حتى يأتي أجله، فيدخله الجنة به"...!.

تسلية الشيطان

ذلك العهد الشيطاني، واليمين الإبليسي، والنذر اللحظي الآني كما يحلو لي أن أصف الأمر بذلك: "تسلية الشيطان"، والسبب أن أغلب العصاة بعد فراغه من معصيته يسلّي نفسه بعهد يقطعه، أو يمين يلفظه، أو بنذر يعقده، ثم ما إن يأتي المساء إلا وقد عاد، ونسي ما قال، وهكذا في كل مرة يأتيه الشيطان، وينقض عليه ما كان، ويحسب أكثرهم أن ذلك يسقط عنهم الذنب، ويخفّف وتيرته، وما علموا أن الذنب لا يسقطه سوى الطاعة الحقة، والتوبة النصوح الصادقة الدائمة، وأن من فعل ما سبق ثم عاد فإنه لو دفع كل كفارة، والتزم أمرها بحذافيره فإنه لا يسقط عنه إثم الذنب، ولا يحل له أن يقترب منه مهما دفع من نقد، فيجب أن يعلم وأن يعتقد ذلك كل عبد.

الندم اللحظي

قد يأتي الشيطان لكثير من الناس فيندّمهم بعد المعصية، ثم يسليهم أن: "الندم توبة"، وما علموا أن المراد بالندم هنا هو الندم الدائم، والحسرة المستمرة، والخوف المقلق، والهم المزعج، والألم المحرق، والذي قال عنه الحسن البصري -رحمه الله-: "ندم لا يأمن بعده إلا إذا وضع قدمه في الجنة"، وليس الندم اللحظي الزائل، والبكاء الكاذب، والخوف الذي ما إن يضع بعده قدمه على سجادته حتى يعود للحرام بعد سجداته!.

أنت مجتهد ومجاهد

أيها التائب لقد جمعت بين الجهاد، والاجتهاد، والمجاهدة، والصبر، والمصابرة، والمرابطة فلا ترجع للوراء، واحذر دعاة الشهوات، وأصدقاء المحرمات، ولا تنجر وراءهم بأي حجة، أو أي دعوة وحيلة، وسيحاولون النيل منك، وتثبيطك، وجرك إليهم ثانية فاحذرهم وحذر منهم؛ فكم سقط بعد أن تاب من تائب، ورجع بعد أن عاد من منيب سالك؛ فقد قال ربنا: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء: ٢٧]، بل قال آمرًا: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠].

الإرادة القوية والرغبة الجادة في التغيير

شرط أساسي للتوبة، وباب لا بد منه للعودة، ومفتاح ضروري للانطلاق، والفرار إلى الجبار هو تغيير ما بالنفس، ورغبتها الحقيقية: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، ثم بعده يأتي التوفيق الإلهي، والهداية الربانية: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} [مريم: ٧٦]!.

طريق التوبة عند ابن القيم

ذكر ابن القيم -رحمه الله- في كتابه طريق الهجرتين قاعدة في ذكر طريق يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال فقال: (وهي شيئان: أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها، والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها، وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها، فإن قلت فما الطريق إلى حفظ الخواطر قلت أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه، ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته (يعني القلب).

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر، ويستعر شرارها، فتأكل ما في القلب من الإيمان، ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلًا، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه، وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها، واستوطنت مكانها، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك، وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلًا، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح، معذّب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى، وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها، وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله؛ فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد، ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها

أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها الملك في سلطانه، واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها، وجل أعمالها، وهذا نافع لصاحبه بشرطين: أحدهما أن لا يترك به واجبًا ولا سنة، والثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرغ قلبه من تلك الخواطر، ويعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منها معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا، ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك، وعملوا على إلقاء الخواطر، وإزالتها جملة، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقًا وفتحًا رحمانيًا وهم فيها غالطون، وإنما هي خيالات شيطانية، والميزان هو الكتاب الناطق، والفطرة السليمة، والعقل المؤيد بنور النبوة، والله المستعان)[١].

---

(١) – طريق الهجرتين (ص: ٢٧٤) الناشر: دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٤م، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

وجوب تعجيل التوبة

يحسب كثير من العصاة أن أمر التوبة بيدهم فمتى شاءوا تابوا تقدموا أو تأخروا، وما علموا أن العلماء جعلوا التوبة واجبة على الفور، ومن أخرها أثم، ويحتاج لتوبة لتأخيره التوبة كما قال ابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين: (المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه، ومما لا يعلم؛ فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم؛ فإنه عاص بترك العلم والعمل؛ فالمعصية في حقه أشد، وفي صحيح ابن حبان: أن النبي ﷺ قال: (الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟، قال: أن تقول: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم"(١)، فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ولا يعلمه العبد، وفي

(١) - صححه الألباني: عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: "انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا"، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، أَلَا أَدُلُّكَ

الصحيح عنه ﷺ: (أنه كان يدعو في صلاته: "اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي، وهزلي، وخطأي، وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت")[١]، وفي الحديث الآخر: "اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره"[٢]، فهذا التعميم وهذا الشمول؛ لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه)[٣].

عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟، قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ ".

(١) - رواه البخاري ومسلم ونصه: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ".

(٢) – رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ ".

(٣) – مدارج السالكين (١/ ٢٧٢) دار الكتاب العربي بيروت.

خطر من تاب ثم عاد!

نعم إنه خطر محدق، وهم مقلق، وكلام مؤرق لذلك الذي كلما تاب عاد، وكلما ندم انتكس، وكلما قام سقط، ينبيك عن هذا إمام من الأئمة، وعالم من علماء الأمة إنه ابن القيم -رحمه الله- حيث قال: (العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن مات مصرًا، أو أن ذلك قد بطل بالكلية فلا يعود إليه إثمه وإنما يعاقب على هذا الأخير، وفي هذا الأصل قولان، فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول؛ لفساد التوبة وبطلانها بالمعاودة، قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإن ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر"[(١)]، فهذا حال من أسلم وأساء في إسلامه، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة في الإسلام، فإذا أُخذ بعدها بما كان منه في حال كفره، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق، كما لا تمنع الإثم اللاحق، قالوا: ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط، كما أن صحة الإسلام مشروطة

---

(١) – رواه البخاري ومسلم: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟، قَالَ: "مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ").

باستمراره والموافاة عليه، قالوا: والتوبة واجبة وجوبًا مؤكدًا مدى العمر، فوقتها مدة العمر؛ إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار ثم نقض إمساكه بالمفطرات بطل ما تقدم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه، قالوا: ويدل على هذا الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ: "إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"(١)، وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفرًا موجبًا للخلود، أو معصية موجبة للدخول؛ فإنه لم يقل: فيرتد فيفارق الإسلام، وإنما أخبر أنه يعمل بعمل يوجب له النار، وفي بعض السنن: "إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في وصيته فدخل النار"(٢)، فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية، والأعمال بالخواتيم، فإن قيل: فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات، وهذا قول المعتزلة، والقرآن والسنة قد دلا على أن

---

(١) – حديث طويل ومنه: "فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا" رواه البخاري ومسلم.

(٢) – رواه الترمذي وأبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ".

الحسنات هي التي تحبط السيئات لا العكس، كما قال: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"(١)، قيل: والقرآن والسنة قد دلا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات فلا يُضرب كتاب الله بعضه ببعض، وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣]، وتفسير الإبطال ها هنا بالردة؛ لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: ٢٦٤]، فهذان سببان عرضا بعد الصدقة فأبطلاها، وشبه سبحانه بطلانها بالمن والأذى بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: "من ترك صلاة العصر فقط حبط عمله"، وقالت عائشة -رضى الله عنها- لأم ولد زيد بن أرقم رضي الله عنه وقد باع بيع العينة: "أخبري زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب"، وقد نص أحمد على هذا في رواية فقال: "ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه، فيستدين ويتزوج؛ لا يقع في محظور فيحبط عمله"، فإذا استقرت

---

(١) – وقالها لأبي ذر رضي الله عنه: قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي فَقَالَ: "اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)، وفي رواية: (إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنَ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: " هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ").

قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها ما يحبطها بالنص جاز أن المعاودة حسنة التوبة فتصير التوبة كأنها لم تكن، فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما فيكون التأثير لهما جميعا)[١]، فالأمر شديد، والخطب جليل.

---

(١) – مدارج السالكين (١/ ٢٧٦).

قطع العلائق

إن من شروط التوبة المتفق عليها، والواجبات المفترض حصولها، ترك كل سبب، والانقطاع عن كل وسيلة تعيد إليك العطب، وتقربك نحو الحرام، وتوصلك للنيران، ولم يصدق بالتوبة، وهو كاذب من ادعى العودة مادام يحتفظ بأرقام، أو روابط، أو صور وفيديوهات، أو مواقع وحسابات، أو أي شيء من هذه التفاهات التي تدل على عدم صدق توبته، وكذبه فيما وعد به ربه، ولهذا لما تاب القاتل لمائة نفس أُمر بمغادرة بلده كما في البخاري ومسلم: ("اخْرُجْ مِنْ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ")، فاهجر مواطن الوباء، وأماكن البلاء، والمستنقع الآسن، وكل شخص ماجن، وإذا كان النبي ﷺ قال: "وَفِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ"، فكيف بمجذوم القلب، ومريض الفؤاد، ومن يوصل للنيران، ويقربك من الشيطان.

وليس هذا فحسب بل التوبة يجب أن تكون من جنس المتاب منه، ولهذا شرط الله على العلماء الذين كتموا إن تابوا أن يبينوا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، وشَرط على المنافقين: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤٥،

١٤٦]، وبالتالي فهذا شرط ضروري، وأمر حتمي، وما مثل من ادعى التوبة وهو غارق في هذه الأوحال إلا كمن هو في خضم البحر ثم قيل له إياك إياك أن تبتل بالماء.

قال ابن القيم -رحمه الله-: (وأما العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ﷻ ورسوله ﷺ من ملاذِّ الدنيا، وشهواتها، ورياساتها، وصحبة الناس، والتعلق بهم، ولا سبيل إلى قطع هذه الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع؛ فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعُف تعلقه بغيره وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به، وشرفه، وفضله على ما سواه، وقد خلق الله سبحانه النفسَ شبيهةً بالرحى الدائرة التي لا تسكن، ولا بد لها من شيء تطحنه؛ فإن وُضع فيها حبٌّ طَحَنَتْهُ، وإن وُضع فيها تراب أو حصى طحنته؛ فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى مُعَطَّلةً قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها؛ فمن الناس من تطحن رحاه حَبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبنًا ونحو ذلك؛ فإذا جاء وقت العجن والخبز تبيَّن له حقيقة طحينه)(١).

---

(١) – الفوائد (ص: ١٧٤).

وجوب مغادرة مجالس الحرام

وأنا أقرأ في حديث نبوي صحيح صريح أذهلني ما فيه من دعوة صريحة لوجوب مغادرة كل سبب ووسيلة تؤدي للحرام مهما كانت، والابتعاد عنه في أي موضع كان هو قوله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ)، وإذا كان هذا هو حال الطريق، وفي زمنٍ النساء فيه بكامل سترهن وحيائهن، فماذا نقول عن هواتف يتصفح فيها ما يشاء، وينظر فيها لما يريد، ويفترس من خلالها كلما جد من جديد، فإياكم والجلوس في أماكن الحرام، واستجلاب غضب الجبار!.

وجزء لا يتجزأ من هذه المجالس الواجب مغادرتها هي تلك المواقع والمنتديات والتطبيقات في وسائل التواصل التي تكثر فيها الإعلانات الدعائية التي تدعو إلى الرذيلة والمتعة المحرمة؛ فإنها مفتاح لما بعدها، وداعية لما وراءها، وهي مصيدة فقط لتجرك جرًا للنظر لغيرها، فاحجب نفسك عنها، وحاربها بعدم تواجدك فيها أيًا كانت أسباب الاقتراب منها، فضلًا عن متابعة أصحابها، أو أي انضمام أو اشتراك فيها، وإلا فهو كاذب أشد الكذب في توبته من زعمها ولم يجتنب أسبابها، ووسائلها، وكل داع يدعو إليها.

صحبة الأخيار

إن من شروط التوبة التي أطبق عليها العلماء، واتفق عليها الفضلاء، وانتهجها العقلاء: البعد عن الوسائل التي تعيد للمعصية، وترك السبل والأسباب التي ترد التائب للخطيئة، ومن أخطرها، وأشدها، وأعظمها: الأصدقاء، وسواء كانوا على سبيل الحقيقة تعاشرهم في الواقع، أو على سبيل الافتراض كوسائل التواصل من أرقام، ومجموعات، ومحفوظات من صور وفيديوهات، ومواقع، ومتابعة شخصيات، وحسابات، وصفحات... وإلا فليس بتائب عند عامة الفقهاء من لم يجتنب ذلك، بل هو كاذب ولو ادعى التوبة في اليوم ألف مرة؛ فمن شروط التوبة كسر مراكب العودة، وإذا لم يتحقق الشرط بطُل المشروط.

ترجو السلامة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

ونوع من الحماية المهمة، وبذل الأسباب الواجبة هي مصاحبة الصالحين، وترك مصاحبة الفاسدين، والابتعاد عنهم وعن مجالسهم: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، وانظر كيف النهي في آخر الآية، وكيف سماهم الله ﷻ بالظالمين، ولهذا وجبت البراءة منهم اليوم قبل أن يتبرأ منهم في يوم لا تنفعه البراءة فيه: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٩]، {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧] فمن صادقته هنا لغير الله سيكون عدوك عند الله لا في أي يوم بل: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، فتخلص منهم اليوم؛ فإن ذلك شرط لا بد منه لقبول التوبة.

الصاحب ساحب

إنه أصل الداء، ومكمن البلاء، واستفحال المرض، وسقوط العبد، إنها رفقة السوء التي تحسّن القبيح، وتقبّح الحسن، وتجر إلى الرذيلة، وتزري بالفضيلة، وتسوق لمراتع الحرام، وتوصل للنيران في لحظات وأيام: فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَمَثَلُ جَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْكِيرِ، إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنْ سَوَادِهِ أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ")، وفي رواية: "إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"، وأصله في البخاري ومسلم، وفي سنن الترمذي وأبي داود وصححه الألباني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"، وما ذاك إلا كون المرء يتأثر بعادات جليسه؛ فالصاحب ساحب، والطباع استراق، وإذا كانت حبة من التفاح تفسد سلة من الصحاح، فماذا عن البشر وقلوبهم الضعاف، وعلى أقل أحوال صاحب السوء أن يزين لك أفعاله، ويبرر لك حرامه، ويصبح عندك الحرام عاديًا، ولا تتأثر به، ولا تراه خطرًا، بل يصبح عنك معروفًا، ومعناه انتكاس الفطرة، قال النووي في شرح حديث قاتل المائة نفس: (قال العلماء في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب والأخدان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما

داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح، والعلماء، والمتعبدين الورعين، ومن يقتدى بهم، وينتفع بصحبتهم، وتتأكد بذلك توبته)[1].

(١) - شرح النووي على مسلم (١٧/ ٨٣) دار إحياء التراث العربيبيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

الهجرة المفروضة

هجرة مفتوحة، وطاعة في كل وقت مسموحة، لا تنقطع مع الزمن، ولا يضرها مرور الوقت، إنها الهجرة عن الحرام، هجرة في كل شيء، ولكل شيء، وعن كل شيء: "وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ"(١)، فهذه الهجرة العظمى التي لا تنتهي إن انتهت كل هجرة سواها، وانقطعت كل سفرة عداها، إنها هجرة عن الشرور وأصحاب الشر، وابتعاد وبعد عن الحرام ومراتع قذارات البشر، وطاعة واجبة لرب العباد جل وعلا القائل: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١٠٠]، فهاجر إلى الله بقلبك وبدنك يؤتك أجرك، ويوسع عليك رزقك، ويبارك لك في عمرك وعملك، ويصلح لك حالك، وفي البخاري ومسلم في قصة الذي تاب بعد أن قتل مائة نفس: "اخْرُجْ مِنْ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ"، فذلك المحبوب لك، والمقرب لقلبك، والمدلل عندك، والذي لا تستطيع الفكاك منه، والابتعاد عنه

---

(١) – رواه البخاري ومسلم وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("تَدْرُونَ مَنْ الْمُسْلِمُ؟"قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، تَدْرُونَ مَنْ الْمُؤْمِنُ؟ " قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ").

سواء من البشر أو غيرهم كهاتف يجب أن تعود نفسك لهجره، والابتعاد عنه ولو بين فترة وفترة، وتجاهد نفسك مهما يكن الأمر لتركه، وابعده عنك؛ فإن البعيد عن العين بعيد عن القلب، وكل بعيد عن البدن يؤثِّر بعدُه في القلب، فليصبر على البعد في بداية الأمر صبر المصاب في بداية مصيبته، وليبتعد عن المحبوب فلا يراه، ولا يسمع كلامه، ولا يرى ما يذكِّره به، وإن كان المحبوب زميلاً في مدرسة، أو كلية، أو وظيفة، فابحث عن مكان آخر، وهاجر لبلد آخر؛ فوالله لبقاء دينك، وثباتك على الحق الذي معك خير لك من الدنيا بما فيها: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: ٢]، وثق بالله، واستأنس به، وداوِ قلبك بذكره، والانقطاع له عن من سواه، ثم إن مرور الأيام يهون الأمر، وبطول الصبر تنال مراد الرب، قال زهير بن الحباب الكلبي:

إذا ما شئت أن تسلو حبيبًا ... فأكثر دونه عدد الليالي

فما سلى حبيبك غير نأيٍ ... ولا أبلى جديدك كابتذالِ

حضور مجالس الذكر

كم من ذنوب اجترحتها، ومعاص ارتكبتها، ومحرمات انتهكتها لكن يمكن تفوز بمغفرة ربانية، وتجاوز إلهي بحضورك لمجالس الذكر؛ فتلك المجالس هي المنسية لنيران الهوى، والداعية بحق وصدق إلى جنة المأوى، بل هي مكفرة لأبواب شتى من الحرام كما قال السلف، وقد صح عنه ﷺ: "مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ" كما رواه أحمد وصححه الألباني، وفي البخاري ومسلم: "قَالُوا وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ"(١)، فمجالس الذكر تكفر الحرام،

---

(١) - رواه البخاري ومسلم وهو ضمن حديث طويل ونصه عند مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضْلاً يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ قَالَ فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ فَيَقُولُونَ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ قَالَ وَمَاذَا يَسْأَلُونِى قَالُوا يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ قَالَ وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي قَالُوا لاَ أَىْ رَبِّ قَالَ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي قَالُوا وَيَسْتَجِيرُونَكَ قَالَ وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِى قَالُوا مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ قَالَ وَهَلْ رَأَوْا نَارِي قَالُوا لاَ قَالَ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي قَالُوا وَيَسْتَغْفِرُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ

وتمحي الآثام، وتزيل عنك ثقل ذلك كله بإذن الملك العلام ﷻ وقد قيل في ذلك: "مجلس واحد من مجالس الذكر يكفر سبعين مجلسًا من مجالس الحرام"، بل إذا كان الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بها، وحثه عليها فكيف بنا: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، ونهى ﷻ عن مجالسة ضدهم فقال: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، وقال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠]، بل يكفي صاحب هذه المجالس بل الرياض ما ثبت في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا"، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ" رواه الترمذي وأحمد، أن الله يذكرهم: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: ١٥٢]، ومن ذكره الله فلن يعصيه: عَنْ عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ

قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا قَالَ فَيَقُولُونَ رَبِّ فِيهِمْ فُلاَنٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ قَالَ فَيَقُولُ وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ".

بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري.

مرطب لقلبك

ما من دواء لترطيب القلوب، وإعادة توجيهها لعلام الغيوب، وتسليمها لملك الملوك مثل ذكر الله جل وعلا، فإذا أكثرت من ذلك، والتزمت بكل هذا فقد ملكت قلبك، وصفيته مما شغلك، وألزمت نفسك طاعة ربك، وصرفتها عن شيطانك وهوى نفسك: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٨]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]، أما من ارتضا بالشيطان، وابتعد عن الرحمن فهو الخاسر حقيقة وحكمًا: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: ١٩]، ومن كان من حزب الشيطان استولى عليه، وأدخله في أعماله، وصار معه، ومتلبسًا وإياه في لباس واحد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما - فِي قَوْلِهِ: {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، قَالَ: "الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ".

سوق البطالين

نعم هو سوق واسع، ومجال رحب شاسع، لكنه من الشيطان جاء وإليه ينتهي بما فيه من بلاء؛ فأصحابه أولئك الذين يتشبثون من الدين بما يمليه عليهم الشيطان الرجيم، فتراه يتخذ: "ربك غفور رحيم"، لكنه نسي: "شديد العقاب"، وظن بالله ظن السوء حين ظن أن جنته سيدخل فيها من هب ودب دون عمل، ومعناه أن الله تعالى وحاشاه سيظلم من عملوا صالحًا، واجتهدوا في هذه الدنيا وعملوا خيرًا، ومعناه تكذيب تلك الآيات البينات في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ بأن الجنة أعدت للمتقين، وللذين آمنوا وعملوا الصالحات... وكذبوا أولئك الذين يزعمون الجنة والمغفرة بلا عمل؛ فلو أن أحدهم يرجو من مزرعته أن تنتج دون أن يزرعها، أو من زوجته أن تحمل دون أن يجامعها، أو من مؤسسة عمله أن يأتيه راتبه دون أن يداوم فيها، لعده الناس من السفه والطيش، بل والجنون من أوسع أبوابه، فما بالهم تنتهي عقولهم عند الجنة وطلبها، وتزول قواعدهم عند مغفرة ربهم، وعفو مليكهم، وصدق ﷺ كما في الترمذي وابن ماجه وأحمد: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"، أي يريد ويريد لكن دون عمل صالح منه.

رجاء للنار

ما أكثر الناس الذي يؤمنون كإيمان إبليس بألسنتهم، ثم يعصونه بأعمالهم، وأقوالهم، وفوق ذلك يرجون المغفرة وهم في المعصية، ويعولون على رحمة الله تعالى وهم في غضبه، ويرددون: الله غفور رحيم، ورحمته واسعة، وربك كريم... وكله اتكال دون أي أعمال، بينما الله تعالى يقول وفي مئات الآيات: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨٢]، {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٩٥]، وقال عن الجنة وأن العمل هو مفتاح دخولها: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف: ١٤]، {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الواقعة: ٢٤]!، قال ابن القيم -رحمه الله-: (قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ} [البقرة: ٢١٨]، فجعل هؤلاء أهل الرَّجاء، لا البطّالين والفاسقين، وقال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: ١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرَّجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه، وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار فهو كالمعاند، وقال معروف: "رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخِذلان والحمق"، وقال بعض العلماء: "من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمَنْ أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا"، وقيل للحسن:" نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن

يطرحني في النار، ولا يبالي"، وسأل رجل الحسن فقال: "يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمْنًا خير لك من أن تصحب قومًا يؤمّنونك حتى تلحقك المخاوف")[1].

(١) – الداء والدواء ط المجمع (١/ ٥٠).

سلاح المؤمن

إنه ذلك السلاح الذي يخترق الأرض، ويشق السماء، ويصل للفضاء في أقل من غمضة عين، وأسبق من عدو الخيل حتى لو اجتمع العالم كله، وجهزوا لعشرات السنين، واستعان العبد بربه وناداه فلن يضروه؛ فدعاؤك يزلزل الجبال ويدك الأرض والسماء فلا تتجاهله، وانظر لقدوتك ﷺ حين رفع يده ووضعها على صدر ذلك الذي يحب الزنا: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﵁ قَالَ: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ادْنُهْ"، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ "قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ")، وقال للحصين بعد موعدته له هذا الدعاء قبل أن يسلم: "اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي"، كما رواه الترمذي: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵁ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: "يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟ قَالَ:

أَبِي سَبْعَةً سِتًّا فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: "فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ، قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: "قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي".

فلابد من الإعداد بالسلاح في هذا الصراع العالمي الكبير الذي يسعى فيه المفسدون بكل قوة وتقنية لنشر الفساد، وإحلال الحرام محل الحلال، وسلاح المؤمن هو الدعاء: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة:١٨٦]، فادع ربك أن يصرف عنك السوء والفحشاء: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} [يوسف:٢٤]، وانظر للفظ القرآني ولم يقل: (صرفناه عن السوء والفحشاء)؛ لأن الله إذا صرف عنك السوء والفحشاء لو بحثت عنها فلن تحصلها، لكن إذا صرفك الآن قد لا يصرفك مرة أخرى إذا عُرض لك السوء والفحشاء، ولذلك يوسف عليه السلام قال: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ} [يوسف:٣٣-٣٤].

ومن الأدعية النبوية التي تكثر منها:

"اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"(١).

---

(١) – رواه مسلم وغيره: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: ("كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، قَالَ: " نَعَمْ، إِنَّ

ودعاء: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى"(١).

ودعاء: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي"(٢).

"اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ"، وسيأتي قريبًا.

إضافة لما سبق: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبِي، وَطَهِّرْ قَلْبِي، وَحَصِّنْ فَرْجِي".

وكذلك: "اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي".

كل ذلك وغيره من الأدعية العادية غير النبوية حاول أن تكثر منها في كل وقت وحين خاصة أوقات الإجابة، وقيام الليل، والثلث الأخير منه؛ لما في البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ -وَأَشَارَ الْأَعْمَشُ بِإِصْبَعَيْهِ-، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ ").

(١) – رواه مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى".

(٢) – رواه الترمذي والنسائي وأبو داود: عَنْ شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ، قَالَ: "فَأَخَذَ بِكَفِّي فَقَالَ: " قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي".

("يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ)، وفي رواية: (إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ)، وفي رواية: (حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضُّرَّ فَأَكْشِفَهُ عَنْهُ؟، فلَا يَبْقَى مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ - عز وجل - لَهُ، إِلَّا زَانِيَةً تَسْعَى بِفَرْجِهَا أَوْ عَشَّارًا، ثُمَّ يَبْسُطُ اللهُ تَبَارَكَ وَتعَالَى يَدَيْهِ فَيَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ، فلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ").

{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}

شعور بالأمان ذلك هو الاقتراب من الرحمن، وارتياح أيما ارتياح يوم تجد الكل تخلى عنك، ولن يستطيع نفعك، ولا خير في من حولك، وهنا تصيح بلسان الذل والافتقار، راجيًا تدخل الجبار، ومنطرحًا بين يديه، ساجدًا ممرغًا جبهتك في آخر الليل تشكو حالك إليه، وتبث شكواك، وتعلن خروجك عن كل حول وطول، وأنك جربت الأدوية، واستخدمت المضادات، واستنفدت كل قواك، واستفرغت كل الطاقات، واستشرت الثقات، وعدت لهذا وذاك فلم تنفع وسيلة للخروج من كارثة إدمانك، والبعد التام عن جرائمك، بل كلما نزعت رجعت، وكلما أقسمت فجرت، وكلما عاهدت غدرت، فهنا يكون الدعاء الحق من قلب صادق، والنداء المر من رجل مشفق خائف، والتضرع التام ممن ذاق المر، وتجرع كل غصص الشر، وأراد الخروج مما هو فيه، والتوبة النصوح مما كان عليه: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: ٥٨]، متخذًا دليله أنبياء الله ورسله كيعقوب عليه السلام: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦]، وكأبينا آدم عليه السلام: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، وككليم الله موسى عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [القصص: ٢٤]، وكيونس عليه السلام: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، وفي ثلث الليل الأخير خاصة؛ ففي البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ("يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى

السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ)، وفي رواية: (إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ)، وفي رواية: (حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضُّرَّ فَأَكْشِفَهُ عَنْهُ؟، فَلَا يَبْقَى مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ - عز وجل - لَهُ، إِلَّا زَانِيَةً تَسْعَى بِفَرْجِهَا أَوْ عَشَّارًا، ثُمَّ يَبْسُطُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَدَيْهِ فَيَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ").

دعاء المعصوم

الدعاء ذلك الحصن الحصين، والسد المنيع، وهو حاجز عظيم بينك وبين الحرام مهما كان، وإذا كان الحبيب يدعو الله بأن يرزقه خشيته حتى لا يعصيه، ويبعده من الحرام حتى لا يقترب منه فيكف بنا نحن ففي سنن الترمذي: عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: (قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ لأَصْحَابِهِ: "اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا").

الاستعاضة عن البشر بحب الله عز وجل

أي تفاهة وصل إليها كثير من الناس بتركهم للحب الأهم، ورضاهم بما هو أدون وأقل وأهون، وتمسكهم بحب زائل، ومتاع سافل، بالرغم علمهم أنه لا يمكن اجتماع قلبين في جوف عبد أبدًا: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}[الأحزاب: ٤]، وبالتالي إما أن يشغل قلبه بحب ربه، أو يشغله بغيره: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٨]، فأنت بين أن تختار الرحمن على ما سواه من الأنداد فتفوز بالدنيا والأخرى، أو تختار غيره -وحاشاك- وبالتالي فالخسارة لهما معًا: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]، وطريق حبه تعالى واختياره دون غيره هي الطاعات كما قال تعالى في الحديث القدسي: عَنْ عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ

اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري، وبالتالي فاهنأ بمعيته، واعتز برقابته، وتشرف بإحاطته، وفوق ذلك بقربه، فلا تتحرك إلا بإذنه، وعلمه، وتوفيقه، وهدايته ﷻ، ولن تذهب إلا في مرضاته وطاعته.

كن يوسف هذه الأمة

يا من تتصفح الجوال، وترى بعينك مناظر الحرام، وكثرة النساء، والإعلانات هناك وهنا: كـن يوسف هذه الأمة عفة، وخوفًا، وورعًا، وتحصنًا... اصرف بصرك، وجاهد نفسك، واملك زمام قلبك، ودع شهوتك اليوم لذلك اليوم: ﴿إِنِّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيتُ رَبِّيْ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ﴾، وادعُ دعاء يوسفعَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدعونَني إِلَيهِ وَإِلّا تَصرِف عَنّي كَيدَهُنَّ أَصبُ إِلَيهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجاهِلينَ﴾[يوسف: ٣٣]، وأرجو لك بعد ذلك فضل حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ".

فرامل حتى لا تهرول

أيها العاصي: إذا رأيت نفسك مقبلة على الذنوب، ومندفعة ومسرعة لمعصية علام الغيوب فضع لوحة كُتب عليها: "اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"، حتى تكون هذه اللوحة عبارة عن (فرامل) وضوابط تمنع من الاقتراب من الحرام؛ فقد ورد أن البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام كف أبيه مكتوبًا عليه مثل هذه الكلمات التحذيرية من الانزلاق في الحرام، والرضا بلحظات من المتعة، ثم الانتكاسة الأبدية، وأيضًا في الجانب المقابل إذا رأيت من نفسك إقلاعًا عن المعصية، وفي قلبك يأسًا وقنوطًا، أو تخشى أن يتسرب إليك ذلك، فضع أمامك لوحة كُتب عليها: "إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ"؛ حتى تنجر إلى الله تعالى، وتؤمن به، وتدعوه، وتثق بسعة رحمته تبارك وتعالى، وبالتالي تعيش بين الخوف والرجاء.

خفف من شهوتك

والواجب على المسلم أن يجتنب كل وسيلة للحرام، وكذلك أن يكسب كل سبب يبعده عنه، أو يقلل من ورود الحرام عليه كوسيلة الصيام، والزواج، وقد روى البخاري، ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﵁: أن النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ».

الاستعاذة بالله من شر البصر

يا من غلبته شهوته، وتسلطت عليه معصيته، وأصبح في بعد عن الرب، وقرب من الذنب كن على يقين أن اللجوء إلى الله أخصر الطرق الموصلة إليه، وأقربها وصولًا بين يديه، وبالتالي تخلصًا من كيد الشيطان الرجيم الذي هوّن الله أمره بقوله: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦]، وإذا كان النبي ﷺ وهو من هو في مرتبة العصمة، وأتقى الخلق على الإطلاق، وأعلمهم برب العباد ومع هذا: كان ﷺ يستعيذ من شر عينه، وشر منييه، فكيف بمن دونه؛ فقد كان ﷺ يتعوذ بالله من شر البصر الذي يؤدي إطلاقه إلى كل شر كما روى البخاري في الأدب المفرد من حديث شكل بن حميد رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاءً أنتفع به قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ عَافِنِي مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَلِسَانِي، وَقَلْبِي، وَشَرِّ مَنِيِّي»، بل في الحديث التجاء إلى الله تعالى بالمعافاة من شر السمع، والبصر، واللسان، والقلب، والمني؛ لأن هذه الحواس خُلقت للطاعة، ومنها يقع الشر الأكبر، والإثم الأعظم، بل هي بريد الزنا كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن النبي ﷺ قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»!.

الاستعاذة بالله من الشيطان

عبادة عظيمة تلك هي الاستعاذة، وعلاج ضروري إسعافي تعد الاستعاذة، وثمرتها مقطوفة سريعة، وخيرها عاجل ونافع، ولهذا نجد ربنا تبارك وتعالى يحثنا عليها، ويندبنا لها: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠]، {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، وانظر كيف أعطانا جل وعلا النموذج الحي من الذين اتقوا، ثم ذكر لنا نتيجة استعاذتهم، وعودتهم لربهم: {فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}، وقال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فصلت: ٣٦]، وعند مسلم قال ﷺ حامدًا الله على ضعف الشيطان: "الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ"، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- فِي قَوْلِهِ تعالى: {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} قَالَ: "الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ"، فيحتاج المجاهد ضرورة إلى زاد يقويه، وهمة تحميه، ونفس حريصة تدفعه للذكر دفعًا، وتصد الشيطان عنه صدًا، ألا فالزم الاستعاذة، وذكر الله تعالى كلما راودك الشيطان، ولعب بعقلك، واستحوذ على تفكيرك!.

هل أصغيت للرسائل الربانية!

قد تصلك رسائل رب العالمين بصيغ مختلفة، وطرق متعددة، وكلها متفقة تقول لك وبكل صراحة: يكفي، قف، حسبك، اترك، دع... فإياك أن تتجاهلها، ولا تعر لها أي اهتمام، وبالتالي يكون العقاب، ويتنزل العذاب، وتبدأ النقمة، وتحل الغمة... ومن تلك الرسائل لو كان الجوال كأن يعلّق، أو ينغلق، أو يرفض الفتح، أو يناديك غيرك، أو تجد رسالة أو كلامًا يدل على موضوعك... كل هذه رسائل ربانية واجبك الانتباه لها، والأخذ بعين الاعتبار بها، وعدم تجاهلها!.

تذكر الحور العين

الجزاء من جنس العمل، وما في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، وأعظم ذلك النساء، فأي مقارنة بين امرأة طينية مهما كان جمالها أمام حورية: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٥٨]، {وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، وفي البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"، والأوصاف كثيرة، والأحاديث طويلة، فكيف يضحي مسلم بهذه لأجل نساء كلهن الدماء، وفيهن القذى، والأذى...، ولهذا قال أحد الصحابة: "اعلمي أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك"، فاتخذ هذه الكلمات شعارك كلما أرادت نفسك المعصية.

تذكّر أسوأ ما في المنظور

لو أخذ الناظر بهذه القاعدة لقصر بصره، وأراح نفسه، وأزال صبابته، وعاش على فطرته وطبيعته؛ إذ أن المنظور تعتريه النواقص من إرادة حمام، وخروج أقذار، وظهور أمراض... فلو تذكّر هذه المساوئ لاستراح، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مناتنها"، يعني: يتذكر رائحة فمها الكريهة، وبولها، وغائطها، وقيئها الذي يملأ فمها، ومخاطها الذي يقذر أنفها، ويتخيل حالها لو أصابها جدري أو جذام، أو أي أمراض...، قال ابن الجوزي -رحمه الله-: ("فإن الآدمي محشو بالأنجاس والأقذار، وإنما يرى العاشق معشوقه في حال الكمال، ولا يصور له الهوى عيبًا؛ لأن الحقائق لا تنكشف إلا مع الاعتدال، وسلطان الهوى حاكم جائر، يغطي المعايب، فيرى العاشقُ القبيحَ من معشوقه حسنًا، وقال الحكماء: عين الهوى عوراء، وبهذا السبب يعرض الإنسان عن زوجته، ويؤثر عليها الأجنبية، وقد تكون الزوجة أحسن؛ والسبب في ذلك أن عيوب الأجنبية لم تَبِنْ له، وقد تكشفها المخالطة، ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشفت له المخالطة ما كان مستورًا ملَّ، وطلب أخرى إلى ما لا نهاية له، ولهذا تجد العاشق يغالي في معشوقه، ويُصوِّر له في قلبه ما يصور؛ لأن عقله شبه غائب، مع أن أقرب الناس للمعشوق، وأعرفهم به لا يرون له ذلك الشأن، بل ربما رأوه أقل من ذلك بكثير، بل ربما لم يروا له فضلاً البتة، فمحبوبك ليس كما في نفسك، فأعمل فكرك في عيوبه تَسْلُ، فاستعمال الفكر في بدن الآدمي، وما يحوي من القذارة، وما تستر الثياب من المستقبح يهون العشق، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا أعجبت أحدكم امرأة

فليذكر مناتنها"، وقال بعض الحكماء: "من وجد ريحًا كريهة من محبوبه سلاه"، وكفى بالفكر في هذا الأمر دفعًا للعشق.

قال أبو نصر بن نباتة:

ما كنت أعرف عيبَ من أحببتُه — حتى سلوت فصرت لا أشتاق
وإذا أفاق الوجد واندمل الهوى — رأت القلوب ولم تر الأحداق

ولقد بلغنا أن رجلًا عشق امرأة فمد يده إليها مع طيش فقالت له: تأمّل أمرك أتدري ما تريد أن تصنع، إنما تريد أن تبول في بالوعة لو شاهدت داخلها لوجدته أنتن من الكنيف، فبرد وسكن ولم يعاود")[1]، وبالتالي فوجب أن تعلم أن الشيطان يزين لك المعشوق وإن كان قبيحًا، ويجمله وإن كان ساقطًا، ويعظّمه وإن كان تافهًا حقيرًا فخذ حذرك، وراجع نفسك، واعرف عدوك، ولا تستلم له مهما كان الأمر... بل عد بالمحبوب لحقيقته، وانظر إليه مجردًا من عشقك الأعمى، وحبك الأصم الأبكم الأشقى!.

---

(١) – انظر متفرقات من كتابه –رحمه الله– "ذم الهوى" حتى (ص: ٦٥٣).

ثم ماذا...!

نعم اسأل نفسك هذا السؤال قبل أن تنظر للحرام، وتستمتع بمشاهدة الآثام: لو نظرت الآن، واستمتعت، وقضيت حاجتي وشهوتي "ثم ماذا بعد ذلك"، والجواب قطعًا: نسيت تلك اللذات بعد لحظات، وبقيت الحسرات، ومكتوبة في صحائف أعمالك هذه السيئات، وتبقى الندامات والحسرات، وتقاسي الزفرات والويلات، وستجر عليك ما تجر من تبعات، فضلًا عن عدم التوفيق في الدنيا والأخرى، وحرمانك من الدرجات العلى، فأي عقلك، وأين تفكيرك، وكيف سقطت في مهاو الذنوب، وانتكست فيما تتحاشاه العقول، ويهلك القلوب...!.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها   من الحرام ويبقى الإثم والعار

غمسة واحدة...

يا أيها العاصي: لا تنسَ ما أعد الله في الجنة من نعيم، وأجر جزيل، وثواب عميم، وذلك خير لك من لحظات منسية، وتوافه غير مرضية، وذنوب منسية عندك، أما عند ربك فغير منسية: {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢]، ووالله لو استمتعت الدهر، ونظرت كل حرام، وطالعت كل ما ينشر من صور وأفلام لنسيته في أول غمسة واحدة تغمسها في النار، بل بمجرد نظرتك لتلك النار الحطام، وفي صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلَاءً كَانَ فِي الدُّنْيَا فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ") وبعض ألفاظه عند ابن ماجه وأحمد، وهذه غمسة واحدة فقط فكيف بـ: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣]، و {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [البقرة: ١٦٢]، {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت: ٢٤]، {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٦]!، فيا أيها العاصي والله لو تمتعت ما تمتعت، وتعمرت ما تعمرت، وتنعمت بما تنعمت فسيأتي يوم من الأيام وتنسى في أول لحظة منه كل حرام، ونعيم، ومتعة، ونعمة، وعمر، ومعصية،

ولذة، ومتعة: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} [الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٧]، {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤].

ألا فمن عرف الغاية هانت عليه الوسيلة، ومن علم عظمة ما يطلب رخص عنده قدر ما يبذل، ولو مكث الدهر مجاهدًا لنفسه وهواه، عازفًا عن دنياه، مقبلًا كل الإقبال على عبادة مولاه لما كان ذلك كله مقابل غمسة واحدة في جنة الله، فالتفكر في الجنة وما فيها، والحور الحسان في دار القرار، والنعيم المقيم عند رب العالمين، ومن تعلقت نفسه بالجنة وأحوالها، والنار وآلامها، هانت عليه متع الدنيا، ويبعث كل ذلك همة لترك الحرام، ويجعله يعزف عن مواقعة الآثام، وقديمًا قيل: ومن يطلب الحسناء لم يغنه المهر.

والله لو قيل لي تأتي بفاحشة ... وأن عقباك دنيانا وما فيها

لقلت لا والذي أخشى عقوبته ... ولا بأضعافها ما كنت آتيها

يأس آخر!

صحيح أن اليأس كبيرة من كبائر الذنوب، ومعصية من أشد المعاصي، وهذا كله بالنسبة لرحمة الله تعالى، لكن ماذا لو يأسّت نفسك من أي نظر، وأقنعتها قناعة تامة من أي عودة، وحجبت عنها كل تفكير ومنفذ للانتكاسة، وأي وسوسة، وذلك بأن يجزم جزمًا ويعقد عزمًا على غض البصر، بحيث تقنط النفس مع هذا الجزم، وتيأس بأن لا تتطلع إلى المحذور مع هذا العزم؛ فإنها حينئذ تذعن للغض، ولو على مضض، وهذا يحتاج إلى نفس حرة كريمة، وعزيمة صادقة أبيه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، وإليك ما في البخاري ومسلم من حديث وما فيه من تيئيس الجيش من عودة، وأمل في النجاة كشرط ضروري لتحقيق النصر، ودخول القدس: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "غَزَا نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعْ سَقْفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا".

ماذا لو...!

أغرتك قوتك، وصحتك، وسلامة عينك، وتمتعك بكامل حواسك، أألهاك عن الله ﷻ ما وهبك، وحرمه غيرك، واستلبه من سواك، أرءيت لو أصبحت في مستشفى ثم أمسيت في آخر، ومن طبيب إلى طبيب، ومن صيدلية إلى أخرى، أتراك ستفكر في الحرام، فماذا دهاك، أترى الله تعالى غير قادر عليك، وتعجزه أنت وأمرك...!.

ماذا لو سلب منك صحتك، بصرك... سمعك...عقلك... أو أي شيء من أعضائك وجوارحك.. ماذا لو كنت على السرير مقعدًا، أو في المستشفيات متعبًا، أو حتى كنت صحيحًا لكن فقيرًا معدمًا، كيف سيكون حالك...!

ماذا لو شغلك بطلب المعيشة، والبحث هنا وهناك عن الرزق والمؤونة، وأصبحت تهم أكلك، وسكنك، ومعيشة أهلك، في النهار تعمل في حر الشمس... وفي المساء تنسى نفسك من شدة الإرهاق: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: ٦].

خوف مقلق أو حب مزعج

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- علاجًا للشهوة من ثلاث طرق رئيسية فقال: (اشتغال القلب بما يصده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق، أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبة ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، و فواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب، لم يجد بدًا من عشق الصور، وشرح هذا أن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلى منه، أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما، وهذا خاصة العقل، ولا يُعد عاقلاً من كان بضد ذلك، بل قد تكون البهائم أحسن حالًا منه.

الثاني: قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك).

ثم قال: (والطريق الثالث -المانع من حصول تعلق القلب-: حفظ الخطرات، وشأنها أصعب؛ فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنىً باطلة {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ

مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩]) [١].

(١) الداء والدواء ط المجمع (١/ ٣٥٤).

قيام الليل

مدرسة عريقة، وجامعة كبيرة تربى عليها الصحابة -رضون الله عليهم-، ونزلت فيها الآيات قبل كل آية فريضة، وزُرع فيها الإيمان بالله تعالى قبل أي زرع، وانغرست فيها المبادئ، وتعظيم رب العالمين قبل كل شيء، فما أعظمه من دواء، وأنفعه وأسرعه من شفاء، بل هو الأجدر لغرس الإيمان، والاجتثاث التام للحرام، ونسيان مراتع الآثام، ولهذا كان الفرض الأول على الصحابة قبل أن تفرض حتى الصلاة وسائر العبادات والطاعات ولعام كامل؛ ففي صحيح مسلم: عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟، فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} [المزمل: ١ - ٤]، قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ اللهَ - عز وجل - افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِمْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ} فَصَارَ قِيَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللَّيْلَ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَتِهِ")، وفي رواية: (فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ فَرِيضَةً)، رواه أبو داود والنسائي وأحمد.

وفوق هذا فهو باب للشفاء كما أخبر المصطفى ﷺ، لكن لا شفاء الجسد وفقط، بل شفاء القلب وهو الأعظم، وأعظم منه أنه يُنهي عن الإثم، ويطرد الشيطان الجاثم على القلب: فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ" رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني، وأصرح منه ما في مسند الإمام أحمد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ: "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"، فمن أراد التخلص من كل حرام وخاصة الإدمان على النظر للحرام وأي إدمان كان فعليه بقيام الليل، وللعلم فما جاء قيام الليل كعلاج أولي إلا لأن السقوط في مستنقع الرذيلة، والبعد عن الفضيلة مرض خطير، وشر مستطير يحتاج لعلاج عاجل، وإسعاف آني، وليست بعلاجات الأطباء، وتأسفات الأصحاء، بل يحتاج لإسعاف رباني، ودواء إلهي فكان قيام الليل، بل المتأمل في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه السابق يجد أن النبي ﷺ جمع بين نهيه عن الإثم، وابتعاد القائم لليل عنه، مع طرد الداء عن الجسد وبالتالي فهو علاج حسي ومعنوي، قلبي وبدني...، هذا وحده فكيف ما لو كان في الثلث الأخير من الليل مع الدعاء وفي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ)، وفي رواية: (إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ)، وفي رواية: (حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ؟،

مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضُّرَّ فَأَكْشِفَهُ عَنْهُ؟، فلَا يَبْقَى مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ -عز وجل- لَهُ، إِلَّا زَانِيَةً تَسْعَى بِفَرْجِهَا، أَوْ عَشَّارًا، ثُمَّ يَبْسُطُ اللَّهُ تبَارَكَ وَتَعَالَى يَدَيْهِ فَيَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ، وَلَا ظَلُومٍ، فلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ"، وبعض ألفاظ عند غيرهما.

الوجاء

إنه العلاج الشرعي، والحل الرباني، والدواء الإسلامي "الزواج" الذي جعله ﷺ وجاء من الحرام، وتوديع باب الآثام، والرضا بما معه من الحلال، وإلا فيجب عليه اللجوء للوجاء البديل الذي هو الصيام؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهنا يجب ترك الحرام بكل وسيلة مناسبة جائزة: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"، والمطلوب البعد عن الحرام إما بالزواج أو بالصيام.

الجماع نفّاع

نعم إنه يطفئ لهيب الشهوة، ويصرف عن المعصية، ويخفف الحرارة التي ينتشر منها العشق، ونيران الشهوات، وإذا ضعفت الحرارة الغريزية حصل الفتور، وبرد القلب فخمد لهب العشق، وفي سنن الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ ﵂ فَقَضَى حَاجَتَهُ وَخَرَجَ، وَقَالَ: "إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِى مَعَهَا").

الزواج بمن تقر بها نفسك

حديثي هنا لذلك الذي ابتُلي بعشق امرأة بعينها، وانساق وراء عشق واحدة دون غيرها، فهذا لا بد أن يجتهد للتزوج منها، وإلا فليختر ما يظنه مسليًا له عن ذلك، دافعًا عنه حب التطلع لغيرها، ومن ذلك الجمال مع الدين، والخلق معهما أيضًا، وقيل فيما يسكن حبه كاختيار بديل لمن كان يحبها، ولم يتوفق من الزواج بها: هو ما يقع بقلبه عند رؤيته، وعلامة ذلك أنه إذا رأى ما يحب تشبث بقلبه، وجمد نظره عليه، فلم يكد يقلع عنه، فهذه علامة أنه دخل في قلبه، وتملك جوارحه، أو كما يقال بالعامية الدارجة: "الحب بأول نظرة".

واجب الزوجين

وأنبه الزوجين إلى أمر مهم، خاصة مع الانفتاح العصري، والبلاء اليومي وهو أن تقصير أحد الزوجين في حق الآخر، وعدم مشاركته في عواطفه، وإشباع غريزته قد يجعل ضعيف الإيمان يبحث عن بديل آخر، ويتوجه للحرام، ويقترب من مصدر النيران، وبالتالي يبدأ الرجل يتطلع إلى من يفرغ عندها عواطفه، وتبدأ المرأة تميل مع كل من يتلطف معها، أو يلين لها الكلام، ثم يتطور الأمر لما هو أكثر، وتتشتت الأسر، وتتفرق المجتمعات، ويضيع الأبناء والبنات، وقبل هذا ذهاب الدين بسبب إهمال هذا التنبيه العظيم.

برامج الحجب

إيهٍ إيه كم هم أولئك الذين سألوني عن برامج للحجب تمنعهم من اقتحام الحرام، وعن تطبيقات تمنعهم من الإدمان، فتكون إجابتي الدائمة: لن تجد حجابًا أعظم من الإيمان، ولن يصرفك عن الحرام غير طاعة الرحمن: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، فمن أحبه الله صرفه عما يكره، وأبعده عما يغضب، وصعّب عليه كل حرام، وحجب عنه الآثام، وقربه منه على الدوام، وصدقت تلك المملوكة التي قالت لسيدها: لو أحبك لأقامك بين يديه، لما نمت في جوف الليل وهو ينادي: "هَلْ مِنْ دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ سَائِلٍ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ"!.

إن عرفت كففت وعففت "فوائد الطاعات"

إن الخطر المحدق وراء التلال، والموت المجهّز وراء الجبال لا بد أن تعد له عدتك، وتحكم عليه سيطرتك، ولو قيل هذا خطر لانتبهت، ولو لم تحذر لغشيته بحسن نية، فمن عرف الخطر اجتنب الزلل، ولهذا نجد ربنا تعالى في كتابه الكريم يحذرنا كثيرًا من النار، والمصير السيء فيها، ويمدح لنا الجنة، والنعيم المقيم بداخلها، وهنا من أهم الزواجر، وأعظم المناهي عن اقتراف الكبائر والصغائر أن تعرف خطرها، وما تجني عليك لو اقترفتها: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠].

قال ابن القيم -رحمه الله- في الفوائد وهو يعدد فوائد الطاعات، وماذا يخسر العاصي لو اقترف المحرمات: (سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك المعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في

قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي أو ظلم، وذَبُّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له، ومصيره إليه، وصِغَرُ الدنيا في قلبه، وكِبَرُ الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، وَوَجْدُ حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تَلَقَّتْه الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق، وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، و: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: ٤])(١).

(١) – الفوائد (ص: ١٥١).

رزقك الممنوع!

بعض الناس قد لا يخاف من النار مثل خوفه من قطع الأرزاق، وإذا علم أن رزقه سيقطع بمعصيته قد يكف عنها، ويجاهد نفسه لتركها، وهذا نبينا ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى يقول كما صح عنه ﷺ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"، رواه ابن ماجه وأحمد، ورزقك إنما هو من ربك -جل وعلا- فحافظ عليه بطاعتك له: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: ١٤٧]، وفي الصحيح: "إِنَّهُ لَا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ"(١)، فطاعة الله تقربك من رزقك، وتقربه منك، بينما معصيته تعيشك في ضنك، وشقاء، وتعاسة، وملاحقة أرزاق ولا تجدها، ولهذا قال تعالى لجميع عباده: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، فمن أطاعه رزقه، ومن عصاه منعه، وفي الأثر: "إياكم والزنا؛ فإن فيه ست خصال: ثلاثًا في الدنيا، وثلاثًا في الآخرة، فأما اللواتي

---

(١) – رواه ابن ماجه وصححه ابن حبان عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا"، وفي رواية: "لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ فَخُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ ").

في الدنيا: فإنه يذهب بالبهاء، ويورث الفقر، وينقص الرزق، وأما اللواتي في الآخرة: فإنه يورث سخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار"، وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: "أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أنا قاتل القتالين ومفقر الزناة".

لا تدري في أي صورة أو مقطع يكون غضب الله!

كما أننا لا ندري في أي طاعة يكون رضا ربنا ﷻ، ورفعة درجاتنا، فكذلك المعاصي لا ندري في أي معصية يكون غضب الله تعالى، وسخطه علينا، ونقمته التي قد نبقى تعساء أشقياء ما بقينا، وفي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ")، وفي رواية: "يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ"، وهي لفظة لسان فكيف بنظر للحرام، واستمرار في العصيان، وابتعاد عن الرحمن!.

احذر فالمقاطع قواطع

إن مقاطع الحرام، والصور التي تحكي تلك الآثام إنما هي قواطع بل وموانع عن الجنان، ومغفرة الرحمن، والوصول لأعلى المنازل في دار المقام، فضلًا عن دنيا تعيسة، وحياة مقيتة، وفي كل شيء من جاه، وسلطة، وأولاد، وأهل، ورزق، فتقطعه عن ذلك كله، وتحرمه ذلك من أصله وفصله.

زكاة نفسك فيه رفعتك

إن النفس عليها مدار الرفعة والاتضاع، والجنة والنار، والعلو والسفول، والوصول للكمال البشري، والانحطاط نحو عالم الحيوانات والقاذورات: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢]، بل قال: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فالنفس البشرية محور الخير والشر ولذا قال ربنا جل وعلا: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، وإذا تغيرت النفس تغيّر كل شيء، وإن قعدت تعقد كل شيء، فالنفس هي الأساس، وعليها مدار الدنيا والآخرة، ولهذا كانت أطول وأكثر آية فيها أقسام في القرآن هي سورة الشمس، وكلها تصل لنتيجة النفس: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس: ١ - ١٠]، فأنت مدعو من الله -عز وجل- أن تغير نفسك، وتقرّب الخير حولك، وتنصرف عن الشر وأهله، وتجاهد نفسك على ذلك، وتبتعد عن كل ما من شأنه يدسي نفسك، ويبعدك عن طاعة ربك، والوصول لجنته، والقرب منه.

ليس الشجاع الذي يحمي مطيته   يوم النزال ونار الحرب تشتعل

لكن فتى غض طرفًا أو ثنى بصرًا عن الحرام فذاك الفارس البطل

واعلم أنه: (إنما تعلو قيمة المرء، وتسمو مكانته، وتزداد عظمته، ويرتفع قدره بقدر نصيبه من شرف النفس، وزكائها، وحميتها، فإذا علمت نفس طاب عنصرها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم إنما هي غاية، وحياة وراء حياتها الطبيعية لم تقف بسعيها عند طمع بوصال، أو أمل بنظرة، بل لا تستفيق جهدها، ولا يطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجدًا يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء، فزكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٢١]، وذكر ذلك سبحانه عَقِيبَ تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكِّي هو باجتناب ذلك، وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} [النور: ٢٨]؛ فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلَّا يَطّلعوا على عورة لم يحبَّ صاحب المنزل أن يُطّلَع عليها، كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردّ البصر وغضّه أزكى لصاحبه: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال تعالى عن موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: ١٨]، وقال تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦، ٧]).

وكن على يقين جازم، وخبر نبوي صادق أن النفس يمكن أن تتغير بإرادتك ومجاهدتك، ويمكن أن تسمو وتبلغ أعلى المقامات بصبرك ومصابرتك وعفتك، ولهذا

قال الله ﷻ مبنيًا أن البداية منك: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣]، {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [مريم: ٧٦]، فالبداية منك ولابد، ثم يأتي ما عند الله بعد ذلك إن رأى فيك الصدق والعزم: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، فلا بد أن تستعف ليعفك الله، وأن تجتنب ليجنبك الله، وأن تبتعد ليبعدك الله، وأن تحاول الهداية وسيهديك الله: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ" رواه البخاري ومسلم.

صبرت عن اللذات حتى تولت   وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة   فلما رأت صبري على الذل ذلت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى   فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت

استحضار النصوص

نصوص كثيرة، وأخبار عديدة، وقصص طويلة تحكي جرم الحرام، وخطر الاقتراب من الآثام فاستحضرها؛ لتعيش من الذنوب في سلام، وتقترب من الطاعة وتكون أنت وإياها في وئام، وإن لم تفعل وتعرف خطر الذنوب اقترفتها دون خوف ووجل، واعتدّت عليها دون شعور بالملل، وبالتالي فارقت ربك، واقتربت من عدوك، وابتعدت عن جنتك، وما أعد لك إلهك ومليكك ﷻ عنده: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٤، ٥٥].

استحضار اطلاع الله وإحاطته بك

ما هو شعورك عندما تقرأ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، وقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، بل قول الله: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٨، ١٠٩]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المجادلة: ٧]، وقبلها قال: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة: ٦]، وغير هذه من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والتهديدات الربانية، والقوارع السماوية: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: ٤٥ - ٤٧]، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، وقال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٧ - ٩٩]!.

المبررات قاتلات

كثيرًا ما يسول الشيطان للعصاة معاصيهم فيهونها عليهم، ويقربهم منها ويقربها إليهم، وفوق ما هم فيه من الشقاء والتعاسة والبلاء أنهم يبررون لأنفسهم، ويجادلون عنها، ويهونون المعصية عليها، ويشجعونها، ويجرئونها، وبالتالي فهم على استعداد بالاستمرار فيها، ومبارزة رب العالمين بها، ولو أنهم قطعوا عليها المبررات، وبغضوا إليها المنكرات، وشددوا عليها من اقتراف المحرمات، وأنه لا عذر لها أبدًا: تابت، وأنابت، وخافت، ووجلت، وكفت، وانزجرت، وانتهت، وارتدعت، واستقامت، وأنابت، وضمن عودتها، واستطاع انقيادها، وأخذها بزمامها!.

الإكثار من نوافل العبادات

باب للمحبة، واجتناب المزلة، وصون الرب لعبده، وقربه منه حق قربه، وسببٌ في حفظ جوارح العبد، وإبعاده عن الذنب، بل وصرف الذنب عنه هي زيادة النوافل بعد الفرائض، والإكثار من المستحبات بعد الواجبات، ثم بعد ذلك يضمن العبد أن لا ينطلق إلا إلى خير، ولا يعرف أي شر وضير، وفي كل شيء من جوارحه سمعًا، وبصرًا، ويدًا، وقدمًا؛ إذ هي باب للإقلاع، وحب رب العباد، وإحلال الرضوان، وإبقاء معية الرحمن مع العبد في كل وقت وآن فَعَنْ عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري.

ذكر الله على كل حال

الذكر ذلك الحصن الحصين، والسور المتين، والحرز القويم، وفي الترمذي وأحمد وصححه الألباني في وصايا يحيى عليه السلام، وما أمره الله تعالى أن يبلغ بني إسرائيل: "وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ"، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- فِي قَوْلِهِ تعالى {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}، قَالَ: "الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ"، فاحترز من الشيطان بذكر الرحمن، واللهج باسمه، وكثرة مناجاته، والانطراح ببابه، وإن لم تفعل تسلط عليك الشيطان، واقترب منك الأعداء، وبت معهم في كل مكان، غير متحكم بنفسك على أية حال: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

القراءة في كتب السلف الصالح

نعمة قليل من يفطن لها، وجنة نادر من يدخلها، وحديقة غناء، واستراحة عصماء هي تلك مدرسة السلف، وسير القوم الذين ضربوا أروع الأمثلة في عبادتهم وطاعاتهم، وجهادهم في ذات الله، ومجاهدتهم لأنفسهم، وانتصارهم على أهوائهم، وقهرهم لشياطينهم، وابتعادهم عن ملذاتهم، وكثرة طاعتهم، وخوفهم من ربهم، وبعدهم التام عن معصيته، وعملهم الدؤوب لنيل جنته، والوصول لرضاه: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه: ٨٤].

مدافعة الخواطر السيئة

الخواطر تهجم وليس لك حيلة في منع هجومها في البداية، إنها تتسلل تسللًا وتأتيك فجأة، وتختلسك اختلاسة، فإذا انساق العبد معها تطورت وصارت الخاطرة فكرة، ثم تتطور الفكرة فتصير همًا وإرادة، ثم تتطور الإرادة فتصير عزيمة، ثم تتطور العزيمة فتصير إقدامًا وفعلاً، ثم يتكرر فعلها فتصير عادة!.

قال ابن القيم -رحمه الله-: (والطريق الثالث -المانع من حصول تعلق القلب-: حفظ الخطرات، وشأنها أصعب؛ فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات، ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير مُنىً باطلة: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور: ٣٩]) (١).

فإن بداية كل معصية، وأوائل كل جريمة، ويسبق كل كبيرة التفكير فيها، والخواطر الشيطانية حولها، والتي تتحول لفعل تلقائي كما قال ابن القيم -رحمه الله-: (حراسة الخواطر وحفظها، والحذر من إهمالها، والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات ثم يسقيها بسقيه حتى

---

(١) الداء والدواء ط المجمع (١/ ٣٥٤).

تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم؛ فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها)(١).

وباختصار: فمبدأ الخير والشر خواطر، ثم ترتقي بعد ذلك في القلب، فإذا دفعها استراح، وإذا لم يدفعها قويت، وصارت وسوسة، وصار دفعها أصعب، فإذا نزل بك هاجس للمعصية، وزيّن لك الشيطان الانتكاسة مرة بعد مرة فلا تترك له فرصة، ولا تستلم له من أول وهلة، وجاهده حق المجاهدة، وغادر المكان، واذكر الرحمن، وانشغل بأي شغل كان، واذهب أيضًا للاغتسال والصلاة، ثم إذا انتصرت وصدقت مع الله يئس منك، وصرفه عنك، وبت بسلام، وأصبحت في أمان: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢ - ٦٤]، {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦].

---

(١) – طريق الهجرتين (ص: ٢٧٤) الناشر: دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

تذكر الموت وما بعده

أهوال وأهوال، وقوارع عظام تلك هي أهوال يوم القيامة، وشدائد يوم الندامة، لا ينسي العاصي معصيته وشهوته، ولا المجرم جرائمه وعظائمه وفقط بل حتى الأم المشفقة، وتلك الحنونة الرحيمة تضع جنينها من هول الكارثة، وشدة المعضلة، وعظمة النازلة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: ١، ٢]، فمن ضمن العلاج، ومن أهم الأدوية تذكر هذه المواقف العصيبة، والحياة الصعيبة: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]، {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} [عبس: ٣٣ - ٤٠].

هادم اللذات

تذكّر أيها العاصي هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومشتت البنين والبنات، وقابض الأرواح دون مقدمات، ومن لا يستأذن أحدًا، ولا يترك سوى خالقه تعالى، فإلى متى الغرور بالبقاء، والعجب بنفس لا تملك قوة ولا حولًا، ومن يضمن لك أن لا يأتيك وأنت في رذيلتك، ولا زلت في غيك، واتباع هواك وشهوتك!.

ثم تخيل نفسك وأنت تعاني النزع، وأهلك يبكون حولك، وملائكة الموت تبدأ بمراسيم أخذ روحك، وتنتزع فؤادك: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} [القيامة: ٢٦ - ٣٥]، {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} [الواقعة: ٨٣ - ٩٥].

والموت يأتي فجأة!

كم رأينا من فيديوهات، وسمعنا من فواجع لأشخاص ماتوا وهم في أوج صحتهم، وأقوى قوتهم، وفي أمتع عافيتهم، بل كثير منهم وهم يعاقرون المعاصي، ولم يسعهم حذف ما بجوالاتهم، أو ترك متابعة أصحاب الفواحش الذين يتابعونهم، ولا الخروج من تلك المجموعات التي فيها تواجدهم، وتركوا حساباتهم وكل من فيها صادقهم، واستدرجهم، وضحك على عقولهم: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]، والكل على يقين لا يقطعه شك أن الموت مصيرهم فاختر لنفسك كيف يكون مصيرك!.

ما ذا لو هجم عليك ملك الموت!

سؤال عظيم، وخطير، وصعب للغاية، لكن الإجابة عليه واجبة، والاستعداد لمصيرك الإجباري الحتمي لازم، فما الذي تود حذفه، والبعد عنه، والتخلي والبراءة منه، فليكن الآن؛ فأنت لا تضمن عودة لأهلك، ولا رفع أصبعك لتحذف ما معك، ولا قرار التوبة لتخرج من وطأتك وورطتك... فهل تحب أن يكون معك في قبرك، وأن تموت وهذه المقاطع والصور على هاتفك، وقد ذكر أحد المشايخ أن شابًا كان مشتركًا بالإيميل في هذه المحرمات التي تأتيه يوميًا بمبلغ دفعه مقدمًا، وشارك أصحابه إياها، ثم مات في حادث سير ولا زالت تصلهم هذه المحرمات، ولا يملكون كلمة السر لإلغاء الاشتراك، وكم هم أولئك التي قصتهم قصته!.

ملك الموت لا يستأذن!

ملك الموت لا يستأذن أحدًا، ولا يمهل إنسانًا، ولا يقدّر وضعًا، ولا يعرف زمانًا ولا مكانًا ولا شخصًا فيأتيك في طريقك، وسوقك، وبيتك، ونومك، ويقظتك، وبين أهلك، ويأخذك من بين أحبابك... وبالتالي فما لا تحب أن يأتيك وهو معك فتخلص منه الآن، وأزله اللحظة، وابتعد عنه الساعة، وتب منه الثانية الثانية؛ فأنت لا تضمن البقاء، ولا تعلم الرحيل متى، وكلنا من الدنيا مسافر، ومحكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ حتى يأتي الأجل، وكرب بيد سواك لا تدري متى يلقاك فاستعد لمثواك، فالتوبة التوبة، والعودة العودة، والخلاص الخلاص...!.

عيادة المرضى

إذا شغلتك نعم الله عليك فزر المستشفيات، واذهب للمصحات، وتفقد المرضى على الأسرة كأنهم الأموات، بل اغمض عينيك لترى نعمة البصر، وقيّد يديك لترى نعمة اليدين، بل أصابعك التي تنقر بهما ما حرم عليك، وتستعين بنعمه على معصيته.

تشييع الجنائز

من سبقك ينذرك، ويصيح فيك بأن في يوم من الأيام: ستحمل كما حملت، وتندم كما ندمت، وتصل لما إليه وصلت، فإلى متى الغفلة، وكم ستبقى في سكرة، وخذ حذرك فلن تنفع الحسرة، ولن يقبل منك طلب العودة: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: ١٠، ١١].

زيارة القبور

وصية نبوية، وقاعدة شرعية، ومعالجة ربانية للجميع وخاصة تلك النفوس الضعيفة، والقلوب المتحجرة القاسية التي خالفت ربها، وعصت مولاها، ولم تستقم بمنهج شرعها، وتعليمات دينها فخاطبها نبينا ﷺ بقوله: "إِنِّي قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ"، وفي رواية: "فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا عِبْرَةً، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا"، والحديث عند مسلم وأصحاب السنن.

السعي لإرضاء الله تعالى

تذكّر أن في الوقت الذي تعصي فيه ربك، وتقترب فيه من عدوك، هناك من يسعى لرضاه، ويفوز بحب مولاه، ويدافع عن دينه، ويكافح عدوك وعدوه، وانتصر على شيطانه، وجاهد هوى نفسه، وطرد الشيطان عنه وخطواته: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [النور: ٢١]، {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]، أفما آن لك أن تسلك سبيلهم، وتنضم لصفهم، وتعود لرشدك، وتجاهد عدوك، وهوى نفسك!.

بين الهزيمة والنصر صبر ساعة

صدقني أنها قاعدة مسلّم بها، وحقيقة يقينية لا ريب فيها، ولا شك في صدقها فإن صبرت على الحرام، وجاهدت نفسك من الولوج لمراتع الآثام، نجوت مما بعده عشرات الأعوام، فإن دخلت، واستسلمت، وأذعنت لن تخرج من ورطتك، وسيطول غيابك، ولن تكفيك الصورة، ولا الفيديو، ولا الساعة، ولا اليوم... فاقطع الحرام عن نفسك الآن تفز مدى الأيام: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥]، { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣].

تأكد: أنك كما تدين تدان

إن مما يردع أصحاب الضمائر الحية، والعقول الواعية، وأصحاب النخوة والحمية، ومن عندهم أدنى غيرة أن خيانة العاصي مع الأجنبيات سيراه في بيته محققًا بخيانة أجنبي في أهله، ولقد حدثني شخصيًا من لا أحصي أن ذلك بعينه حصل لهم في أهاليهم، هذا فضلًا عن قصص التاريخ التي طفحت بها الكتب، ولا داعي لسرد منها هنا، ويكفي أن أذكر لك دليلًا نبويًا كيف حمى ﷺ الشاب من الحرام بأن ذكره بهذا، فعند الإمام أحمد في مسنده: فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ادْنُهْ"، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟، "قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ")..

فليتذكر العصاة ذلك جيدًا، وليكونوا على يقين أن الحرام دَين عما قريب تحل العقوبة بصاحبه، وتنزل المعضلة بساحته، وتحل الكارثة بأهله، ليس بأن يكون الدَّيْنُ

في أهله وذويه فقط، بل يتعدى ذلك إلى انعدام الغيرة على نفسه وذويه وأهله، وتلك والله الخسة في الطباع، والكارثة التي ليس لها علاج، والطامة التي ليس لها صراع.

وعلى العموم فإن قاعدة الجزاء من جنس العمل قاعدة شرعية، وسنة ربانية لا تتخلف، وقد جربها الكل، ويعلمها الجميع وذلك أن يجزي الله العامل من جنس عمله، ومن أعظم ذلك الشهوات المحرمة، والالتذاذ بالصور والمقاطع الآثمة، ولقد حدثني بذلك من لا أعد، واستفتاني من لا أحصي أن يراسل أو ينظر فيبتلى بذلك في أهله، ويرى ذلك عيانًا في بيته، بل تجده يتهم أهله بذلك مباشرة، ويخونهم، ويخاف عليهم، بل صارت قاعدة في مجتمعاتنا المسلمة: لا يتهم أهله بالحرام إلا من هو متلطخ به، يقول الإمام الشافعي -رحمه الله-:

عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ فِي المَحْــرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لا يَلِيقُ بِمُسْلِمِ

إِنَّ الزِّنَا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ

مَنْ يَزْنِ يُزْنَ به وَلَوْ بِجِـدَارِهِ إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيبًا فَافْهَمِ

وهذه قصة واحدة أذكرها حدثت حول هذا المعنى وهي قصة الرجل الساقي مع امرأة الصائغ؛ فقد حكي أن رَجُلًا سَقَّاء بمدينة بخارَى كان يحمل الماء إلى دار صائغ مدة ثلاثين سنة، وكان لذلك الصائغ زوجة صالحة في نهاية الحسن والبهاء، فجاء السقاء يوما على عادته وأخذ بيدها وعرّها - أي مسها بشهوة -، فلما جاء زوجها من السوق قال: ما فعلت اليوم خلاف رضا الله تعالى؟ فقال: ما صنعت شيئًا، فأَلَحَّت عليه، فقال: جاءت امرأة إلى دكاني وكان عندي سوار فوضعته في ساعدها

فأعجبني بياضها فعصرتها، فقالت: الله أكبر هذه حكمة خيانة السقَّاء اليوم، فقال الصائغ: أيتها المرأة إني تبت فاجعليني في حل، فلما كان الغد جاء السقاء وقال: يا صاحبة المنزل اجعليني في حل؛ فإن الشيطان قد أضلَّني، فقالت: امْضِ فإن الخطأ لم يكن إلا من الشيخ الذي في الدكان؛ فإنه لما غيَّر حاله مع الله بمس الأجنبية غيَّر الله حاله معه بمس الأجنبي زوجته.

إن لم تخف من الله فتذكر قبيلتك وشخصيتك

ومن باب الشيء بالشيء يذكر فبعض الناس يقل الوازع الديني عنده، لكن في المقابل يرتفع الوازع القبلي أو الشخصي لديه، فإذا تذكر أنه بالحرام ذلك الذي يغشاه سيفقد مكانته، وتتشوه قبيله، ويصبح العيب ملتصقًا بأسرته، وسيقال ابن فلان فعل وصنع فإنه يرتدع وينزجر ولا يقتحم، فهذا يجب أن يذكّر نفسه بهذا حتى تستقيم، ثم يخلط النية الصالحة شيئًا فشيئًا حتى يكون تركه لربه -عز وجل- فيؤجر عليه بعد ذلك، وهذا من باب قاعدة ما لا يتم ترك الحرام إلا به ففعله وواجب، واستدلالًا بما فعل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من تخويفه المرأة، وتذكيرًا لها بزوجها الذي هو مثوى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣]، وبالحديث السابق ذكره حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والشاب الذي قال لرسول الله ﷺ: "ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا".

الإيدز

وخوف آخر هنا يمكن أن يخوف العاصي به نفسه، ويصدها عن جرمه، ويكفها عن فعله إنه المرض الأخطر، والداء الأعظم، والموت الأحمر، والأشد فتكًا إنه الإيدز (نقص المناعة المكتسب) الذي بدأ بخمسة عشر مريضًا ثم انفجر الرقم ليصل إلى أكثر من ٤٢ مليون مصاب يتوزعون في شتى بقاع الأرض، ومنذ ظهوره حتى اليوم قتل المرض المرعب عشرين مليون إنسان، منهم حوالي ثلاثة ملايين في عام واحد، وما زال مستمرًا، إنه باختصار مرض يتكلم بالملايين فيما البشرية تواجهه باستهتار وعدم مبالاة، بل إن العالم كله يتعمد تجاهله، وخطره، ولا نرى أي تحذيرات بشأنه، بينما نرى دعايات لا تحصى للعهر والفجور، وإعلانات شتى للدعارة والسفور، بل إن وسائل الإعلام الكبرى هي التي تجهز المواد الأولية اللازمة لانتشار الإيدز عبر آلاف المواد المحرضة على الرذائل، وهي التي تقوم بتغليف هذه المواد بأغلفة فاقعة الألوان كالسياحة، والفنون، والمدن الحرة، والحرية الشخصية، ومنع حق الوصية، والتبادل الثقافي، ومسابقات الجمال، وإطلاق الحريات المبيحة للشذوذ، وتعاطي المخدرات، وقبل ذلك وبعده يبرز التجاهل التام لتقاليد الحشمة والعفاف، بل اعتبارها من مخلفات العصور الماضية، ومن التشددات المرفوضة!.

الإخلاص خلاص

بهذا العلاج الكبير تتخلص من أسر الشهوة، ومدافعة هوى النفس والشيطان وجنده؛ فالإخلاص طريقك الآمن لهذا كله كما قال -جل وعلا- عن يوسف الصديق عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف:٢٤]، قال ابن تيمية -رحمه الله-: (فَاَللَّهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنْ الْمَيْلِ إلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ، وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهَا، فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِخْلَاصِ، وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ انْقَهَرَ لَهُ هَوَاهُ بِلَا عِلَاجٍ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت:٤٥]؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ، وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ، وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عِبَادَةٌ لِلَّهِ، وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ وَالْقَلْبُ خَلْقٌ يُحِبُّ الْحَقَّ وَيُرِيدُهُ وَيَطْلُبُهُ، فَلَمَّا عَرَضَتْ لَهُ إرَادَةُ الشَّرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْقَلْبَ كَمَا يُفْسِدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِنْ الدَّغَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩، ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤، ١٥]، وَقَالَ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: {مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} [النور: ٢١] فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ، وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَزْكَى لِلنَّفْسِ، وَبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ

الْفَوَاحِشِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ، وَزَكَاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنْ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ، وَالشِّرْكِ، وَالْكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ) [1].

وقال ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد حين تناول هذه الآية الكريمة: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ } [العنكبوت:٤٥]: (فدلَّ على أن الإخلاص سببٌ لدفع العشق وما يترتَّبُ عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرتُه ونتيجتُه، فصرفُ المسبب صرفٌ لسببه، ولهذا قال بعضُ السَّلَف: العشقُ حركة قلب فارغ، يعني فارغًا مما سوى معشوقه، قال تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ} [القصص: ١١]، أي: فارغًا من كل شيء إلا من موسى عليه السلام؛ لفرطِ محبتها له، وتعلُّقِ قلبها به)[2].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ١٨٥).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٦٨)، مؤسسة الرسالة، بيروت مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

النفس لا تشبع

وهذه النفس لا يشبعها شيء من شهوات الحياة، ومادياتها الزائلة، وفتنها الفانية، بل بالعكس كلما ولجت في شيء لا تقنع به حتى يطمع مرادها لما فوقه، فتبدأ بنظرة، ثم نظرات، ثم في الأسبوع ثم في اليوم، ثم في كل الأوقات، ثم إدمان، وأيضًا صورة عادية، ثم أكثر، ثم صور، ثم فيديوهات، ثم مسلسلات وهكذا يطول به الأمر لمراسلات، وعلاقات، وتنزيلات واشتراكات ولو قطعها من أولها لسلم كل السلامة:

صبرت عن اللذات حتى تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت

فقلت لها يا نفس عيشي كريمةً ... لقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت

فكم غمرةٍ دافعتها بعد غمرةٍ ... تجرّعتها بالصبر حتّى تولّت

ولقد قيل: "إذا شبعت النفس من الشهوات جاعت إلى الخبائث"، وهو كلام عين الصواب، وهذه عادة النفس لا ترضا بشيء، ولا يرضيها أي شيء، وفي الحديث الصحيح بل المتواتر كما قال عنه غير واحد من المحدثين: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى الثَّالِثَ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ".

والنَّفْسُ كَالطِفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَـبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْـفَـطِمِ

ورَاعِـهَا وَهـي فــي الأَعْمَالِ سَائِمـةً وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

كَمْ حَسَّـنَـتْ لَـذَّةً لِلْمَرْءِ قَـاتِـلَـةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِي أَنَّ السُّم في الدَّسَمِ

وأختم هنا بكلام ابن تيمية -رحمه الله- حيث قال: (ثُمَّ النَّظَرُ يُؤَكِّدُ الْمَحَبَّةَ، فَيَكُونُ عَلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ صَبَابَةً لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ غَرَامًا لِلُزُومِهِ لِلْقَلْبِ كَالْغَرِيمِ الْمُلَازِمِ لِغَرِيمِهِ، ثُمَّ عِشْقًا إِلَى أَنْ يَصِيرَ تَتَيُّمًا، وَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ، وَتَيَّمَ اللَّهُ عَبَدَ اللَّهِ، فَيَبْقَى الْقَلْبُ عَبْدًا لِمَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَخًا، بَلْ وَلَا خَادِمًا، وَهَذَا إِنَّمَا يُبْتَلَى بِهِ أَهْلُ الْإِعْرَاضِ عَنْ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤])[١].

(١) – الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٩) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

تذكر مآسي المسلمين

حروب وأشلاء، وقصف ودمار، وخراب وويلات تمر بها الأمة، وتعصف بكل شيء فيها، ويراد لها ما يراد حتى في دينها، وعقيدتها، ومقدساتها وكل شيء فيها، لكن العاصي في شغل شاغل عن ذلك، وفي بعد تام عن هذا؛ فهو مشغول بفرجه، وما تحت سرواله، و:"من كان همه بطنه وفرجه، كانت قيمته ما يخرجه"، كما قال ابن الجوزي -رحمه الله-، فاختر لنفسك إما أن تنشغل بأمور أمتك فتعلو قيمتك، أو بأمور فرجك فتسقط في الحضيض: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، ورحم الله ابن تيمية ما أعظم كلمته: " ولله در الهمم ما أعدلها همة تحوم حول العرش، وهمة تحوم حول الأنتان والحش"، وقل لي ما همتك أقل لك من أنت، فاستيقظ من سباتك، وعد إلى ربك، وفق من غفلتك، وارفع من قيمتك، ولا يكن حظك، وقيمتك، وسقوط همتك، وحياتك كلها كحياة البهائم: طعام، وشراب، وشهوة، ونوم، وليست هذه للمسلمين في الأصل: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢]، أما المؤمن فلا يقع إلا على الطيب، ولا يرى إلا الطيب، ولا تسقط عينه وكل جوارحه إلا عليه، ولا يشغل باله سواه، ثم يكون كذلك له خالصًا يوم القيامة: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٢]...!.

موعظة جوزية

يقول الواعظ البليغ، والإمام الفصيح ابن الجوزي -عليه رحمة الله- في تبصرته: (إخواني: تذكّروا مصير الصور، وتفكروا في نزول بيت المدر، وتلمحوا بعين الفكر في حال الصفا والكدر، واعلموا أنكم في دار البلاء فالحذر الحذر...، إخواني: الدنيا سموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة، كم من نظرة تحلو في العاجلة مرارتها لا تطاق في الآجلة، يا بن آدم قلبك قلب ضعيف، ورأيك في إطلاق الطرف رأي سخيف، يا طفل الهوى متى يؤنس منك رشد عينك مطلقة في الحرام، ولسانك مهمل في الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم نظرة محتقرة زلت بها الأقدام، يا عجبًا للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم، لو تفكروا في حال صفائهم في أكدارهم لما سلكوا طريق اغترارهم ما يكفي في وعظهم وازدجارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، الدنيا دار الآفات والفتن، كم غرت غرًا وما فطن، أرته ظاهرها والظاهر حسن، فلما فتح عين الفكر من الوسن، قال: "رَبِّ ارْجِعُونِ"، ويا ويح المقتولين بسيف اغترارهم، والشرع ينهاهم عن أوزارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [النور: ٣٠]، أين أرباب الهوى والشهوات، ذهبت والله اللذات دون التبعات، وندموا إذ قدموا على ما فات، وتمنوا بعد يبس العود العود وهيهات، فتلمح في الآثار سوء أذكارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، نازلهم الموت على الذنوب فأسروا في قيود الجهل والعيوب، فرحلت لذات خلت عن الأفواه والقلوب، وحزنوا على الفائت ولا حزن يعقوب، حين خرجوا من ديارهم في ثياب إدبارهم، وعصى التوبيخ في أدبارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ

يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، قل للناظرين إلى المشتهى في ديارهم هذا أنموذج من دار قرارهم، فإن استعجل أطفال الهوى فدارهم، وعدهم قرب الرحيل إلى دارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، احذروا نظرة تفسد القلوب، وتجني عليكم الذم والعيوب، تسخط مولاكم عالم الغيوب، لقد وصف الطبيب حمية للمطبوب، فلو استعملوا الحمية لما تتعرض الحمى بأبشارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠]، وفقنا الله وإياكم للهدى، وعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلمنا من شر النفوس؛ فإنها شر العدى، وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه)[١].

---

(١) – التبصرة لابن الجوزي (١/ ١٣٥).

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

أيها المقصّر بغض بصره، والعاصي لربه ﷻ: اعلم علم يقين أن غض البصر أمر واجب، ومن أوجب واجبات زماننا، ومن ضروريات عصرنا؛ لأنه لا يتم الواجب -وهو صيانة الفروج- إلا به فهو واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذه قاعدة شرعية معروفة، ومسألة محتومة، فلا يتلاعبن بك الشيطان بحجج واهية، ويسول لك الحرام بكلمات باطلة، ودعاوى فارغة: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥].

تجنب الخلوة

واجب من الواجبات، وضرورة من الضروريات، ومهمة من المهمات التي لا بد منها لمن أراد التعافي من الحرام، وتجنب الوقوع ثانية في الآثام، والابتعاد بالكلية عن معصية الرحمن هي تجنب الخلوة عند فتح النت عمومًا إن كان لا بد من فتحه وإلا فلا داعي له، ومن لم يجتنب الخلوة وقت فتحه لهذا البلاء فلا بد أن يقع في الخطر، ويصيب الزلل، كمن ولج الماء لا بد أن تبلل ثيابه شاء أم أبى!.

اختر أي المحبتين

إن هذه الشهوات المحرمة تخرج العبد من محبة الله تعالى، وتخرج محبة الله ﷻ من قلب هذا المنغمس في اللذات، والضدان لا يجتمعان: محبة الشهوات، ومحبة الرحمن، فإذا امتلأ القلب من محبة الشهوات فماذا يبقى له نصيب من محبة الرحمن؟ إنه خيار واحد، حدد مصيرك واختر طريقك، وإذا أردت محبة الله ولذة الإيمان فلن تحصل إلا بطرد نصيب الشيطان من قلبك: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب: ٤].

قال ابن القيم في نونيته:

القلب بيت الرب جل جلاله ... حبًا وإخلاصًا مع الإيمان

حب القرآن وحب ألحان الغناء ... في قلب عبد ليس يجتمعان

لا جديد

ما الجديد غير الذي تعرف، فلماذا تلطخ نفسك بالمناظر التي تشتري بها النار، وتنسيك عواقب الجبار، وتغضب عليك الرحمن، وتدخلك النيران، وتحرمك من الجِنان، وتخسر خلال لحظات فيها ربك، ودينك، وجنتك، وقلبك، ونفسك، ودنياك، وآخرتك...: {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٤ - ٩٧].

{مَعَاذَ اللَّهِ}

{مَعَاذَ اللَّه} كلمة قالها يوسف عليه السلام فأعاذه الله، ومنعه، وصرف عنه الكيد الأعظم، والشر الأطم: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]، ويقولها الذين يستظلون بظل العرش في يومٍ لا ظل إلا ظل الرحمن عز وجل: "وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ"، قال الحافظ ابن حجر: (والظاهر أنه يقول ذلك بلسانه؛ إما ليزجرها عن الفاحشة، أو ليعتذر إليها ويقيم الحجة، ويحتمل أن يقولها بقلبه؛ فإن الإيمان بالله والخوف منه صمام الأمان العاصم للعبد من مواقعة الحرام والانسياق وراء الشهوات والملذات، وإنما يصدر ذلك عن شدة خوفٍ من الله تعالى، ومتين تقوى وحياء)(١)، ولا تصدر مثل هذه الكلمة وما كان من جنسها: {مَعَاذَ اللَّه} [يوسف:٢٣]، في ذلك الموطن إلا ممن راقب الله في سره وفي علانية أمره، وخافه في الغيب والشهادة: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ} [ق:٣١-٣٣]، أين خشي الرحمن؟ {بِالْغَيْبِ} [ق:٣٣]، إذا غاب عن الناس فكان الجزاء: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} [ق:٣٣-٣٤]، فالمؤمن إذا تربى على مراقبة الله، ومطالعة أسرار أسمائه وصفاته كالعليم، والسميع، والبصير، والرقيب، والشهيد، والحسيب، والحفيظ، والمحيط، والمهيمن أثمر ذلك خوفًا من الله في السر والعلانية، وانتهاءً عن المعصية، وصدودًا عن الشهوة المحرمة، قال الشعبي رحمه الله في معنى "المهيمن": (المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل

---

(١)- فتح الباري - ابن حجر (٢/ ١٤٥).

شيء علمًا)، وانظر لقوله: {لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} فمن حفظ الله عن مواقعة الحرام، وفَعل الطاعات على الدوام حفظه الله بصرف الحرام عنه، وصرفه عنه، وإن لم يفعل ذلك العاصي المصر على عصيانه، والمواصل لذنوبه فليحذر من بطش ربه، وشديد عذابه، وعظيم انتقامه، وأخذ نِعمه عليه على حين غرة منه؛ فالذي أعطى الحواس قادر على سلبها، والمعاقبة بحرمانه منها: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} [الأنعام:٤٦]!.

تذكر وقوفك وحدك للحساب بين يدي الله

ما أعظمه وأشده من موقف، وأجلها من لحظة يحار أمامها أصحاب العقول، وتنخلع لها القلوب، وتشخص لها الأبصار يوم ينادي منادي الجبار: فلان بن فلان ليقم للحساب بين يدي الله ﷻ، ثم يقيمه أمامه يسائله عن كل لحظة، وكل ثانية، وكل شيء في حياته الفانية: ("مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَوَلَدًا؟، وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ، وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ") رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

النأي بالنفس

كم جرّت الثقة بالنفس إلى ويلات، والعُجب بما لديه من إيمان إلى مدلهمات، وكم بدأ مشوار النار والحرام بمجرد نية حسنة يحسبها فلم يخرج بعدها أبدًا؛ (فالعاقل اللبيب لا يثق بعدوه أبدًا، ولا يلقي نفسه في براثن الفتن، ولا يفرط في الثقة مهما بلغ من العقل، والدين، والعلم، ومن هنا تجده ينأى عن الفتن، ولا يستشرف لها، وهنا إذا تعرضت له أُعِين عليها، وصاحبه اللطف الإلهي، وإنْ هو وثق بنفسه، وسعى إلى حتفه بظلفه وُكِلَ إلى نفسه، وزال عنه اللطف، فهذا يوسف عليه السلام لم يتعرض للفتنة، بل هي التي تعرضت له، ومع ذلك لم يثق بإيمانه، وعلمه، وشرفه المُعْرِق، بل فر من الفتنة، واستعاذ بالله من شرها، واعترف بأنه إن لم يصرف الله عنه كيد النسوة صبا إليهن وكان من الجاهلين: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٣، ٣٤]، ولما كانت هذه هي حالَه صاحَبَهُ اللطف، وأُعِين على الخلاص من ذلك البلاء العظيم، وينأى بنفسه عن الصور الفاضحة، واللقطات المثيرة؛ فإن مَثَلَ النفوسِ -بما جُبِلَتْ عليه من ميل للشهوات، وما أودع فيها من غرائز تميل مع الهوى حيث مال- كمثل البارود، والوقود، وسائر المواد القابلة للاشتعال؛ فإن هذه المواد، وما جرى مجراها متى كانت بعيدة عما يشعل فتيلها، ويذكي أوارها بقيت ساكنة وادعة، لا يخشى خطرها، والعكس، وكذلك النفوس؛ فإنها تظل وادعة ساكنة هادئة فإذا اقتربت مما

يثيرها، ويحرك نوازعها إلى الشرور من مسموع، أو مقروء، أو منظور، أو مشموم - ثارت كوامنها، وهاجت شرورها، وتحرك داؤها، وطغت أهواؤها).

لا تلُم مَنْ عَرَّضْ النفسَ لما ليس يُرضي غيرَه عند المحنْ

لا تُقَـرِّبْ عرفجاً من لهبٍ ومتـى قَـرَّبْتَهُ ثـارتْ دُخنْ

وقال آخر:

لا تُتْبِعِ النفسَ الهوى ودَعِ التعرضَ للفتن

إبلـيسُ حيٌّ لم يمت والعيـنُ بابٌ للفتن

إشغال النفس بالعبادات والانهماك في الدعوة

إن تعطيل القلب عن أوراده، وجفاف مادة حياته، وتعطيل الجوارح من العبادات، وانقطاعها عن ممارسة الطاعات لهو من أعظم أسباب الوقوع في أسر هذه العوائد المحرمات، والسفاسف الملهيات؛ لأن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، ولا تحب الفراغ أبدًا، فإما أن تشغلها بطاعة الرحمن، أو شغلتك بطاعة الشيطان، وملاحقة الحرام، والوقوع في أسر العصيان: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٩]، بل بقدر بعده عن أصدقاء السوء، والحرام وأهل الفحشاء كان قربه من الرب جل وعلا، والعكس بالعكس: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧]، ولذلك كانت نشأة الشاب في طاعة الله مانعة له من الوقوع في مثل تلك السفاسف، كيف لا ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله "وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ"(١).

---

(١) – رواه البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَرَجُلٌ

الصبر على المعصية أكمل

ماذا لو علم العاصي أن ثواب صبره على ترك معصية ربه أعظم من ثواب صبره على ما نزلت به من هموم وغموم وكروب؛ لأنه لا اختيار له فيها بعكس المعصية فهو مالك القرار إما أن يأتيها، أو يجاهد نفسه فينصرف عنها، وفي هذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها ،ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة؛ فإنه كان شابًا وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه، ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه

قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ").

الدواعي كلها صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه)[1].

(١) - مدارج السالكين (٢/ ١٥٦)، وانظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٤).

تأملات علاجية من قصة يوسف عليه السلام

قال الله عن يوسف عليه السلام: {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣]، وهذا فيه درس: أن الإنسان يصرف الفتنة والسوء عن غيره بما يناسب من يخاطبه وينصحه، سواء من يريد أن يؤذيه، أو يرسل له الحرام، أو يدخله معه في علاقات ودردشات، أو كان أي إنسان يعمل الحرام، فقد يكون شخص ضعيف الإيمان، فلا يقتنع بالآيات والأحاديث ولا يستجيب لها قلبه، وبالتالي فالحل معه أن تحدثه عن الأمراض الجنسية، وتخوفه بما يجلب عليه الحرام من النكبات الدنيوية، والحرمان من متعها ورزقها وما يحب فيها، ولهذا يوسف عليه السلام خوفها بزوجها الذي أكرمه وأحسن مثواه!.

ثانيًا: نلاحظ كم هو غاية في الأهمية توفيق الله للعبد، وإعانته له على ترك الحرام، فقد قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤]، فإنه لو لم ير برهان ربه لهمَّ بها، لكن صرفه الله بما أعطاه من آية بينة، وسبب معقول يحجزه عن الحرام، ومن هنا يمكن أن نقول أمرًا في غاية الأهمية وهو: الرسائل الربانية التي يجعلها الله لعبده هي نفسها التي أرسلها ليوسف عليه السلام فانتفع بها، والمطلوب هل العبد ينتفع بهذه الرسائل أم لا ينتفع بها كتعليق هاتفه أو حاسوبه، أو اتصال أحد عليه، أو بطء جهازه أو أي شيء من هذه الرسائل الربانية إليه، فمن انتفع بها فذاك

السعيد حقًا، وقدوته نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن لم ينتفع بها فلا يلومنّ إلا نفسه، وانظر له عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف انتفع بها فصرف الله عنه الحرام فقال: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

ثالثًا: تأمّل كيف أن الله لم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء، بل قال: {لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ}، فالسوء والفحشاء صُرفت عنه، وهذا أبلغ من أن يُصرف عنها هو، أو أن تظهر عليه ثم تكون للنفس حظوظها بل هي بنفسها لم تمر عليه فأي كرامة وتوفيق بعد هذا، وهل يملك عبد لنفسه مثل هذه لولا الكرامات الربانية، فلذلك يحتاج المسلم أمام هذه الشهوات والمغريات إلى لجوء صادق برب العالمين جل وعلا: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]، ولذا كان من دعائه ﷺ: "اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"، هذا وهو رسول الله ﷺ المعان على نفسه من الله جَلَّ جَلَالُهُ ومع هذا كان يدعو الله بذلك، بل قال الله له: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٤]، فكيف بنا نحن ومع هذا نركن على إيماننا، وقلة طاعاتنا، ونغتر بحسناتنا فنسقط في أول معصية، وأقرب منعطف شهوة فالله الله أيها الشاب إياك أعني.

رابعًا: في الآية الكريمة نفسها يحتاج المسلم كضرورة، وشرط لا بد منه لمواجهة مغريات وشهوات العصر هو الإخلاص لله تعالى في أعماله؛ فالمخلص لا يستسلم

للشهوات، ولا تضره الفتن والمغريات، ولهذا قال عن يوسف: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤].

خامسًا: من الآية السابقة أيضًا أن حفظ الله جل جلاله بطاعته سبب لنجاة العبد من معصية ربه، وتولي حفظ الله له: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا} [يوسف: ٢٤]، ودائمًا من حفظ الله بطاعته حفظه الله من معصيته، بل حفظه ﷻ في شأنه كله: "احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ".

سادسًا: من التأملات المهمة في هذه الآيات العظيمة، والقصة الجميلة أن يوسف عليه السلام غيّر مكان المعصية فورًا، ولم يستسلم لها، أو يفكّر، أو يتمهّل، أو يترك لطرف الفتنة فرصة بل فر فرار الخائف من الأسد الضاري: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ} [يوسف: ٢٥]، وهكذا يجب على من تعرضت له الفتنة، أو تعرض لها فلا بد كشرط ضروري للفرار منها، وتجنبها، وعدم التعرض لها، وكذلك هنا يجب مفارقة موطن المعصية، وأسباب عودته إليها، وهجر كل سبب ونسب ووسيلة تعود به إليها، وإلا فحتمًا سيعود خاصة مع ضعف ابن آدم أمام هذه الشهوات والملذات، وتسويل النفس والهوى والشيطان قبل ذلك، ومر حديث الذي قتل مائة نفس وكيف كان الشرط أن يخرج من أرض المعصية إلى أرض الطاعة، بل فوق ذلك يجب البعد عن كل ما من شأن خلطته به أن يؤثر عليه، أو يريبه، أو يجره ولو في المستقبل البعيد للحرام؛ فالذي دعا امرأة العزيز إلى أن تصل إلى هذا الأمر وتدعو

يوسف وتراوده عن نفسه هو كثرة مخالطتها له، ومن هنا يجب أن يحذر الشباب من كثرة مخالطة من قد تكون مخالطته سببًا ومدعاة إلى أن يقع في مثل هذه المعصية أو غيرها.

سابعًا: وتأمّل آخر هو الدعاء، والخروج من الحول والقوة إلى حول الله ﷻ وقوته بحسن دعائه، والتضرع له تعالى أن ينجيه من الحرام، ويجنبه سبل العصيان، ويعيذه من نفسه وهواها والشيطان؛ فقد دعا يوسف عليه السلام ربه فقال: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٣، ٣٤]، والنبي ﷺ دعا للشاب أن يطهر الله قلبه، ويحصّن فرجه فكان ما أراده، فالزم الثلث الأخير من الليل، وتضرع بين يدي الرب الجليل: فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ادْنُهْ"، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ "قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللهِ يَا

رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ" ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ").

ثامنًا: وأيضًا فلا بد للطاعة من ثمن، وجهاد ومجاهدة، ومشقة وتعب، ولهذا قال الله عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [يوسف: ٣٣]، فالتضحية والتحمل في سبيل الطاعة، واجتناب المعصية ضرورة لنيل كرامة الله والجنة: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وليكن على يقين بعد ذلك أن العاقبة له كما كانت ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} [يوسف: ٢١]، وأن الفرج قريب، والاعتراف بفضله غير بعيد: {قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [يوسف: ٥١].

{وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}

سائل نفسك ماذا يؤثر فيك أكثر عبارة: المكان محاط بالكاميرات، أم قول الله: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، فإذا كانت الأولى أهم، وأخوف، وأوقع في قلبك، وأسرع لعملك، وأردع لك فراجع نفسك؛ فقد قال الله: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء: ١٠٨].

فعّل فرض المراقبة

هذا بدوي يدخل محل الذهب فيختلس منه ما شاء، ويتركه أصحاب المحل، ثم يستدعونه بعد ذلك فتكون المفاجأة أن كل شيء مصور، وأنه مدان به، فيصعق حتى أعلن الشهادتين من جديد، وما علم ذلك المسكين أن كاميرات الله عز وجل -من باب التمثيل- أقوى وأدق وأحكم وأبين وأوضح من كاميرات الدنيا كلها: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]، وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]، {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، وقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]، بل قول الله: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء: ١٠٨، ١٠٩]، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } [آل عمران: ٥]،{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام: ٥٩]... والآيات كثيرة، فكيف بالملائكة: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ} [ق: ١٨]، {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢]، {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام: ٦١]، بل بجوارحه: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: ١٩، ٢٢]، وفي سورة يس قال متوعدًا: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥]، وفي سورة النور بين بلفظ الإشهاد مرة أخرى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: ٢٤]، بل فوق ذلك كله الأرض وما فيها ستشهد عليه، ويعرض كل شيء كما يعرض الفيديو عليه وبأدق تصوير، ومن الجهات الست: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ١ - ٨]، وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ، وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ

وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ». فالواجب تشغيل أو تفعيل إعدادات المراقبة من رب العالمين سبحانه وتعالى، ولا يكون سبحانه أهون الناظرين إلينا، فنخاف من الخلق ونترك الملك الحق: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦، ١٧]، ألم تسمع لقول ربك، ونداء خالقك: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٥٠]، وسألك سؤال استغراب وتعجب: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]، بل أين شعارك العظيم، وكلامك الذي ينطق من كتاب الله الكريم: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]!.

وهنا سؤال: أرأيت لو قيل لك: إنك مراقب من قِبَل الحاكم، كيف سيكون حالك، وما هي إجراءاتك لحماية زللك، وكيف سيكون توترك، وتخوفك...، لا شكَّ أنَّك ستحتاط لنفسك، وستبتعد عن كل موطن يكون سببًا في مساءلتك، وستدقق ألفاظك، وتعتني جيدًا بكلماتك، وتنتقي ما تلفظه بلسانك، ولكنَّ الكثيرين تجدهم لا يخفى عليهم أنهم مراقبون ممن يعلم السرَّ وأخفى تبارك وتعالى، ومع هذا تجده لا يلتفت إلى هذه الرَّقابة، وهذه الغفلة هي حال الكثيرين من أولئك الذين لم يستشعروا رقابة الله تعالى، مع أنها مرتبة فوق كل المراتب، ومنزلة فوق كل المنازل، حتى لعظمتها أن الله تعالى بعث لنبيه ﷺ أمين وحيه جبريل عليه السلام؛ لتذكيره بشرف هذه المرتبة، ففي حديث جبريل عليه السلام الطويل، عندما سأل النبي ﷺ عدة مسائل، ومنها: قال: « ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» رواه البخاري ومسلم، قال الحافظ ابن رجب: "يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قُرْبه، وأنه بين يديه كأنَّه يراه،

وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم ... "، وقال: "وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ في الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنَّه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى الله عيانًا في الآخرة"[١].

(١) - جامع العلوم والحكم (ص: ٣٥) دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

الأمراض

كم يروج الفجار للحرام، وينسون ما وراءها من أمراض وأسقام، ويبرزون المعاصي بأبها حلة ويتناسون ما خلفها من أوجاع وآلام، وهي أمراض قاتلة لا تحصى، وأسقام دائمة لا تروى، حتى الموت البطيء، أو العاجل في أيسر الأحوال، ومنها: الهربس، والسيلان، والزهري، والإيدز، وما يسمى بفيروس الحب...!.

العذاب النفسي

وهل تجدون أشد الناس عذابًا بلا عذاب، وأكثرهم ألمًا بلا عقاب، وأحرهم قلبًا بلا هموم وأحزان سوى التوافه اللئام، والمتاهات التي لا تقال، ومع هذا تراه في غم متواصل، وهم دائم، وقلق لا يفك عنه، واضطراب لا يزول عنه، وسبب كل ذلك أنه عذّب نفسه بنفسه بملاحقة المحرمات، والاستغناء بها عن المباحات:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تــــراه باكيًا في كـل حـــين ... مخافة فرقة أو لاشـتياق
فيبكي أن نأوا شـوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا حذر الفراق
فتسـخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاق

القلق والاضطراب النفسي

قلما ترى صاحب هذه المعاصي مرتاح البال، طيب المزاج، ساكن النفس، مطمئن القلب، بل لا تجده إلا غضوبًا، قلقًا، مضطربًا، حزينًا، مهمومًا...، وصدق الله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]، {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨]، { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه: ١٢٤].

فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلا

فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا

معرفة الحكم الشرعي

لا يعقل أن هذا العبد الضعيف المتضعف يعصي من خلقه، ورزقه، وأوجده، وأنشأ له سمعه وبصره وعقله وقلبه وكل خلية فيه بكل إحكام وإتقان...، ولهذا كان الأقرب أن كل معصية فعلها الإنسان فهو جراء جهله بعظمة من عصاه جل وعلا: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧]، بل قال في أصل الإنسان ونشأته: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]، فكله جهل جهل، وليس عليه أثارة من علم أبدًا، ولا حجة له ليعصي ربه بتاتا.

فعل العادة السيئة

من الطبيعي جد طبيعي -وفي أقل الأحوال لربما إن لم يصل للزنا- أن تصل المشاهد المحرمة بصاحبها لفعل العادة السيئة، واستفراغ منيه بعد ساعات طويلة من معاقرة الحرام، والبحث عن الخبائث العظام، ومتع ناظريه فيما يحسب بلقطات الخنى، وكل ذلك يستريح منه بإخراج منيه، وإفراغ شهوته، وليته فعل ذلك بأول لقطة، أو نظرة محرمة، وقبل هذا وذاك بالتفكير فيستفرغ قبل أن يلج، ويأتي بالحرام الأيسر قبل أن يأتي بالحرام الأكبر، والفعل الأجرم.

صيام النوافل

الصيام باب للكف عن الحرام، والتعود على مكابدة الآلام، ونسيان الشهوات والآثام، ولهذا دل النبي ﷺ عليه الشباب كما روى ذلك البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ»، فلا تحرم نفسك منه؛ فهو باب للعلاج، خاصة مع ما صح عنه من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَاعَدَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ بِذَلِكَ الْيَوْمِ سَبْعِينَ خَرِيفًا"، وفي رواية: "مَسِيرَةَ مِائَةِ عَامٍ"، وفي رواية: "جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ").

تغيير المكان {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ}

شرط للنجاة، وباب للخروج من الفتنة، وحماية للنفس من ورطة الحرمة إنه الهروب من مكان المعصية، والنجاة بالنفس من موضع حضر فيه الشيطان وحزبه: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [الأنعام: ٦٨]، بل سوى بين الجالس والفاعل: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠].

ثم كقصة واقعة، وحياة مشاهدة، وحقيقة حاضرة، ونموذج للقدوة يوسف عليه السلام: (وتأمل في جذب المرأة لقميص من خلفه، حتى قدته ـ أي: شقته وقطعته ـ، تحاول شدّه إليها لتنال الشهوة المحرمة، كيف أعمتها الشهوة إلى هذا الحد من الطلب، مع أن فطرة المرأة تأبى مثل هذا لو كانت سوية، ولكن كما قيل: حبك الشيء يُعمي ويُصم، وتمزيق القميص دليل على أنها جذبة شديدة جداً، فقد فقدت المرأة صوابها، وغاب عنها عقلها، بل وحسها، فإن زوجها قد كان بالباب، ولا شك أن دخول عزيز مصر إلى قصره، يكون معه الجلبة المعهودة في دخول العظماء والكبراء إلى قصورهم، ومع ذلك لم تشعر بشيء من مقدمات وصوله؛ لأن الشهوة كانت مسيطرة، فعلى العاقل أن لا يترك نفسه إلى هذا الحد، الذي يزول معه العقل والحس، ويرتكب ما يُخالف الفطرة السوية، والحق أن العشق داء عضال، يوصل إلى هذا الخلل، وعلاجه إنما هو بمنع مقدماته، التي أولها النظر، ثم الخواطر، ثم

الكلام، ثم الخلوة، ثم ما بعد ذلك، فإن منع المقدمات والخواطر أيسر بكثير من منع ما بعدها)، ومنه علاج الغضب الذي أوصى النبي معه بتغيير المكان: فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ"، وفي بعض الروايات يتوضأ، وهذا الأخير مفيد جد مفيد.

لا تثق بشهوتك

انظر لنفسك بعين الضعف، لا بعين الثقة والعصمة عند تصفحك للإنترنت، واتهمها في مجال شهواتها دائمًا، ولا تثق بها وأنت تعلم أحوالها، وقد سبرت أغوارها، وعرفت مكمن الضعف فيها خاصة وابن آدم ضعيف، والشهوات أخاذة: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]!.

هدّف واضبط وقتك قبل الدخول

احذر أن تدخل في مراتع النار، وتلقي بنفسك في خطر يلتهم الصغار والكبار، دون هدف مسبق، وعمل محدد، وخروج مؤقت ومؤكد، وإلا التهمتك السباع الضارية، والهوام القاتلة خاصة إن كنت من أصحاب السوابق والنفوس الضعيفة؛ فالكل سيدعوك إلى باطنه، ويعرض لك أجمل ما عنده، وبالتالي سقطت من جديد، وذُبحت من الوريد إلى الوريد.

وأيضًا ليست المحاربة للنفس وحصرها من جهة الهدف بل والتوقيت أيضًا فاحرص على ضبط وقتك عند تصفحك للإنترنت، ولا تدخل بدون ضبط له؛ كي لا يأخذك ويلتهمك، وتفقد فيه دينك وحياتك، بل بمجرد إنجاز مهمتك التي حددت لها وقتًا معينًا اخرج فورًا ولا تتردد، واجعل المنبه، أو افتحه في أوقات بينية مثلًا بين الأذان والإقامة؛ كي تنطلق للصلاة، بين انتظارك للأكل...، وإن لم تقلع فهي ضغطة واحدة لز الكيبل، أو زر الكهرباء بيدك وكل شيء انتهى.

الثغرات الشيطانية

حاول أن تسد على نفسك الثغرات الشيطانية التي يتسلل منها إلى قلبك الطيب مثل: سأدخل المجموعة من أجل النصيحة والتوجيه، وهداية الشباب، وتوجيههم نحو الصواب، وتحذيرهم من العقاب، وما ينتظرهم من العذاب، ومثل هذه الأوهام والخدع التي يتلاعب بك بسببها الشيطان، ويريدك تصل لحفرته، ثم يرميك في مستنقعه غير آبه بك بل ينساك لهواك، ولا والله لإنقاذك نفسك أعظم من كسبك لغيرك الذي قلما يتم إنقاذ هؤلاء النتنى!.

حفظ الجاه

شهرتك، وكرامتك، وتعظيم الناس لذاتك، وكل شيء تعتز به، وتعول عليه في دنياك سيسقط كل ذلك بما يلقيه الله ﷻ عليهم في قلوبهم عنك، فكيف لو علموا، وما موقفهم منك، وكيف ستواجههم، وماذا سيقولون عنك، هذا الناس فكيف بربك، ومن شق لك سمعك وبرك، وهيأ لك كل شيء في حياتك، كيف ستقابله، وماذا ستقول له ﷻ: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]، فحافظ على كل ذلك!.

وأخيرًا هنا: تذكّر أولئك الذين يدافعون عنك، ويثنون عليك، ويمدحونك، ويقومون لأجلك، وينتصرون لشخصك احذر أن تخيب ظنونهم، وتندّمهم على أفعالهم!.

محبة الخلق

تخيّل أن فلانًا الذي كان يحبك، ويقدرك، ويعظمك، ويبجلك، ويعجب بك وبأفعالك، وكلماتك، وما يصدر عنك عرف أمرك، وكشف فعلك، ووصل إليه حقيقتك كم سيكرهك، ويبتعد عنك، ويحذّر منك، وتسقط من عينيه، وتصبح أبغض الناس إليه فكيف بالله ﷻ، قال أبو الدرداء ﵁: (إن العبد ليخلو بمعصية الله فيلقي الله بغضبه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر)، وقال ﵁: (ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغضَ في قلوب المؤمنين)، وقال سليمان التيمي: (إنَّ الرجل لَيُصيب الذنبَ في السرِّ فيصبح وعليه مذلتُه)، وقال غيره: (إنَّ العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبينَ الله، ثم يجيءُ إلى إخوانه، فيرون أَثَرَ ذلك عليه)، وقال أبو سليمان: (الخاسرُ من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقربُ إليه من حبل الوريد).

ومِنْ أعجب ما رُوي في هذا ما رُوي عن أبي جعفر السائح قال: (كان حبيبٌ أبو محمد تاجرًا يَكْرِي الدراهمَ، فمرَّ ذات يوم، فإذا هو بصبيان يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكِلُ الربا، فنكس رأسه، وقال: يا ربِّ، أفشيت سرِّي إلى الصبيان، فرجع فجمع ماله كُلَّه، وقال: يا ربِّ إنِّي أسيرٌ، وإني قد اشتريتُ نفسي منك بهذا المال فأعتِقْني، فلما أصبح، تصدَّق بالمال كلّه وأخذ في العبادة، ثم مرَّ ذات يوم بأولئك الصبيان، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا فقد جاء حبيبٌ العابد، فبكى وقال: يا ربّ أنتَ تَذُمّ مرَّةً، وتَحْمِدُ مرَّةً، وكله من عندك).

الشهوة في كل إنسان فتعز بهم!

لا تحسب أن غيرك لا شهوة له، ولا هوى معه، ولا يتوق لملذات الحياة ومتعها، إنما هناك فرق بين من جاهدها، وأسرها، ومن فك لها زمامها، ولعبت عليه، ومن انتصر على هواه ونفسه وشيطانه، وغلب عقله على فرجه، ومن سقط في ذنبه: {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ١٠]، واتخذ شعاره قول ربه: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥].

{ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ}

هل تدبرت في الآية الكريمة، والبشارة العظيمة بالتزكية الحميدة من الله ﷻ وفي كل شيء: أزكى لهم في قلوبهم، وعقولهم، وأسماعهم، وأبصارهم، وصحتهم، وعافيتهم، وغناهم، ورفع بلواهم، ومن حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته.

لا تلتفت فتهلك

نعم إن الالتفاتة لمواضع الفتن، والتمتع إليها بالنظر لهي الهلكة الحقة، والمصيبة العظيمة، والمهلكة الكبيرة، ولذلك جاء في قصة جريج العابد كما في البخاري ومسلم: (فَذَكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَوْمًا جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ مِنْهُمْ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا: لَئِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ فَقَالُوا: قَدْ شِئْنَا، فَأَتَتْهُ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَجَاءُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي)، وانظر لكلمة: "فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا"، فالإنسان إذا كان صاحب دين قوي عصمه الله من الفتن، فيستفاد من القصة: ضرورة غض البصر للوقاية من الفتن، وأن الدفع أسهل من الرفع، يعني: إذا دفعتَ عنك المنكر من أوله، فقد قطعت الطريق من أوله، وذلك أسهل من أن تتمادى فيه ثم تريد أن تخرج فلا تستطيع.

العار...!

إذا لم تردع النفس بالتخويف من الله والدار الآخرة، وتذكيرها بالموت وما بعده عمومًا فلا بأس من تخويفها بالدنيا كالفضيحة والعار والقبيلة، وسقوط المنزلة، وحرمان العمل والوظيفة، وإتلاف نفسه، أو ماله، أو ذهاب جاهه، وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه، أو الأمراض والأسقام المترتبة على ذلك، كل هذا في البداية حتى تمرن النفس، وعند الضرورة ثم ليجعل عمله خالصًا لربه ﷻ.

الصلاة الصلاة

علاج قل ما يفطن له الكثير بالرغم يفعلونه لكن بدون شعور، وأيضًا بدون تأدية لها كما ينبغي، إنها الصلاة تلك الصلة بين العبد وربه، والمحافظة عليها التي تعد سر السعادة، وبوصلة الإرادة، مع وجوب أن تكون تامة في شروطها، وأركانها، وهيئاتها، وخشوعها؛ كي تؤدي مهمتها التي حددها ربها لها: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، بل أمر بها كعلاج للصبر عمومًا من الشهوات، والشبهات، وسائر المحرمات: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]، بل بيّن ربنا تعالى أن الناس ما اقتربوا من الشهوات إلا بسبب بعدهم عن الصلاة، ولو أقاموا صلاتهم لما انتكسوا في شهواتهم وملذاتهم: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: ٥٩].

تصورمات محبوبك أو انتهى مطلوبك!

تحتاج لضرورة تصور فقد المحبوب إما بموته، أو مرضه، أو تغيّره، أو بأي طارئ طرأ عليه، فيزول ما أوجب المحن الزائدة على الحد التي خسر بها المحب جاه الدنيا والدين والآخرة: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦، ٢٧]!.

من صبر ظهر وظفر

أيها المبتلى: اعلم أن الابتلاء سبب لظهور جواهر الرجال؛ فربما ابتلي الإنسان بشهوته، وحبه للحرام بنظراته، أو فعله، أو أي شيء من ذلك، فإن صبر ظهر فضله، وكمل سؤدده، ونقل إلى مرتبة أعلى، وربما نال محبة خالقه تلك المحبة التي تملأ قلبه، وتغنيه عن كل محبة فاحذر أن يبتليك فتسقط، ويمتحنك فترسب: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]، {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]، قال أبو طالب المكي: قال مريد لأستاذه: (قد طولعت بشيء من المحبة، قال: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه؟ قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة؛ فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبتليه)، ولا يكون التمكين إلا بعد المحبة فإذا امتحن الإنسان فصبر مكّن له، ألا ترى أن الله تعالى امتحن إبراهيم ثم مكن له، وامتحن أيوب ثم مكن له فقال: {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} [الأنبياء: ٨٤]، وامتحن سليمان ثم آتاه ملكًا، وكذلك يوسف عليه السلام.

انتبه: فاتك القطار!

نعم لقد فات قطار الواصلين، وغادر قطار المحبين العابدين، وسبقك قطار التائبين فماذا أنت صانع، ألا فانظر فيما يفوت عليك التشاغل بالحرام من الفضائل؛ فإن أرباب اليقظة عشقُهم للفضائل من العلوم، والعفة، والصيانة، والكرم وغير ذلك من الخلال المحمودة أكثر من ميلهم إلى شهوات الحس؛ لأن شهوات الحس حظ النفس، وتلك الخلال حظ العقلِ، والنفسُ الناطقة الفاضلة إلى ما يُؤْثر العقلُ أميلُ، وإن جرَّها الطبع إلى الشهوات الحسية، فما هو حظك، وما الذي شغلك، وأي قيمة اخترت لنفسك!.

علاج من خيال الحبيب في القلب لا يزول

قال ابن الجوزي -رحمه الله- بعد إيراده عددًا من الأدوية النافعة لداء العشق ثم قال: (فإن قال قائل: فما تقول فيمن صبر عن حبيبه، وبالغ في استعمال الصبر، غير أن خيال الحبيب في القلب لا يزول، ووسواس النفس به لا ينقطع؟.

فالجواب: أنه إذا كففت جوارحك فقد قطعت موادَّ الماء الجاري، وسينضب ما حصل في الوادي مع الزمان، خصوصًا إذا طلعت عليه شمسُ صيف الخوف، ومرت به سَمُومُ المراقبة لمن يرى الباطن فما أعجل ذهابه، ثم استغث بمن صَبَرْتَ لأجله، وقل: إلهي! فعلتُ ما أطقتُ؛ فاحفظ لي ما لا طاقة لي بحفظه)[١].

(١) – ذم الهوى (ص: ٦٦٦).

وأسفاه...

قال ابن الجوزي -رحمه الله- في صيد الخاطر: (وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمن نالها، فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذي ارتكبه كان اعتراضه على القدر في فوات أغراضه يعيد العذاب جديدًا.

فوا أسفًا لمعاقب لا يحس بعقوبته، وآه من عقاب يتأخر حتى ينسى سببه، أو ليس ابن سيرين يقول: عيّرت رجلًا بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة، وابن الخلال يقول: نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة، فواحسرةً لمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها، فالله الله في تجويد التوبة؛ عساها تكف كف الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات؛ فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر وقد أصلح لك أحوال العلانية، ولا تغتر بستره أيها العاصي؛ فربما يجذب عن عورتك، ولا بحلمه فربما بغت العقاب، وعليك بالقلق واللجوء إليه والتضرع؛ فإن نفع شيء فذاك، وتقوت بالحزن، وتمزز كأس الدمع، واحفر بمعول الأسى قليب قلب الهوى لعلك تنبط من الماء ما يغسل جرم جرمك)(١).

(١) – صيد الخاطر (ص: ٦٣، بترقيم الشاملة آليا).

خوف نفسك من رفع ستره عنك!

ثق أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله يجازي العبد في الدنيا قبل الآخرة، وبقدر إجلالك لله عز وجل يجلك، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم قدرك، وترتفع حرمتك: {وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ} [الحج: ١٨]، (ولقد رأيت والله من أنفق عمره في العلم إلى أن كبرت سنه، ثم تعدى الحدود فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته، ولقد رأيت من كان يراقب الله عز وجل في صبوته - مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم - فعظم الله قدره في القلوب حتى علقته النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير، ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام فإذا زاغ مال عنه اللطف، ولولا عموم الستر وشمول رحمة الكريم لافتضح هؤلاء المذكورون، غير أنه في الأغلب أو تلطف في العقاب كما قيل:

ومن كان في سخطه محسنًا   فكيف يكون إذا ما رضي

غير أن العدل لا يحابي، وحاكم الجزاء لا يجوز، وما يضيع عند الأمين شيء)[١]، قال بلال بن سعد قال: "لا تنظر في صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت"، وقال الفضل: "بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عنده".

---

(١) – صيد الخاطر (ص: ٦٤، بترقيم الشاملة آليا).

لا تركن إلى توبتك

(أيها المذنب: إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج، ولا تقولن قد تبت وندمت، فهلا زال عني من الجزاء ما أكره، فلعل توبتك ما تحققت، وإن للمجازاة زمانًا يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضي أوانه)[1]، فاحذر أن ينفخ الشيطان في منخريك فيحبط عملك: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٦٣، ٢٦٤].

---

(١) – صيد الخاطر (ص: ٦٤، بترقيم الشاملة آليا).

أجوبة لا تضرك معصية بعدها!

أجوبة صارمة قالها إبراهيم بن أدهم لذلك الرجل الذي أتاه مذنبًا مصرًا لا يستطيع الانفكاك عن ذنبه، ويريد من إمام كإبراهيم بن أدهم أن يبحث له عن رخصة يترخص بها فقال: (خمسة أشياء إذا فعلتها لا تضرك معصية، قال: وما هي؟، قال: إن أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال له: وأين أسكن إذن؟، قال له: تسكن أرضه وتعصيه؟!، قال: هاتِ الثانية، قال له: إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: وماذا آكل إذن؟، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه؟، قال له: هاتِ الثالثة، قال: إن أردت أن تعصيه فابحث عن مكانٍ لا يراك فيه، قال له: وكيف وهو مع الخلق كلهم؟، قال له: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه وهو يراك؟، قال له هاتِ الرابعة، قال له: إن جاءك مَلَك الموت فلا تذهب معه، قال له: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، ولا تستطيع أن تتفلت من مَلَك الموت؟، قال له: هات الخامسة، قال له: إن جاءك الزبانية إلى النار فلا تذهب معهم).

فجسدك بما حوى أمانةٌ بين يديك، عليك أن تعتني به؛ كي تكون إعانة الله لك على طاعته، وترك معصيته، وكي تصل به إلى دار السلام بسلام، وإن من أعظم نعم الله عز وجل التي امتن بها على عباده نعمة البصر: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨]، فالبصر نعمة عظيمة، وأداة خير جليلة إذا استعملت في رضاه قادته للنجاة، وقد يكون البصر أداة شر على صاحبه إذا استعمله فيما لا يرضي الله،

وذلك بالنظر إلى المحرمات، والنظر إلى العورات، والنظر إلى فضول زينة الحياة كما قال تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه: ١٣١]، بل إذا كان جل وعلا أمر بغض البص عن فضول الحلال فكيف بصريح الحرام، وما يستحي من النظر إليه حتى الشيطان، لذا أمر الله المؤمنين بغض أبصارهم كما في قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النور: ٣٠، ٣١].

في عيادة ابن الجوزي!

حري بنا أن نستضيف الطبيب البارع ابن الجوزي -رحمه الله- ليعطينا إرشاداته حول كيفية الخلاص لمن وقع في بحر الحرام فقال: (فإن قال قائل: فكيف يتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في ترك مالا يؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونهما سبعة أشياء:

أحدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هُيئ للنظر في العواقب، والعمل للآجل، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال عن فكر وهم، ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها؛ لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا ينال ما تناله؛ لقوة الفكر الشاغل، والهم الواغل، وضعف الآلة المستعملة، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بخس حظ الآدمي الشريف منه، وزيد حظ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل، وبخس حظه من الهوى ما يكفي في فضل هذا وذم ذلك.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى؛ فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه، وقبح ذكر مع إثم، غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقرب الأشياء شبهًا به من في المدبغة؛ فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة؛ فإنه يراه يربو على الهوى أضعافًا، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأفضل الناس من لم يرتكب سببًا   حتى يميز ما تجنى عواقبه

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره؛ فإنه سيرى ما يعمل به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات؛ فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء، وإنما عين الهوى عمياء، وفي الحديث(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا أعجبت أحدكم امرأة فليتذكر مناتنها".

والسادس: أن يتدبّر عز الغلبة، وذل القهر؛ فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة عز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض، والأجر في الآخرة، ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأبد، وليفرض لهاتين الحالتين حالتي آدم ويوسف عليهما السلام في لقمة هذا، وصبر هذا، ويا أيها الأخ النصوح: أحضر لي قلبك عند هذه الكلمات، وقل لي بالله عليك: أين لذة آدم عليه السلام التي قضاها من همة يوسف عليه السلام التي ما أمضاها، من كان يكون يوسف عليه السلام لو نال تلك اللذة، فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت)(٢).

(١) – موقوف عليه رضي الله عنه، ولا يصح رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) – ذم الهوى (ص: ١٤).

الحرب على الهوى

نقل ابن الجوزي -رحمه الله- كلمات عظيمة لعلماء الأمة وسلفها الصالح في محاربتهم لفتنة الهوى، وتجنبهم لشهوات النفس والغوى، حري بنا أن نسوقها هنا فقال: (قال سليمان بن داود عليه السلام: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده، وقال معاوية رضي الله عنه: "المروءة ترك اللذة، وعصيان الهوى"، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله فيومه يوم صالح"، وقال مالك بن دينار: "من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله"، وقال: "بئس العبد عبد همه هواه وبطنه"، وعن صفوان بن سليم قال: "ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه، ودينه هواه"، وعن الأصمعي قال: "مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ فقال: زجرني الطبيب، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أُمر لا يأتمر، فقلت: أما تشتهي شيئًا؟ فقال: أشتهي ولكن أحتمي؛ لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا"، وكان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني   فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت: له دع أحدهما تنل الآخر، وعن أبي سليمان الداراني في قول الله عز وجل: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]، قال: صبروا عن الشهوات:

وكل امرئ يدري مواقع رشده   ولكنه أعمى أسير هــواه

يشـيـر عليه الناصحون بجهدهـم   فيأبي قبول النصح وهو يــراه

هوى نفسه يعميه عن قصد رشده   ويبصر عن فهم عيوب سواه(١).

وذكر قصة عظيمة، وحادثة جليلة، ومحاربة لهوى النفس قل أن تجدها في غير صاحب القصة فقال -رحمه الله-: (كانت لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز – رحمها الله- جارية ذات جمال فائق، وكان عمر معجبًا بها قبل أن تفضي إليه الخلافة، فطلبها منها وحرص، فأبت دفعها إليه، وغارت من ذلك، فلم تزل في نفس عمر، فلما استُخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت، ثم جليت فكانت حديثًا في حسنها وجمالها، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر، فقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت بفلانة جاريتي معجبًا، وسألتنيها فأبيت ذلك عليك، وإن نفسي قد طابت لك بها اليوم فدونكها، فلما قالت ذلك استبانت الفرح في وجهه، ثم قال ابعثي بها إلي ففعلت، فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجبًا فقال: لها الق ثوبك، فلما همت أن تفعل قال: على رسلك اقعدي أخبريني لمن كنت، ومن أين أنت لفاطمة، قالت: كان الحجاج بن يوسف أغرم عاملًا كان له من أهل الكوفة مالًا، وكنت في رقيق ذلك العامل، فاستصفاني عنه مع رقيق له وأموال، فبعث بي إلى عبد الملك بن مروان وأنا يومئذ صبية، فوهبني عبد الملك لابنته فاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك، قال: وما ترك ولدًا؟، قالت: بلى، قال: وما حالهم؟، قالت: سيئة، قال: شدي عليك ثوبك، ثم كتب إلى

(١) – ذم الهوى (ص: ٢١).

عبد الحميد عامله أن سرح لي فلان بن فلان على البريد، فلما قدم قال له: ارفع إلي جميع ما أغرم الحجاج أباك فلم يرفع إليه شيئًا إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه، فلما أخذ بيدها قال: إياك وإياها؛ فإنك حديث السن، ولعل أباك أن يكون قد وطئها، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين هي لك، قال: لا حاجة لي فيها، قال: فابتعها مني، قال: لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى، فمضى الفتى بها، فقالت الجارية: فأين موجدتك بي يا أمير المؤمنين، فقال: إنها لعلى حالها، ولقد ازدادت، فلم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات)[1].

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٥٥).

ضرورة الابتعاد عن مصادر الحرام

حقيقة ثابتة، وقاعدة راسخة أن القرب من المعصية معناه البعد عن الله ﷻ، والواجب هو الإعراض بالكلية عن الحرام وأهله ومواطنه وأماكن تواجده حتى يعود لرشده، وترجع إليه فطرته، ومن لم يفعل فلا يأمن الشفاء، ولا ينتظر نفع الدواء وفي هذا يقول ابن الجوزي: (وفي الناس من توجب له الرؤية نوع محبة، فيعرض عن المحبوب فيزول ذلك، فإن داوم النظر نمت كالجنة إذا زرعت؛ فإنها إن أهملت يبست وإن سقيت نمت)[١]، وقال في موضع آخر: (المحبة كشجرة، والنظرات كماء يجري إليها، فكلما سقاها عتت، وعست، وإنما دخلت هذه الآفات من باب إطلاق البصر فيما حظره الشرع، فبذلك تمكن سلطان الهوى من القلب، فبث جند الفساد في رستاق البدن، وكم قد تمكن هذا المرض من شخص فلم يؤثر فيه عذل عاذل، وضرب ضارب وأنت تعلم أنه إذا انقطعت مياه الوادي نسفته الرياح، وأنشفته فعاد كأن لم يكن، ودوام البعد عن المحبوب يعمل في محو ما نقش في القلب، فيمحو اليسير منه بعد اليسير، من حيث لا يعلم، كما أن مرور الزمان يمحو أثر المصيبة من القلب، فإذا عرفت غرور الشيطان في زعمه أن القرب دواء، وأن النظر شفاء بما أوضحت لك من أن قوله محال، وأنه أمر تزيد به الحال مع ارتكاب المحظور الذي لا طاقة بعذابه، ولا قوة على عقابه، علمت حينئذ أنه لا علاج إلا بالهجر، وحسم الطبع من غير تردد، ومن المعالجات السفر؛ فإنه بالسفر يتحقق البعد عن المحبوب، وكل بعيد عن البدن يؤثر بعده في القلب، فليصبر على مضض

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٣٠٢).

الشوق في بداية السفر صبر المصاب في بداية مصيبته، ثم إن مر الأيام يهون الأمر، قال زهير بن الحباب الكلبي:

إذا ما شئت أن تسلو حبيبا فأكثر دونه عدد الليالي

فما سلى حبيبك غير نأي ولا أبلى جديدك كابتذال)[1].

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٥٨٨).

قاتل قلبه

ما أروع ذاك الشعر الذي اختصر القضية، وجلّى المسألة أيما تجليه؛ إذ صوّر أن النظرة كالرمية إن لم تقتل المرمي جرحته، وإن حيي عاش معوقًا، ثم مات بعد ذلك بسبب جرحه مقتولًا، أو يموت في الحال ولا يحيا أبدًا، أو كالشررة تدخل على العشب اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت أغلبه:

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ	وَمُعْظَمُ النَّارِ مِن مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
وَالعَيْنُ أَصْلُ عِنَاهَا فِتْنَةُ النَّظَــرِ	وَالقَلْـبُ كُـلُّ أَذاهُ الـشُّـغْـلُ بِالـفِكَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ نَقَشَتْ في القَلْبِ صُورَةَ	من رَاحَ الفُؤَادُ بِهَا في الأَسْرِ وَالحَـذَرِ
وَالمَــــرْءُ مَـــا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا	في أَعْيُنِ العِيْن مَوقُوفٌ على الخَـطَرِ
يَسُــرُّ مُقْلَـتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ	لا مَــرْحَبًا بِسَرُورٍ جَاءَ بِالـضَّــرَرِ
فَالقَلْبُ يَحْسُدُ نُورَ العَيْنِ إِذَ نَظَرَتْ	وَالعَيْنُ تَحْــسُدُهُ حَـقًا عَلَى الفِـكَرِ
يَقُولُ قَلْبِي لِعَيْنِي كُلَّمَا نَظَرَتْ	كَمْ تَـنْظُـرِينَ رَمَـاكِ اللهُ بِالـسَّـــهَرِ
فَـالعَـيْن تُــورِثُهُ هَـمًا فَـتُشْغِلُهُ	وَالقَـلْبُ بالدَّمْعِ يَنْهَاهَا عـنِ النَّــظَرِ
هَذَانِ خَصْمَانِ لا أَرْضَى بِحُكْمِهِمَا	فَاحْكُـمْ فَدَيْتُكَ بَيْنَ القَلْبِ وَالبَـصَرِ

خطوات عملية مختصرة لترك إدمان الإباحية

كثير هم أولئك الذين سقطوا في أوحال الحرام، واستمرأوا المعاصي مع الأيام، وأدمنوا عليها مع ضررها على الإنسان، وجريمتها في الإسلام فكان لابد من بعض الأدوية العملية السريعة مع أن ما سبق إنما هو من هذا الباب، وهو الغرض الأكبر من تأليف الكتاب، بل بعض ما هنا موجود فيما تقدم غير أننا اختصرنا هنا:

لا تفتحه خاليا

من الواجبات الضرورية، والمعالجات الإسعافية المهمة لمن أراد هذه العادة السيئة أن لا يفتح النت في مكان خال أبدًا، بل دع غيرك بجوارك، أو افتحه في مكان يراك كل من حولك.

حدد هدفًا عند فتحك

لا بد من تحديد هدفك من دخول النت، ومعرفة المهام التي تريد إنجازاها بدخولك، وإن لم تفعل ضعت، وتهت، وسُلبت، وستخرج بلا فائدة، ويقودك غيرك فلابد من التخطيط قبل التنفيذ، وفوق هذا فلا تفكر في أي شيء غير الانتهاء من هدفك، واقطع تفكيرك عن أي وساوس أخرى غير تحقيق هدفك، والخروج بعده فورا.

افرغ منيك مباشرة

إذا رأيت نفسك ستقع في النظر حتمًا، ولا خيار لك أبدًا، ولا مجال سوى حرام النظر أو حرام إفراغ المني لتهدأ النفس فلا تتردد في الثاني مباشرة؛ لأنه مفسدة صغرى، وحرام أدنى من النظر، ولا ريب أنك ستنظر لعشرات ومئات المحرمات لتخرج بإفراغ الشهوة فلهذا افرغها الآن.

الهروب من مكان حضر الشيطان

إذا رأيت نفسك قد أشرفت على المعصية، وتزينت لها صور الفتنة المحرمة فلا يحل لك البقاء في ذلك الموضع بل غيّره فورًا، واهرب منه سريعًا؛ فقد حضر الشيطان فيه، وإذا كان كذلك فلن تستطيع الفكاك عنه إلا بعد الوقوع في فخه، ولهذا يوسف عليه السلام هرب من المكان، واستبق قبلها الباب فرارًا من مجلس حضر فيه الشيطان: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ} [يوسف: ٢٥]، وقال تعالى في كتابه بكل صراحة: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]، وقال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء: ١٤٠].

لا تثق بنفسك

نفسك ستكون ضعيفة أمام هذه الفتنة الكبيرة، والمعضلة العظيمة، والتي هي أشبه بامرأة العزيز ليوسف عليه السلام: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣]، فلا تقل: أنا واثق من نفسي، وليس بمعقول أن أسقط ثانية، وشبعت، وكرهت، ولم يعد في قلبي أي حب... ولهذا اتخذ احتياطاتك كلها، واتهم نفسك دائمًا في هذا.

حارب المبررات

سيأتيك الشيطان يحدثك عن فتن الدنيا، وصعوبة اجتناب النساء، وضرورة النت وما فيه من بلوى، وأن الله غفور رحيم، ويتوب على عباده... ومن هذه الوساوس الشيطانية، والإيحاءات الإبليسية، والتفاكير الجهنمية فحاربها، ولا تستمع لها، وثق أنها من الشيطان لا من الرحمن، أما الله تعالى فلن يشجعك على معصيته، ولن يبرر لك مخالفته.

جنب نفسك الوساوس الشيطانية

لا أخطر من الإدمان، ولا مصيبة أعظم من استعباد الحرام لك، فلا يأتيك الشيطان بأن هناك ضرورة لفعله خوفًا من الوقوع في الزنا؛ فالزنا أبعد إليك من المشرق للمغرب إنما الشيطان يهول الأمر، ويعظم الخطب ليوقعك في الفخ على أن النظر نفسه بريد الزنا فكيف تتداوى بالداء نفسه.

ادفع الخواطر

إن كل ذنب يبدأ بخاطرة تمر فادفعها عن نفسك فورًا، واصرفها عن تفكيرك، وانشغل عنها بأي شاغل يمنع ورودها عليك، واستمرار هجومها، وإن أصغيت لها فستقع في الحرام حتمًا.

تجنب المذكرات

كلما يذكرك بالحرام، أو يسهل عودتك للآثام فيجب عليك أن تتجنبه الآن قبل الحديث عن أي توبة، أو تفكير بأي عودة؛ إذ هذه كلها ستجذبك نحوها جذبًا، ويزينها الشيطان في عينيك تزيينًا، فلا بد أولًا من حذف كل شيء يذكرك بالمعصية ويعيدك إليها حتى تتمكن من الإقلاع للأبد.

سل نفسك

نعم ذكّرها بهذه الأسئلة السريعة، والعظيمة، والتي تعد خلاصة لعناوين كثيرة جدًا سبق أغلبها:

١-لو عملت الحرام الآن ثم ماذا بعده، إنما هي لحظات ثم نسيت الحرام وبقي مسجّل في صحائف الأعمال ؟!.

٢-هل سأشبع منه لو عملته الآن، ثم سأكف عنه مدى الأيام، أم أن هذا سيشعل النار في قلبي، ويزيدني جحيمًا واستمرارا ؟!.

٣- لماذا أخاف من أهل المرأة إن رأوني أنظر إليها، ولا أخاف من الله جل وعلا وهو ينظر إلي، ولا يغيب عن بصره شيء؟!.

٤- كيف أحكم مكاني، وأختبئ عن نظر الخلق وأنسى الله جل في علاه؟!.

٥- ماذا لو اطلع علي أهلي، ومن يثق في، ويحبني، ومن لا يرضيه عملي؟!.

٦- هل تذكرت نعمه تعالى علي، وماذا لو أخذها مني اللحظة؟!.

٧- لماذا لا أقرر ترك النظر الآن قبل أن أستمر حياتي كلها في معاقرته، بل أقطعه في بداياته؟!.

٨- هل أنا مستعد للموت اللحظة لو نزل علي، وما الذي أحب أتخلى عنه لو فاجأني؟!.

٩- ما هي الفائدة التي سأجنيها بمعصيتي في دنياي، أو ديني، أو آخرتي؟!.

١٠- هل تذكرت مآسي المسلمين وما يجري عليهم في هذه اللحظة من مصائب، وقتل، وأمراض، ومستشفيات، وفقر، وأنين... ومن سُلبت منه النعم الموجودة لدي بينما أنا مشغول بفرجي، وإبعاده مني بمعصيتي؟!.

١١- ماذا استفدت أنا من النت، وما الذي استفاده غيري منه، وما الذي أنشغل به، وما الذي يُشغل غيري، وهل عملي فيه يرضي ربي، وسيدخلني الجنة أم النار؟!.

١٢- من الذي يدفعني لهذا الحرام غير أعدائي: الشيطان، ونفسي، والهوى، وغير المسلمين الذين يريدون أن أكون معهم في جرمهم، وشهواتهم، وأنا أكون مثلهم؟!.

١٣- هل أحب هذا الحرام لولدي وأهلي، ماذا لو وجدت ولدي يشاهد، أو زوجتي، كيف سأغضب، وأتصرف، وأغار... فلماذا لا أهتم بنفسي، وكيف يغار ربي علي ولا أبالي؟!.

١٤- هل أستطيع أضع يدي في النار للحظات، فكيف بنار جهنم وخالدين فيها أبد؟!.

١٥- ماذا لو يؤآخذني الله تعالى، ويغضب عليّ كيف ستتحطم حياتي بكلها، وماذا سيأخذ مني، وكيف سيكون انتقامه من ضعيف مثلي؟!.

١٦- أليس الله مطلع عليّ، ويراني، ويعلم حالي، فكيف أجعله أهون الناظرين إليّ، ولا أبالي باطلاعه عليّ؟!.

١٧- ألا فكرت أن لو انتصرت على نفسي سأكسب ما كسبه يوسف عليه السلام، وإن نظرت سيكون مصيري أشبه بمصير آدم عليه السلام فهلا اعتبرت، وانزجرت، وخفت؟!.

١٨- ما الذي سأنظر إليه غير الذي أعرفه فلماذا أوصل نفسي للنار، وأغضب الجبار على ما هو معلوم عندي قبل الآن؟.

١٩- هل تذكّرت جزاء الصابرين، وما أعد الله لهم من نعيم لا حد له ولا حصر؟!.

٢٠- هل هذا العمل من الجنة وسيدخلني إياها، ومن صفات أهلها، أم من النار، ومن أفعال أهلها؟!.

الزم الرفقة الصالحة

الزم الرفقة بعد توبتك مباشرة، واكثر من معاشرتهم لينسوك الحرام وأهله، وداوم معهم حتى تتأقلم على الحلال البين، وتذكّر أن الله تعالى أمر رسوله بقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]، وهو رسول الله فكيف بي وبك!.

هجر النت

إذا لم يكن من حل للعلاج سوى الابتعاد من النت فهو واجب؛ إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو حل مهم، ولا بد منه في كثير من الأحيان وإلا فهو كالممنوع من لمس الماء وهو وسطه!.

الاستعاذة

والاستعاذة من مفاتيح العلاج، وصرف الشيطان، ووساوسه: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١]، {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: ٣٦]، وكذا الزم الاستعاذة من شر بصرك، وتفكيرك، وفرجك، وهوى نفسك؛ إذ الاستعاذة لجوء إلى الله تعالى.

ذكر الله

اكثر من ذكر الله؛ كي يطمئن قلبك، وينصرف شيطانك، ويقترب حفظتك من الملائكة الكرام: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: ١٩]، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

اقرأ ثم اقرأ ثم أقرأ

نعم القراءة مادة مهمة، وغذاء عظيم فاقرأ كثيرًا عن خطر الوقوع في الحرام، وكارثته، وجرمه، وماذا سيجني عليك في الدنيا والآخرة، وماذا ستكسب لو حاربت نفسك، وانتصرت على هواك وشيطانك، وأيضًا اطلع على فيديوهات ودراسات حول خطورته على العقل، والقلب، والصحة بشكل عام.

هو حل وهمي وفتح لباب نار مشتعلة

اقنع نفسك أن النظر وملحقاته ان فيه دمارك، وإنهاء مستقبلك، وإعاقتك عن طموحاتك، وما تريد أن تصله إليه في غدك، واقنعها أن النظر لا شهوة فيه إنما هو مجرد وهم وقتي ينتهي بعج لحظات من انتهائه ثم الحسرة والندامة والسقوط من عين رب العالمين جلا جلاله.

إشغال النفس بالفكر فيما يعنيك ويفيدك

النفس مجبولة على العمل، وتكره الفراغ، بل إن فرغت أخذها الشيطان، وحبب إليها الحرام، وأوقعها في الآثام فلهذا لابد أن تشغل نفسك بما ينفعك، وانظر لغيرك من الشباب الذين يستفيدون من النت وأنت سقطت في مستنقع الرذيلة، والأودية الحقيرة.

السعي الحثيث إلى الزواج الشرعي

يجب لمن كان معرضًا للشهوات، ومتلطخًا بالمحرمات، ويخشى على نفسه الوقوع في معاصي الخلوات أن يسعى جاهدًا أكثر من غيره للزواج، وإعفاف النفس بالحلال دون أي تأخير، أو تشرط، وحتى يتسنى ذلك لك فعليك بالصيام؛ فإنه وجاء كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام.

الزم الدعاء

لن يكون بلاؤك أعظم من بلاء يوسفعليه السلام، ولا مصيبتك كمصيبته، ولا ما تهيأ له كما تهيأ لك، وما اجتمع عليه من النسوة والتهديد بالسجن لكنه قال: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يوسف: ٣٣، ٣٤]، وقبل ذلك: {وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ} [يوسف: ٢٣]!.

مجاهدة النفس

اصبر، وصابر، ورابط، واجتهد وإن فزت هذه المرة، ووقفت ضد نفسك بكل جدارة ستتشجع لما بعده، وستتوق لانتصارات قادمة، وستهون عليك الشهوات اللاحقة، والعروض الباقية، وهو صبر ساعة، ثم فوز ونجاة في الدنيا والآخرة.

إعادة الأمل

إن أعظم باب فتحه الله ﷻ للعباد العاصين؛ ليصلوا إليه، ويقتربوا منه، ويعودوا إليه، ويغتسلوا مما كانوا عليه هو باب التوبة، ومفتاح الإنابة، وباب القبول، ومفتاح الدخول، مهما عملوا من عمل، واقترفوا من زلل، فلن يصدهم عنه ﷻ صاد، ولن يردهم عنه راد، ولن يحجبهم حجاب مادامت التوبة صادقة، ووقعت قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل شروق الشمس من مغربها، وإذا كان ربنا جل وعلا قد دعا أهل الكتاب لداعي التوبة بعد أن ادعوا عليه ما ادعو من أنه ثالث ثلاثة، والمسيح ابنه، وكذا عزير لكن قال لهم بعد ذلك: {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٤]، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٢ - ٧٤].

فإذا كان هذا حالهم فكيف بحال المسلم الموحد لكنه اقترف ما اقترف، وارتكب ما ارتكب، وفرّط في جناب الله ﷻ مع خوفه من عقابه، وشديد عذابه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا

تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [الزمر: ٥٣ - ٥٨]، وقال: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٩]، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٨]، بل جعل الرجوع من الذنب، والندم على ما مضى منه من صفات المتقين، وأصحاب اليمين أو المقربين: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥]، بل من صفات عباد الرحمن {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

وقد يتصور بعضهم أن من وقع في الفاحشة لا بد لصحة توبته أن يسلم نفسه للقضاء، أو يحدث الناس بذنوبه وما كان منه قبل توبته من باب مقالة باطلة: "الاعتراف بالحق فضيلة"، وهي مقالة محرمة هنا؛ لأن معناه المجاهرة بالمعاصية الذي هو باب للاستمرار في الذنب، والمعاقبة بعدم المعافاة منه، والخروج من ورطته كما في البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي

مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ"، ولا يلزمه أيضًا يسلم نفسه للقضاء ليقام عليه الحد، ولهذا قال النبي ﷺ لنعيم بن هزال رضي الله عنهما لما جاء بماعز رضي الله عنهما ليقام عليه الحد: وَيْلَكَ يَا هَزَّالُ، لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا لَكَ مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ" رواه أحمد وصححه الألباني، وراده النبي ﷺ ثلاثًا؛ كي لا يعترف بذنبه، والحديث بطوله في البخاري ومسلم حتى قالت أيضًا المرأة: "أتريد أن ترادني كما رادت ماعزًا إني لحبلى من الزنا"، وليس الأمر كذلك بل من ستر نفسه، وأحسن توبته، وقويت علاقته بينه وبين ربه جل جلاله بل يتوب بينه وبين ربه، ويستتر بستر الله عليه: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢].

والتوبة أمرها يسير، والمقبل عليها من بابها بشروطها: إقلاع حقيقي عن ما مضى ومنه ترك كل وسيلة وسبب يعود به للمعصية، وإلا فلم تقبل توبته، وعزم لعدم العودة للذنب ثانية، والعزم الحقيقي، وندم على ما مضى وهو الندم الدائم وليس اللحظي، وبذلك يلاقي الرب الرحيم الذي يبسط يده بالليل والنهار للتائبين ففي صحيح مسلم: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ اللهَ - عز وجل - يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْل حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"، بل لا يغلق ذلك الباب حتى شروق الشمس من مغربها كما عند الترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني: عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (" إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةُ عَرْضِهِ

سَبْعُونَ عَامًا فَتَحَهُ اللهُ - عز وجل - لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ").

بل يفرح ﷻ بتوبة عبده رحمة به لا حاجة إليه: ففي البخاري ومسلم: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ مُهْلِكَةٍ فَنَامَ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَقَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ - أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ - فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ")، بل أعظم من هذا ما روى الترمذي وأحمد وصححه الألباني: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"، وعند أبي داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِذَلِكَ الذَّنْبِ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ

اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا}، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، وفي الصحيحة للألباني فيما رواه ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ "، وفيها أيضًا: عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَرَّ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِجُمْجُمَةٍ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَنْتَ أَنْتَ، وَأَنَا أَنَا، أَنْتَ الْعَوَّادُ بِالْمَغْفِرَةِ، وَأَنَا الْعَوَّادُ بِالذُّنُوبِ، وَخَرَّ لِلَّهِ سَاجِدًا، فَقِيلَ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَأَنْتَ الْعَوَّادُ بِالذُّنُوبِ، وَأَنَا الْعَوَّادُ بِالْمَغْفِرَةِ، قَالَ: فَغُفِرَ لَهُ".

وعند الطبراني وصححه الألباني في الصحيحة وصحيح الترغيب والترهيب: عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَّةً وَلَا دَاجَّةً إِلَّا أَتَاهَا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟، قَالَ: "فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟"، قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: "نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ"، قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟، قَالَ: "نَعَمْ"، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى"، بل إذا كان الله ﷻ تاب على رجل من الأمم السابقة بعد أن قتل مائة نفس فكيف بما دون ذلك من الذنوب وقد صدق ففي البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (" كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ التَّوْبَةُ فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لِي مِنْ

تَوْبَةٍ؟ فقَالَ: بَعْدَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ نَفْسًا؟، لَيْسَتْ لَكَ تَوْبَةٌ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنِّي قَتَلْتُ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟، قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟، اخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ يُرِيدُ الْقَرْيَةَ الصَّالِحَةَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَقْرَبَ فَأَلْحِقُوهُ بِأَهْلِهَا فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي فَقَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ").

بل من باب رحمته وفضله وعدله أنه لا يكتب السيئة حتى تعمل ولو تركها لوجه الله فتكتب حسنة كما في البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (" قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا؛ فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ")، ومهما عاد العبد وأصر وانتكس وارتكس فليقم ولينهض ولا يترك للشيطان فرصة: ففي البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي

فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ").

وفي صحيح مسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ")، بل في مسند الإمام أحمد وصححه الحاكم والألباني عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ اللهُ: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي"، وللطبراني وصححه الحاكم: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي، مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئًا".

وأخيرًا: فليحذر من البعد عن الله، والغفلة عنه، وعدم العودة إليه بأي داع كان فعند أحمد وصححه الحاكم والألباني: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللهِ كَشِرَادِ الْبَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ".

الباب الخامس:

مأثورات

مضت آيات لا تحصى من كتاب رب الأرض والسماء في هذا الموضوع وما حوى، والآن نأتي إلى سرد الأحاديث النبوية، والكلمات الوحيية: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤]، مع تعليق يسير جدًا في العنوان نفسه الذي سيكون شرح الحديث في عنوانه؛ اقتداء بالبخاري -رحمه الله تعالى- وما سأذكر هي أحاديث محفّزة لترك النظر للحرام، أو محذّرة من ذلك أيما تحذير، والتبشير مع التحذير وظيفة القرآن الكريم، والمبعوث رحمة للعالمين: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة: ١١٩]، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]، { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤]، ثم لا أعني بالمأثور في هذا الباب الوحي فقط، بل كلما وردنا عن من سبقنا، فبعد القرآن والسنة ننتقل إلى مأثور من سلف الأمة من جهة ما أُثر عنهم من أقوال في غض البصر، والمراقبة، والتحذير من المردان، ونحو هذا، ومن جهة قصصهم في عفتهم، ومن وقع في ذنب منهم فتاب وعاد، ومن انتكس، ونبدأ بالسنة النبوية:

ضمان الجنة

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، **وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ**، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ " رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني.

وجوب الابتعاد عن أسباب الحرام

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ"، رواه البخاري ومسلم، وعندهما عَنْ أَبِي طَلْحَةَ ﵁ قَالَ: (كُنَّا قُعُودًا بِالْأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، "فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟، اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ" فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأْسٍ قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ وَنَتَحَدَّثُ)، وفي رواية: (مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَغْتَمُّ فِي الْبُيُوتِ فَنَبْرُزُ فَنَتَحَدَّثُ، قَالَ: " فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ "، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: "غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَإِرْشَادُ السَّبِيلِ، وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ"، وفي رواية: "وَأَعِينُوا الْمَظْلُومَ" رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجه.

اصرفها حتى عن نظرة الفجأة

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ، فَقَالَ: " اصْرِفْ بَصَرَكَ " رواه مسلم.

قطع حبائل الشيطان

فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا عَلِيُّ، إِنَّ لَكَ كَنْزًا مِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا فلَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ الْأُولَى لَكَ وَالْآخِرَةَ عَلَيْكَ"، وفي رواية: "فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ" رواه أبو داود وصححه الألباني.

الحصن الحصين

عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ أنّه قال: قال لنا رسول اللّه ﷺ: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ" رواه البخاري ومسلم.

اجتناب مواطن الريبة

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو –رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ عَبْدَهُ أَمَتَهُ فلَا يَنْظُرْ إِلَى عَوْرَتِهَا، لَا يَنْظُرْ إِلَى مَا دُونَ السُّرَّةِ وَفَوْقَ الرُّكْبَةِ "

وجوب حجب الحرام

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: "كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لاَ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ" رواه البخاري ومسلم.

ستر العورات

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَكْشِفْ فَخِذَكَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى فَخِذِ حَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ" رواه أبو داود.

اجتناب المثيرات

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ" رواه مسلم.

وفي الصلاة غض

عَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ إِذَا سَجَدَ الرِّجَالُ فَاغْضُضْنَ أَبْصَارَكُنَّ؛ لاَ تَرَيْنَ عَوْرَاتِ الرِّجَالِ مِنْ ضِيقِ الأُزُرِ" رواه أحمد.

عقوبة الحرام

والعقوبة التي أريدها هنا جاءت في حديث طويل وفي رؤيا النبي ﷺ لرجلين أخذاه ﷺ للأرض المقدسة وأوله: عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﵁ قَالَ: ("كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبحَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟، فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ رُؤْيَا قَصَّهَا فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللهُ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟، فَقُلْنَا: لَا، قَالَ: "لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدَيَّ فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ

الْمُقَدَّسَةِ فقَالَا لِي: انْطَلِقْ، انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ: فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ (وتأمل هنا "مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ" والجزاء من جنس العمل فيأتيهم العذاب من قبل فروجهم؛ لأنهم لم يحفظوها)، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهَبُ ضَوْضَئُوا وَارْتَفَعُوا، حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَ رَجَعُوا فَقُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟ فقَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ ثم أخبراه بعد ذلك: " وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي"، رواه البخاري ومسلم.

واعظ الله... ومنع فتح أسباب الحرام

روى الترمذي وأحمد عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَهُ: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس: ٢٥]، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى فلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حُدُودِ اللهِ حَتَّى يَكْشِفَ السِّتْرَ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ - عز وجل - وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ").

السهم المسموم

عن عبد الله بن مسعودٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ عن ربه -عز وجل-: "النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه" رواه الطبراني، والحاكم وصححه، وروي عن أبي أمامة ﵁ عن النبي ﷺ قال: "ما من مسلمٍ ينظرُ إلى محاسن امرأة، ثم يغض بصرهُ إلا أحدث الله له عبادةً يجدُ حلاوتها في قلبه" رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: "ينظر إلى امرأةٍ أول رَمْقَةٍ".

كلُ عينٍ باكيةٌ

وَرَوَى الأَصْبَهَاني عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ "كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ إلا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَعَيْنًا سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَيْنًا خَرَجَ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ"، وَأَخْرَجَهُ الإمَامُ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَقَالَ : صَحِيحُ الإِسْنَادِ.

لا ترى أعْيُنُهمُ النار

عَنْ معاويةَ بنِ حَيْدَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ثَلَاثَةٌ لَا تَرَى أَعْيُنُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ حَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ - عز وجل -" رواه الطبراني.

والجوارح تزني

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: "كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ".

زينة المرأة فتنة

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مِنْ مُزَيْنَةَ تَرْفُلُ فِي زِينَةٍ لَهَا فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْهَوْا نِسَاءَكُمْ عَنْ لُبْسِ الزِّينَةِ وَالتَّبَخْتُرِ فِي الْمَسْجِدِ؛ فَإِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى لَبِسَ نِسَاؤُهُمُ الزِّينَةَ، وَتَبَخْتَرْنَ فِي الْمَسَاجِدِ" رواه ابن ماجه.

لا يخلون رجلٌ بامرأة

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟، قَالَ: "الْحَمْوُ الْمَوْتُ" رواه البخاري ومسلم، وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: "لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا"(١).

---

(١) – رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان ونصه بطوله: عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه بِالْجَابِيَةِ، فَقَالَ: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِينَا مِثْلَ مُقَامِي فِيكُمْ، فَقَالَ: احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ، حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ،

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ"، رواه البخاري ومسلم، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وفيه قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينها وبينه مَحْرَمٌ" رواه الطبراني.

مس المرأة

عَنْ مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ".

النظرة بداية شيطانية

عَنْ عبد الرحمن بن يزيد قَالَ: " الْإِثْمُ حوَّازُ الْقُلُوبِ[1]، وَمَا مِنْ نَظْرَةٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ "رواه الطبراني مرفوعًا عن ابن مسعود.

وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، وَلَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا، وَمَنْ سَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ، وَسَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ").

(١) – هي الأمور التي تحزّ في القلوب، ويشتبه بكونها معصية، وهو أشبه بحديث: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك".

ليكسفن الله وجوهكم

ورويَ عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لَتَغُضُّنَّ أبصاركم، وَلتَحْفَظُنَّ فُرُوجكم، أو لَيَكْسِفَنَّ اللهُ وجوهكم" رواه الطبراني.

تحذير ملائكي

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ صَبَاحٍ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ وَيْلٌ لِلرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَوَيْلٌ لِلنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ"، رواه ابن ماجة، والحاكم وقال صحيح الإسناد.

آثار السلف في غض البصر

النظرات جراحات، وهموم وحسرات، بل هي سموم قاتلات، وطلقات مميتات قال خالد بن أبي عمران: (لا تتبعوا النظر النظر؛ فربما نظر العبد النظرة ينغل منها قلبه كما ينغل الأديم في الدباغ ولا ينتفع به)[1]، ولهذا خافها السلف الصالح أشد من خوفهم من سبع مفترس فقال (وكيع بن الجراح عن سفيان الثوري: خرجت معه يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا غض البصر، ورجع حسان بن أبي سنان من عيده فقالت امرأته: كم من امرأة حسناء قد رأيت؟ فقال: ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت إلى أن رجعت)[2].

وقال ابن الجوزي: (وكان في عصرنا أبو الحسن بن أحمد بن بجشويه الحربي لا يمشي إلا وعلى رأسه طرحة؛ ليكف بذلك بصره عن الانطلاق).

(١) - الورع (ص: ٦٣) لعبد الله بن محمد أبو بكر القرشي البغدادي، الدار السلفية – الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م.

(٢) - التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٩٥)، وانظر في قصصهم مثلًا: حلية الأولياء (٣/ ١١٥)، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، وصفة الصفوة (٣/ ٣٣٧)، لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ – ١٩٧٩م، تحقيق محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي، الورع (ص: ٦٣) لعبد الله بن محمد أبو بكر القرشي البغدادي، الدار السلفية الكويت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م.

وجاء الربيع بن خثيم إلى علقمة فوجد الباب مغلقًا فجلس في المسجد، فمرت نسوة فغمض عينيه.

وعن سفيان قال: (كان الربيع بن خثيم يغض بصره فمر به نسوة فأطرق وغمّض عينية حتى ظن النسوة أنه أعمى فجعلن يتعوذن بالله من العمى، ويحمدن الله على البصر).

وقال معروف الكرخي: (غضوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى).

وقال خالد بن معدان قال: (ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا، فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد به غير ذلك، تركه على ما فيه ثم قرأ: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: (إذا مرّت بك امرأة فغمّض عينيك حتّى تجاوزك).

وقال ابن الجوزي في وصيته: (فتفهَّم يا أخي ما أوصيك به، إنما بصرك نعمة من الله عليك، فلا تعصه بنعمه، وعامله بغضّه عن الحرام تربح، واحذر أن تكون العقوبة سلب تلك النعمة، وكل زمن الجهاد في الغض لحظة، فان فعلت نلت الخير الجزيل، وسلمت من الشر الطويل).

وقال إبراهيم الخواص قال لي محمد ابن الفضل: (ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله عز وجل، وأربعين سنة ما نظرت في شيء أستحسنه حياء من الله عز وجل).

وقال عبد الواحد بن محمد الفارسي: (لقيت إبراهيم الجبلي بسكة بعد رجوعه إلى وطنه وتزوجه بابنة عمه، وكان قد قطع البادية حافيًا، فحدثني أنه لما رجع إلى بلده وتزوج شغف بابنة عمه شغفًا شديدًا حتى ما كان يفارقها لحظة، قال: فتفكرت ليلة في كثرة ميلي إليها، وشغفي بها، فقلت: ما يحسن بي أن أَرِد القيامة وفي قلبي هذه، فتطهرت وصليت ركعتين وقلت: سيدي رد قلبي إلى ما هو أولى، فلما كان من الغد أخذتها الحمى فتوفيت يوم الثالث، ونويت الخروج حافيًا من وقتي إلى مكة).

وقال الجنيد: (اصرف همك إلى الله تعالى، وإياك أن تنظر بالعين التي بها تشاهد الله -عز وجل- إلى غير الله فتسقط من عين الله).

ودخل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على مريض يعوده، ومعه قوم، وفي البيت امرأة، فجعل رجل من القوم ينظر إلى المرأة، فقال عبد الله رضي الله عنه: (لو أنفقأت عينك كان خيرًا لك)، وقال رضي الله عنه: (حفظ النظر أشق من حفظ اللسان)، وقال رضي الله عنه: (ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطعمًا).

وقال رجل لداود الطائي: (لو أمرت بما في سقف البيت من نسج العنكبوت فنظف، فقال له: أما علمت أنه كان يكره فضول النظر، ثم قال داود الطائي: نُبئت أن مجاهدًا كانت في داره عليه ثلاثين سنة لم يشعر بها).

وقال المروزي قلت لأبي عبد الله -ابن حنبل-: (الرجل ينظر إلى المملوكة؟ قال: إذا خاف الفتنة لا ينظر؛ كم نظرة قد القت في قلب صاحبها البلابل).

وقال الزهري في النّظر إلى التي لم تحض من النساء: (لا يصلح النظر إلى شيء منهنّ ممّن يشتهى النّظر إليه، وإن كانت صغيرة).

وقال العلاء بن زياد العدويّ: (لا تتبع بصرك حسن ردف المرأة؛ فإن النظر يجعل الشهوة في القلب).

وقال شجاع بن شاه: (من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، لم تخطيء له فراسة).

وقال ابن دقيق العيد: (إن التقوى سبب لغض البصر، وتحصين الفرج).

وقال بعض السلف: (من حفظ بصره أورثه الله نورًا في بصيرته).

وقال الحسن بن مجاهد: (غض البصر عن محارم الله يورث حب الله).

وقال يحيى بن معاذ: (من أرضى الجوارح باللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات).

وقال عبد الصمد: (من لم يعلم أن الشهوات فخوخ فهو لعاب).

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (الشيطان من الرجل في ثلاث منازل: في بصره، وقلبه، وذكَرِهِ، ومن المرأة في ثلاث منازل: في بصرها، وقلبها، وعجزها).

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: (النظر يزرع في القلب الشهوة وكفى بها خطيئة).

وقال ذو النون المصري: (اللحظات تورث الحسرات أولها أسف، وآخرها تلف، فمن طاوع طرفه تابع حتفه).

وقال ابن القيم: (أول أسباب العشق الاستحسان سواء نظر إليه أو سمع به).

وقال محمد بن عبد العزيز: (جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة، فقيل له في ذلك فقال: إن الله -عز وجل- خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كُتبت له خطيئة).

وفي تفسير القرطبي: (ولقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانه خير من زماننا هذا).

وقال المروذي: (قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: رجل تاب وقال: لو ضُرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية، غير أنه لا يدع النظر!، قال: أي توبة هذه).

وقال الإمام الحارث المحاسبي: (فرض البصر الغض عن المحارم، وترك التطلع فيما حجب وستر).

وقال الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- في "الإحياء": (زنا العين - أي: النظر- من كبائر الصغائر، وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه).

وقال ابن الجوزي: (أكثر فساد القلب من تخليط العين، ما دام باب عين البصر موثقًا؛ فالقلب سليم من كل آفة، فإذا فُتح طار الطائر، وربما لم يعد بعد).

كلمات في المراقبة

وقال سفيان الثوري: (عليك بالمراقبة لمن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة).

ودخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: (لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفًا بصوت ملأ الغيضة {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]).

وقال الحارث المحاسبي: (المراقبة علم القلب بقرب الرب، والرجل هو من عمّر قلبه بمراقبة الله عز وجل).

وقال ابن الجوزي: (والرجل والله من إذا خلا بما يحب من المحرم، وقدر عليه، وتقلقل عطشًا إليه، نظر إلى نظر الحق تعالى إليه، فاستحى من إجالة همه فيما يكرهه، فذهب العطش).

وقال أبو الجلد: (أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلِمَ تجعلوني أهون الناظرين إليكم).

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: (عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت).

ويقول أحد السلف: (ابن آدم إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عين ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيتك، ولم تستحِ منه حياءك من بعض خلقه، ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه لقد اجترأت).

وقال ابن عطاء: (أفضل الطّاعات مراقبة الحقّ على دوام الأوقات).

وقال ابن الجوزي: (الحقّ -عز وجل- أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيته، ورفع اليدين إليه، والسؤال له، فقلوب الجهّال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط).

وقيل: (من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه).

وقيل لبعضهم: (متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا).

وقيل: (لا تتبع بصرك حسن رداء المرأة؛ فإن النظر يجعل الشهوة في القلب).

قال ابن المبارك لرجل: "راقب الله تعالى"، فسأله الرجل عن تفسيرها، فقال: "كن أبدًا كأنك ترى الله عزَّ وجلَّ".

وقال إبراهيم الخواص: "المراقبة خلوص السر والعلانية لله عزَّ وجلَّ".

وقال ابن القيم: "المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه".

وقيل: "المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة".

وقال بعض العارفين: "اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك".

وقال بعضهم: "خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستحي منه على قدر قربه منك".

وقال أبو سليمان الداراني: "الخاسر من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد".

وكتب ابن السماك الواعظ لأخ له: "أما بعد: أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك في ليلة ونهارك، وخَفِ الله بقدر قُربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك".

وقد روي أن عمر بن الخطاب ﵁ خرج إلى مكة فنزل في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعٍ، بعني شاة من هذه الغنم؟، فقال: إني مملوك، فقال: قلْ لسيدك أكلها الذئب، قال الراعي: فأين الله؟، فبكى عمر، ثم غدا إلى المملوك، فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقلك في الآخرة.

في قصصهم عبرة

قصص عظيمة، وحكايات ملهمة جليلة يحتاج إليها الشباب في عصرنا، ويفتقد إليها أبناء زماننا، تلك هي قصص الثبات، وحكايات الوقوف بكل عزم وقوة أمام المغريات، ورفض كل أنواع الشهوات، والانصراف عن تلك الملذات فهي إذن قصص مثبتة، وأخبار مشوقة، وحكايات مطمئنة لأقوام ارتفعت هممهم، وتناسوا شهواتهم وأمور فروجهم، ونظروا للسماء بشموخ، وتاقوا للجنة بكل ثبات ورسوخ، رجال أرادوا الله والدار الآخرة وآثروا ذلك على دنيا فانية، وأمور تافهة بالية: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: ١٩]، واتخذوا شعارهم: { إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]، وأذكر هنا نماذج مشرقة من تلك القصص، ونزرًا يسيرًا جدًا تدلك على ما بعدها، وعلى أخواتها، وعلى أكبر منها: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هود: ١٢٠]، : {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١]، فمادامت عبرة فهي للعمل وليست للنظر والجدل فإليك إليك -أيها القارئ الكريم- أسوق هذه النماذج المشرقة من تاريخ أمتنا ومن قبلنا فإلى العمل، ومحاولة الاقتداء، والصبر أمام البلاء كما صبر هؤلاء العظماء، والحذر الحذر أيضًا من الانتكاسة التي وصل إليها بعض الأشقياء ممن سأذكر بعضهم هنا، وإنما السعيد من وُعظ بغيره:

المسكي

ذكر ابن الجوزي في المواعظ: أن شابًا فقيرًا كان بائعًا يتجول في الطرقات، فمرّ ذات يوم ببيت فأطلت امرأة وسألته عن بضاعته فأخبرها، فطلبت منه أن يدخل لترى البضاعة، فلما دخل أغلقت الباب، ثم دعته إلى الفاحشة فصاح بها فقالت: والله إن لم تفعل ما أريده منك صرخت فيحضر الناس فأقول هذا الشاب اقتحم عليَّ داري، فما ينتظرك بعدها إلا القتل أو السجن، فخوّفها بالله فلم تنزجر، فلما رأى ذلك، قال لها: أريد الخلاء؛ لأصلح من شأني، فلما دخل الخلاء لطخ نفسه بالأذى ثم خرج إليها، فلما رأته صاحت، وألقت عليه بضاعته، وطردته من بيتها، فمضى في الطريق والصبيان يصيحون وراءه: مجنون.. مجنون.. حتى وصل بيته، فأزال عنه النجاسة واغتسل، فلم يزل يُشمُّ منه رائحة المسك حتى مات، وكان ينادى بأبي بكر المسكي؛ لرائحة المسك المنبثقة منه رحمه الله.

أحرق أصابعه!

وروى ابن حزم بسنده ثلاث قصص متوالية أسوقها فقال: (رأيت شابًا حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبد ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤنة التحفظ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله، فنهض لها على أن ينصرف مسرعًا، ونزل الشاب في داره مع امرأته، وكانت غاية في الحسن وتربًا للضيف في الصبا، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله، فلما علمت المرأة بفوات الوقت، وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى، فبرزت إليه، ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل، فهم بها، ثم ثاب إليه عقله، وفكّر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقع، ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنم، فهال المرأة ما رأت، ثم عاودته، فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى، فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار.

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها في الحسن، وعلقته وشاع القول عليهما، فاجتمعا يومًا خاليين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا، فقالت: لا والله لا كان هذا أبدًا وأنا أقرأ قول الله: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧]، قالت: فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال.

ولقد حدثني ثقة من إخواني أنه خلا يومًا بجارية كانت له مفاركة في الصبا، فتعرضت لبعض تلك المعاني، فقال لها: لا، إن من شكر نعمة الله فيما منحني من وصالك الذي أقصى آمالي أن أجتنب هواي لأمره، ولعمري إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره)[١].

(١) – طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ٢٩٦).

عابد أمام امرأة!

وهذا نموذج بارز لشاب ملك نفسه، وسيطر على هواه وشيطانه، وفاز بلقب يوسف هذه الأمة فقد أوردت كتب التاريخ والسلوك أنه كان بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن القامة، حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به، وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد، فقالت: يا فتى اسمع مني كلماتٍ أُكلمك بها ثم اعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على الطريق وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق مليًا وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشرف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثل القوارير أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك، فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي فأخذ قرطاسًا وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفه في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى مكانه، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله إذا عصاه العبد حلم، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله لنفسه غضبة تضيق لها السماوات والأرض، والجبال والشجر والدواب، فمن ذا يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرت باطلًا فإني أُذكرك يومًا تكون فيه السماوات كالمهل، وتصير الجبال كالعهن،

وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقًّا فإني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم المرضة، والأوجاع المبعدة، ذلك رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة؛ فإني مشغولٌ عنك بقوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٨، ١٩]، فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله؛ كيلا يراها فقالت: يا فتى لا ترجع؛ فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاءً شديدًا، وقالت: أسأل لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها اتبعته، وقالت: أُمنن عليَّ بموعظةٍ أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيكِ بحفظ نفسكِ من نفسكِ، وأُذكركِ قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠].

يوسف هذه الأمة

وذكر صاحب حلية الأولياء في ترجمة مسلم بن يسار: (أنه خرج إلى مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان من أجمل الناس، ولكنه كان من أولياء الله ومن العباد والأخيار، فعرضت له فتاة في طريق مكة إلى المدينة من أجمل النساء، ودعته إلى نفسها، ففر منها إلى واد آخر، ولحقه رفيقه وصاحبه وأتاه فإذا هو يبكي، قال: ما لك؟ قال: أصبت بمصيبة، فسأله بالله أن يخبره، فقال: دعتني امرأة اليوم إلى نفسي فأبيت، قال: آجرك الله، قدوتك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهينئًا لك أنك امتنعت، فلما حج وطاف ثم صلى عند المقام ركعتين ثم أخذت به عينه فنام، فرأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يطوف فقال: من أنت؟ قال: أنا يوسف الذي هَمَمْتُ، وأنت مسلم بن يسار الذي لم تَهم)(١).

(١) – حلية الأولياء (٢/ ٢٩٠).

تابت بعد أن كادت!

وهذا نموذج للحازمين، وقدوة للثابتين، وإمام للرافضين لشهواتهم إنه الربيع بن خثيم؛ فقد أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض له؛ فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بكِ لو نزلت الحمى بجسمك، فغيّرت ما أرى من لونكِ وبهجتكِ؟ أم كيف بكِ لو سألكِ منكر ونكير؟ فصرخت صرخة، فسقطت مغشيًا عليها، فوالله لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذعٌ محترقٌ.

فاتنة تتحول لقانتة!

وهنا قصة مشابهة للتي قبلها لكنها لرجل غير الربيع بن خثيم قال ابن القيم: (ذكر أبو الفرج أن امرأةً جميلةً كانت في مكة وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، والمرآة والمرأة متصاحبتان، فقالت لزوجها هذه المغرورة: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يفتتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فلأفتننه قال: قد أذنت لك (ديوث)، فأتته كالمستفتية، دخلت المسجد وهو في ناحية المسجد، ولما اقتربت منه ظنها تستفتي، فأسفرت عن وجه كفلقة القمر، فقال: يا أمة الله، استتري، قالت: قد افتتنت بك، قال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو دخلت قبرك وأُجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين أتنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: اتق الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فتفرغت للعبادة، وانشغلت عن

الزوج، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير، أفسد عليّ امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيّرها راهبة).

شبيه يوسف عليه السلام

أما عطاء بن يسار فقد خرج مع أخيه سليمان بن يسار ومع أصحابهما من المدينة، ونزلوا بـ الأبواء، وضربوا الخيام، وكان هناك امرأة من الأعراب جميلة أرادت أن تفتن عطاء بن يسار الزاهد العابد، فدخلت عليه في خيمته لما ذهب أصحابه وبقي وحيدًا، وكان في صلاة، فأوجز؛ لأنه ظنها محتاجة، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي، قالت: قم فأصب مني، وقد تقت ولا بعل لي، قال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار، وجعل يبكي، وغشي عليه من البكاء، فرأت المرأة الرجل يبكي فتأثرت من هذا الذي وعظها وجلست تبكي، والرجل يبكي وهي تبكي، فجاء أخوه سليمان بن يسار فوجد الاثنين يبكيان ولا يدري ما القضية، فغلبته نفسه فتأثر وانخرط في البكاء، وجاء بقية أصحابهما، ودخلوا الخيمة، فرأوا عطاء يبكي، وسليمان يبكي، والمرأة تبكي، فتأثروا من المشهد، ولا يدرون ما القصة، فانخرطوا جميعًا في البكاء، وجلس الجميع يبكون إلى أن سكنوا وهدأوا فقامت المرأة وانسحبت، وقام أولئك وانسحبوا، وآوى كل إلى فراشه، فتهيب سليمان أن يسأل أخاه عطاء ما السبب، ومضت الأيام، وسافرا إلى مصر، فلما ناما ليلة بمصر في غرفة واحدة استيقظ عطاء يبكي، فقام سليمان على بكاء أخيه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة، قال: وما هي؟ فأصر عليه حتى يخبره بها، فأخذ عليه عهدًا من الله ألا يحدث بها في حياته، قال: رأيت يوسف عليه السلام في النوم، فجعلت أنظر إليه، فلما رأيت حسنه بكيت فنظر إلي وقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، ذكرتك

وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها، وما لقيت من السجن، وفرقة يعقوب، فبكيت من ذلك، وجعلت أتعجب منه، فقال له في المنام: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد، فبكيت واستيقظت باكيا، وقص عليه قصة المرأة التي كانت بالأبواء وحفظ سليمان السر، ولما مات عطاء نشره، فكانت القصة مشهورة في المدينة.

وكان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا، دخلت عليه امرأة بيته فسألته نفسه، فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك، فخرج هاربًا عن منزله وترك المنزل لها.

تمريد ابن دينار

وكان السري بن دينار بمصر وفيها امرأة جميلة تفتن الناس، فجاءته وكشفت نفسها له، فقال: ما لك؟ قالت: هل لك في فراش وطيء، وعيش رخي، فأقبل عليها وهو يقول:

وكم بي معاصٍ نال منهن لذة ... ومات فخلاها وذاق الدواهيا
تصرم لذات المعاصي وتنقضي ... وتبقى تباعات المعاصي كما هيا
فوا سوءاتاه والله راء وسامع ... لعبد بعين الله يغشى المعاصيا

إلا أنها تخاف الله!

وهذه امرأة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ كما روى ذلك سعيد بن جبير: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أمسى أخذ درته ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يعس في آخر الليل إذ مر بامرأة على سطح وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه   وأرقني ألا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا رب غيره   لحرك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياء يصدني   وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم تنفست الصعداء، وقالت: هان على عمر ما لقيت الليلة؛ لأنه أرسل زوجها في الجهاد، فعرف أن زوجها في الجهاد فأرسل إلى الأمير فرده إلى المدينة، ثم دخل عمر على حفصة، فقال: أي بنية، كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرًا، واثنين، وثلاثة، وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل عمر أربعة أشهر لكل متغيب عن أهله من الجنود.

أعرابي يُختبر!

قيل لبعض الأعراب وقد طال عشقه بجارية ما أنت صانع لو ظفرت ولا يراكما غير الله عز وجل؟ قال: إذن والله لا أجعله أهون الناظرين، لكني أفعل بها ما أفعله بحضرة أهلها، حديث طويل، ولحظ من بعيد، وترك ما يكره الرب، ويقطع الحب.

مع أنه لا يحل الخلوة بها أصلًا وإنما ذكرنا قصته هنا لما فيها من عبرة.

قصص لمن رحمهم الله فعجّل لهم العقوبة

ذكر السفاريني الحنبلي في غذاء الألباب بعض عقوبات من أطلق نظره في الدنيا ممن أراد الله به خيرًا بتلك العقوبة الدنيوية العاجلة؛ ليزجره عن المعصية فقال: روى ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ جاءه رجل يتشلشل دمًا فقال له: مالك؟ قال مرت لي امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها ببصري فاستقبلني جدار فضربني فصنع بي ما ترى فقال: "إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرًا عجّل له عقوبته".

وروى الإمام الحافظ ابن الجوزي في تبصرته بسنده عن أبي يعقوب النهرجوري قال: رأيت في الطواف رجلًا بفرد عين وهو يقول في طوافه: أعوذ بالله منك، فقلت له ما هذا الدعاء؟ فقال: إني مجاور منذ خمسين سنة فنظرت إلى شخص يومًا فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خدي، فقلت: آه فوقعت أخرى، وقائل يقول لو زدت لزدناك.

وروى بسنده عن عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى بن أبي الادان قال: كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فمر حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي أنظر إليه فقال: يا بُني لتجدن غبها ولو بعد حين، فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغب، فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله، وفي تاريخ مكة للأزرقي قال أبو بكر بن أحمد بن نصر الدقاق الكبير -قدس الله سره-: جاورت بمكة عشر سنين فكنت أشتهي اللبن فغلبتني نفسي فخرجت إلى عسفان واستضفت حيًا من أحياء العرب فنظرت إلى جارية حسناء بعيني اليمنى فأخذَت بقلبي فقلت لها: قد

أخذ كلك بكلي فمالي لغيرك مطمع، قالت: تفتح بك الدواي الغالبة لو كنت صادقًا لذهبت عنك شهوة اللبن، قال فقلعت عيني اليمنى التي نظرت بها إليها، فقالت: مثلك من نظر الله عنك تعالى، فرجعت إلى مكة وطفت أسبوعًا، ثم نمت فرأيت في منامي يوسف الصديق عليه السلام فقلت: يا نبي الله أقر الله عينيك لسلامتك من زليخا، فقال لي: يا مبارك بل أنت أقر الله عينيك بالسلامة العسفا، ثم تلا عليه السلام: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، فصحت من طيب تلاوته، ورخامة صوته، وانتبهت وإذا بعيني المقلوعة صحيحة.

وفي تبصرة ابن الجوزي بسنده إلى أبي بكر الاكتاني قال: رأيت بعض أصحابنا في المنام فقلت: ما فعل الله بك قال عرض عليّ سيئاتي فقال: فعلت كذا وكذا؟ فقلت: نعم، قال: وفعلت كذا وكذا فاستحييت أن أقر فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي قيل ما كان الذنب، فقلت: فما كان ذلك الذنب قال مر بي غلام حسن الوجه فنظرت إليه)[١].

ونظر عبد الوهاب بن أفلح إلى غلام أمرد حسن الوجه مرة فرفع يده يدعو وقال: هذا ذنب أنا تائب إليك منه، وراجع إليك عنه فعد عليّ بما لم أزل أعرفه منك قديمًا وحديثًا.

(١) – غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (١/ ٧٠)، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، وانظر: التبصرة ـ لابن الجوزي(١/ ١٣٣).

وعن عمرو بن مرة قال: نظرت إلى امرأة فأعجبتني فكُف بصري فأرجو أن يكون ذلك جزائي.

وقال محمد بن الحسن بن الجلندي المقري سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول: كنت واقفًا أنظر إلى غلام نصراني حسن الوجه، فمر بي أبو عبد الله البلخي فقال: إيش وقوفك؟ فقلت: يا عم ما ترى هذه الصورة تعذب بالنار، فضرب بيده بين كتفي، وقال: لتجدن غبها ولو بعد حين، قال ابن الجلاء: فوجدت غبها بعد أربعين سنة أنسيت القرآن.

وقال أبو عمرو بن علوان: خرجت يومًا إلى سوق الرحبة في حاجة فرأيت جنازة فتبعتها ؛لأصلي عليها، ووقفت في جملة الناس حتى يدفن الميت، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمد فلححت بالنظر، واسترجعت، واستغفرت الله، وعدت إلى منزلي، فقالت لي عجوز: يا سيدي مالي أرى وجهك أسود، فأخذت المرآة فنظرت فإذا وجهي أسود، فرجعت إلى سري أنظر من أين دهيت، فتذكرت النظرة فانفردت في موضع أستغفر الله، وأسأله الإقالة أربعين يومًا، فخطر في قلبي أن زر شيخك الجنيد، فانحدرت إلى بغداد، فلما جئت الحجرة التي هو فيها طرقت الباب فقال: لي ادخل يا أبا عمرو، تذنب بالرحبة، وتستغفر ربك ببغداد!.

وقال الإمام مالك: كان يونس بن يوسف من العباد، فأقبل ذات يوم وهو رائح من المسجد، فلقيته امرأة فوقع في نفسه منها، فقال: اللهم إنك جعلت لي بصري نعمة، وقد خشيت أن يكون عليّ نقمة، فاقبضه إليك، قال: فعمي، وكان يروح إلى المسجد يقوده ابن أخ له، فإذا استقبل به الأسطوانة اشتغل الصبي يلعب مع

الصبيان، فإن فاتته حاجة حصبه فأقبل إليه، فبينا هو ذات يوم ضحوة في المسجد إذ أحس في بطنه بشيء فحصب الصبي فشُغل الصبي مع الصبيان حتى خاف الشيخ على نفسه، فقال: اللهم إنك كنت جعلت لي بصري نعمة، وخشيت أن يكون نقمة فسألتك فقبضته إليك، وقد خشيت الفضيحة فرده إليّ فانصرف إلى منزله صحيحًا يمشي، قال الإمام مالك: فرأيته أعمى، ورأيته صحيحًا!.

وقد روي عن بعض الصالحين أنه انقطع شسع نعله في عدوه إلى الجمعة فقال: "إنما انقطع لأني لم أغتسل للجمعة"، وعن مالك بن دينار قال بلغني أن فتى أصاب ذنبا فيما مضى فأتى نهرًا ليغتسل فذكر ذنبه فوقف واستحيا، فرجع فناداه النهر: يا عاصي لو دنوت لأغرقتك، وقال بشر: "إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل"، وقيل: "الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة"، وقيل: "من سره أن تدوم له العافية فليتق الله عز وجل"، وكان بعض الحكماء يقول: "هب أن المسيء قد غُفر له أليس قد فاته ثواب المحسنين"!.

عقوبات وعقوبات!

على أن عقوبات هؤلاء العاجلة إنما هي رحمة من الله بهم، ونعمة نزلت عليهم، وإلا فأغلب الناس لا يرون عقوبات عاجلة لذنوبهم، وقد يرتكبون أشدها، وأعظمها وأفجرها لكن يمهلهم الله؛ ليجازيهم بها في الآخرة، وقد ثبت مصداق ذلك عند الترمذي وأحمد: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ ﷺ قَالَ: (لَقِيَ رَجُلٌ امْرَأَةً كَانَتْ بَغِيًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَعَلَ يُلَاعِبُهَا حَتَّى بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: مَهْ؟؛ فَإِنَّ اللهَ - عز وجل - قَدْ ذَهَبَ بِالْجَاهِلِيَّةِ، وَجَاءَنَا بِالْإِسْلَامِ، فَوَلَّى الرَّجُلُ، فَأَصَابَ الْحَائِطُ وَجْهَهُ فَشَجَّهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: "أَنْتَ عَبْدٌ أَرَادَ اللهُ بِكَ خَيْرًا، إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ") وصححه الألباني، بل ليس هذا فحسب إنما العقوبات الحسية أعظم وأشد كما ورد في الأثر أن عابدًا من عباد بني إسرائيل انتكس عن الطاعة وأصبح في المعصية، ثم لم ير أثرًا لعصيانه بفقد صحته، أو رزقه، أو أحد حواسه فنادى ربه بقول: رب كم عصيتك ولم تعذبني، فسمع مناديًا يقول: "وكم عذبتك وأنت لا تشعر، ألم أحرمك من لذة مناجاتي، والقرب بين يدي، والتذلل إلي، والقيام بين يدي"، وهذا والذي نفسي بيده لهو حالنا جميعًا، وإذا كان سفيان الثوري -رحمه الله- حُرم قيام الليل لستة أشهر بسبب ذنب أذنبه فكيف بنا، وكم هي ذنوبنا، وكم حرُمنا!.

وأختم هذا بكلام ابن الجوزي -رحمه الله- في ذم الهوى حيث قال: (اعلم أن العقوبة تختلف، فتارة تتعجل، وتارة تتأخر، وتارة يظهر أثرها، وتارة يخفى، وأطرف العقوبات ما لا يحس بها المعاقب، وأشدها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة ودون ذلك موت القلوب، ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين، وربما دبت العقوبة في الباطن دبيب الظلمة إلى أن يمتلئ أفق القلب فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن في الدنيا، وربما كانت عقوبة النظر في البصر؛ فمن عرف لنفسه من الذنوب ما يوجب العقاب فليبادر نزول العقوبة بالتوبة الصادقة عساه يرد ما يرد)[1]

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٢١٠).

قصص: سوء الخاتمة من عقوبات الشهوة الآثمة

إن من أعظم عقوبات النظرة الآثمة، والمعاصي المحرمة، والخلوات المؤدية لكل بلاء، والموصلة لكل شقاء هي سوء الخاتمة، ومعناه النار وبئس المصير، ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: "فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا" رواه البخاري ومسلم.

وإذا كان السلف وهم العاملون لله حقًا، والتقاة صدقًا، والمبتعدون عن فتن عصرنا، وذنوب زماننا، ومع ذلك كانوا يخشون سوء الخاتمة؛ فلقد بكى سفيان الثوري ليلةً إلى الصباح، فقيل له: أكل هذا خوفًا من الذنوب؟ قال: "الذنوب أهون، إنما أبكي خوفًا من الخاتمة"، هذا وهو سفيان الثوري من لم يتعلق قلبه بغير الله ﷻ، ولم يُعرف إلا في مسجده وعلى مصحفه، ومعلمًا بين طلابه فكيف بمن تعلق قلبه بالشهوات، وانغمس في الملذات، وهي كلها تؤدي للاستيلاء على القلب، ثم سوء الخاتمة، والموتة الآثمة؛ فإن هذه الأشياء التي تشغل بال الإنسان من الحرام، وكثرة انشغاله بها وانهماكه عليها إذا نزل به الموت سيطفو على السطح، وسيظهر على لسانه، وحين تخونه قواه وتخور يطفو ما كان مخبأً من هذه الشهوات المحرمة، قال عبدالحق الإشبيلي: (وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الافتراء، فملك قلبه، وسبى

عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن أعاد عليه وأعاد.

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت فجعل ابنه يقول له: قل لا إله إلا الله، فقال الناصر: يا مولاي، فأعاد عليه، فأعاد هو، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال الناصر يا مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان: الناصر إنما يعرفك بسيفك، فالقتل، ثم القتل، ثم مات.

وقيل لآخر وقد نزل به الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا...

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث: أن رجلًا نزل به الموت فقيل له قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده، دوازده، تفسيره: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، وكان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان.

حمام منجاب!

كما روي أن رجلًا نزل به الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول أين الطريق إلى حمام منجاب، وهذا الكلام له قصة: وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابُها يُشبه بابَ هذا الحمّام، فمرّت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام مِنجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار، ودخل وراءها، فلمّا رأت نفسَها في داره، وعلمت أنّه قد خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقرَّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيكِ بكلّ ما تريدين وتشتهين، وخرج، وتركها في الدار، ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح، ورجع، فوجدها قد خرجت، وذهبت، ولم تخنه في شيء، فهام الرجل، وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقّة ويقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا وقد تعبت ... أيــن الطريق إلى حـمّام مِنجاب

فبينا هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجاريةٍ أجابته من طاق:

هلاّ جعلتَ إذ ظفرتَ بها ... حِرزًا على الدار أوقفلًا على الباب

فازداد هيمانه، واشتدّ هيجانه، ولم يزل على ذلك حتى كان من أمره ما ذكر فنعوذ بالله من المحن والفتن)[١].

(١) – العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٧٨) لعبد الحق الإشبيلي، مكتبة دار الأقصى الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦– ١٩٨٦م، ونقل عنه ذلك ابن القيم في الداء

انتكاسة!

وانظر للانتكاسة الكبرى، والمصيبة العظمى بالرغم أنه من حفظة كتاب الله -وما أكثرهم في زماننا-، ومن الصائمين القائمين، والعباد الزاهدين لكن النظرة المحرمة عملت عملها، ووصلت لمهمتها، قال عبدة بن عبد الرحيم: خرجنا في سرية إلى أرض الروم فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه، ولا أفقه، ولا أفرض، صائم للنهار، قائم لليل، فمررنا بحصن فمال عنه العسكر، ونزل بقرب الحصن، فظننا أنه يبول فنظر إلى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها، فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟، قالت: حين تتنصر يُفتح لك الباب وأنا لك، ففعل فأُدخل الحصن، قال عبدة: فقضينا غزاتنا في أشد ما يكون من الغمِّ، كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صلبه، ثم عدنا في سريةٍ أخرى فمررنا من فوق الحصن مع النصارى، فقلنا: يا فلان ما فعلت قراءتك؟، ما فعل علمك؟، ما فعلت صلواتك وصيامك؟، قال: اعلموا أني نسيت القرآن كله، ما أذكر منه إلا هذه الآية -وكأنه المعني بها-: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٢، ٣]!.

والدواء ط مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ (١/ ٣٨٧)، وابن الجوزي في الثبات عند الممات (ص: ٧٩)، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، تحقيق: عبد الله الليثي الأنصاري.

خاتمة للنار

وقصة هي أشد من سابقتها، وأخطر، وأبلغ في النفوس منها: يُروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة، وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك، قالت: لماذا؟ قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطحٍ كان في الدار فسقط منه فمات.

جرائم متوالية

قال ابن الجوزي -رحمه الله- في ذم الهوى: (وبلغني عن رجل كان ببغداد يقال له صالح المؤذن، أذّن أربعين سنة، وكان يعرف بالصلاح أنه صعد يومًا إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات، فما هذه الخيانة؟! فقال: إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك، فقالت: لا إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام، ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلت هذه لتقضي غرضك، ثم تعود إلى دينك، فكل من لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر فشرب، فلما دب الشراب فيه دنا إليها فدخلت بيتًا وأغلقت الباب، وقالت اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفته في مسح، فجاء أبوها فقصت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه فرُمي في مزبلة)، ولعلها تشبه الأولى أو نفسها برواية أخرى.

كفر لأجل امرأة

وذكر ابن النجار في تاريخه أن رجلًا كان يطلب العلم يقال له ابن السقة، كان عند الشيخ أبي إسحاق الشيرازي فسأل الشيخ مسألة وأساء الأدب مع الشيخ، فقال أبو إسحاق: اجلس؛ فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، فاستغرب الحاضرون، ثم بعد حين أرسل الخليفة هذا الرجل بعد ذلك برسالة إلى ملك الروم، فذهب وافتتن ببنت ملك الروم وطلب زواجها، وامتنعوا إلا أن يتنصر فتنصر، ورئي في القسطنطينية مريضًا وبيده مروحة يذب بها الذباب عن وجه، فسُئل عن القرآن فذكر أنه نسيه إلا آية واحدة: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ } [الحجر:٢].

{فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ}

رأى رجل إنسانًا يُقرئ غلامًا جميلاً وهو يضحك إليه فقام إليه وجلس إلى جنبه فقال: يا أخي! أما سمعت الله تعالى يقول: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ} [الحديد:١٦]؟ قال: بلى، قال: أفما سمعته تعالى ذكره يحذر من فعل قوم اغتروا بحلمه وأنسوا إلى كرمه، فقال: {وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦]؟ قال: بلى، قال: فما بالك لا تخشاه عند قوله تعالى، ولا ترجع عند تحذيره، وما نزل في كتابه؟! إني رأيتك مغرقًا في الضحك إلى هذا الذي يقرأ عليك كأنك لا تُسأل عن ضحكك ولا توقف عن فعلك، وبالله الذي لا يحلف المؤمنون إلا به لئن أخذك على ريب يكرهه ليجعلنك عبرة للعاقل، ومذمة للجاهل فنكس الرجل رأسه، وأقبل يبكي، وقام وتركه.

انتكاسات متشابهة

ذكر ابن القيم في الداء والدواء انتكاسات لأشخاص قبل موتهم بلحظات فقال: (وقيل لآخر: قلِ: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاننا تنتنا، حتى قَضى.

وقيل لآخر ذلك فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصية إلا ركبتُها، ثم قضى، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عنّي، وما أعرف أنّي صلّيتُ لله صلاةً، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما يقول، وقضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلّما أردتُ أن أقولها فلساني يُمسِك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحّاذين عند موته، فجعل يقول: لله فلس، لله فلس، حتّى قضى.

وأخبرني بعض التجّار عن قرابة له أنه احتضر، وهو عنده، فجعلوا يلقّنونه: لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذه مشترى جيّد، هذه كذا، حتى قضى)[١].

(١) – الداء والدواء ط مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ (١/ ٢١٧).

وذكر الإمام القرطبي في التذكرة: (ولقد رأيت بعض الحساب وهو في غاية المرض يعقد بأصابعه ويحسب، وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني اعملوا فيها كذا، وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: عقلك الحمارة، وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: البقرة الصفراء غلب عليه حبها، والاشتغال بها، نسأل الله السلامة والممات على الشهادة بمنه وكرمه)(١).

وتقدّم معنا قريبًا ما ذكره الحافظ عبدالحق الإشبيلي: (يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت فجعل ابنه يقول له: قل لا إله إلا الله، فقال الناصر: يا مولاي، فأعاد عليه، فأعاد هو، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قال الناصر يا مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان: الناصر إنما يعرفك بسيفك، فالقتل، ثم القتل، ثم مات.

وقيل لآخر وقد نزل به الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا، هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث: أن رجلًا نزل به الموت فقيل له قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده، دوازده، تفسيره: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، وكان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان)(٢).

---

(١) – التذكرة للقرطبي (ص: ٣٨).

(٢) – العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٧٨).

وللأمم السابقة مكان

ولا بأس هنا أن أذكر قصصًا قليلة لرجال الأمم السابقة في العفاف أو الانغماس في الشهوات من باب العظة والعبرة، ولإذنه ﷺ لنا بالحديث عنهم كما في البخاري: "حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ"، مع قوله ﷺ في البخاري أيضًا: "لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: {آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[العنكبوت: ٤٦]"، بل بعض ما سأذكره في كتاب الله ﷻ، أو سنة رسول الله ﷺ ومن ذلك:

البلاء الأعظم والعفاف الأكبر

عبرة للثابتين، وموعظة للمجاهدين، وقدوة لشباب المسلمين إنه نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لم يُصب أحد بمصيبته، ولم يبتلِ شاب ببليته، بل توفرت كل أسباب وإمكانيات اقترابه من الشهوة المحرمة، والمتعة الزائلة لكنه آثر الآخرة على الفانية، والجنة على النار الحامية: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف:٢٣]، وعندما كان صادقًا معه -جل وعلا- أراه الله البرهان: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ} [يوسف:٢٤]، ودعا ربه فخلصه.

ولقد جعل الله ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من أسباب البلاء، وقدرته على الحرام ما تحار فيه العقول ومع هذا ثبت كل الثبات، وأبى كل الإباء: فهو شاب، وداعي الزنا عند الشاب أكبر من الصغير والكبير، وأعزب، وداعي الشهوة عند الأعزب أكثر من المتزوج، وغريب لا يستحي مثل حياء ابن البلد الذي يخاف الفضيحة، والمرأة ذات منصب وجمال، ومثلها يتشوف لها الرجال، والمرأة ليست آبية ولا معترضة، بل هي التي دعته وألحت وقالت: {هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣]، وأسقطت كل الحواجز النفسية، وجهزت كل أسباب عدم اطلاع أحد، وأغلقت الأبواب كلها حتى لا يهرب، ثم هو في دارها وتحت سلطانها، ثم هددته بالسجن، وجمعت ضده النساء أمثالها من الفاجرات، ثم لا يُشك فيه لو دخل أحد عليهم؛ لأنه عبد عندها وخادم، وهو مملوك عندها، ودياثة الزوج الذي لم يوبخها بل قال: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [يوسف: ٢٩]، ومع ذلك كله

وأكثر لكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار ربه على شهوته، وما عند الله على ما عنده، وقدم خوف ربه وناره على تهديدها وسجنها: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف: ٣٣].

الثلاثة في الغار

وقصة أخرى في العفاف، والخوف من ذي الجلال والإكرام هي قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم في غار لجأوا إليه فكان منهم ذلك الذي حكى لنا ﷺ عفته كما روى البخاري ومسلم: "وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا".

جريج العابد

وكذلك جريج العابد وقصته التي رواها البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ ﷺ: ("لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَانِ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ فَاشْتَاقَتْ إِلَيْهِ يَوْمًا فَأَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي -قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه لِصِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ - فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، كَلِّمْنِي فَقَالَ: يَا رَبِّ، الصَّلَاةُ خَيْرٌ أَمْ أُمِّي آتِيهَا؟ فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَاشْتَدَّ عَلَى أُمِّهِ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي، وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللَّهُمَّ فَلَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ، لَفُتِنَ فَذَكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَوْمًا جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ مِنْهُمْ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا: لَئِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ فَقَالُوا: قَدْ شِئْنَا، فَأَتَتْهُ فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَجَاءُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي فَنَادَوْهُ: أَيْ جُرَيْجُ، أَيْ مُرَاءٍ، انْزِلْ فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ وَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ يُصَلِّي فَأَخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ وَعُنُقِهَا حَبْلًا، وَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا فِي النَّاسِ وَشَتَمُوهُ، وَضَرَبُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، فَقَالَ: مَا

شَأْنُكُمْ؟، قَالُوا: إِنَّكَ زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ غُلَامًا فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى وَدَعَا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْغُلَامِ فَمَسَحَ رَأْسَهُ)، وفي رواية: (فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ بِإِصْبَعِهِ، وَقَالَ: بِاللهِ يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ أَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؟ قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ فَفَعَلُوا ثُمَّ عَلَاهَا).

تائب خير من نبي!

قال الإمام الغزالي: (روي عن بكر بن عبد الله المزني: أن قصابًا أولع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له: لا تفعل لَأنا أشد حبًا لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه، فرجع تائبًا فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش، قال: تعالى حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال ما لي من عمل صالح فأدعو الله، فادعُ أنت، قال: أنا أدعو وأمّن أنت على دعائي فدعا الرسول عليه السلام وأمّن هو، فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول عليه السلام: زعمت أن ليس لك عمل صالح، وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمّنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني بأمرك فأخبره فقال الرسول، إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه)[1].

---

(١) الإحياء (٣، / ١١٤).

سجد للشيطان!

وفي تفسير ابن جرير الطبري -رحمه الله- حين وصل إلى سورة الحشر والآية الكريمة فيها: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: ١٦-١٧]، قال: (قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: كان راهب من بني إسرائيل يعبد الله فيحسن عبادته، وكان يؤتى من كل أرض فيُسأل عن الفقه، وكان عالمًا، وإنّ ثلاثة إخوة كانت لهم أخت حسنة من أحسن الناس، وإنهم أرادوا أن يسافروا، فكبُر عليهم أن يخلفوها ضائعة، فجعلوا يأتمرون ما يفعلون بها؛ فقال أحدهم: أدلكم على من تتركونها عنده؟ قالوا: من هو؟ قال: راهب بني إسرائيل، إن ماتت قام عليها، وإن عاشت حفظها حتى ترجعوا إليه، فعمدوا إليه فقالوا: إنا نريد السفر، ولا نجد أحدًا أوثق في أنفسنا، ولا أحفظ لما ولي منك لما جعل عندك، فإن رأيت أن نجعل أختنا عندك فإنها ضائعة شديدة الوجع، فإن ماتت فقم عليها، وإن عاشت فأصلح إليها حتى نرجع، فقال: أفيكم إن شاء الله؛ فانطلقوا فقام عليها فداواها حتى برأت، وعاد إليها حسنها، فاطلع إليها فوجدها متصنعة، فلم يزل به الشيطان حتى يزين له أن يقع عليها حتى وقع عليها، فحملت، ثم ندمه الشيطان فزين له قتلها؛ قال: إن لم تقتلها افتضحت وعرف شبهك في الولد، فلم يكن لك معذرة، فلم يزل به حتى قتلها؛ فلما قدم إخوتها سألوه ما فعلت؟ قال: ماتت فدفنتها، قالوا: قد أحسنت، ثم جعلوا يرون في المنام، ويخبرون أن الراهب هو قتلها، وأنها تحت شجرة كذا وكذا، فعمدوا إلى الشجرة فوجدوها

تحتها قد قتلت، فعمدوا إليه فأخذوه، فقال له الشيطان: أنا زينت لك الزنا وقتلها بعد الزنا، فهل لك أن أنجيك؟ قال: نعم، قال: أفتطيعني؟ قال: نعم قال: فاسجد لي سجدة واحدة، فسجد له ثم قُتل، فذلك قوله: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: ١٦-١٧])[1].

---

(١) - تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٥).

خطر التعلق بالمردان

سقطات مدوية، وجرائم مأساوية، وكبائر بينة، وردة علنية ستجدها في ثنايا القصص التي بين أيدينا، والأخبار المذكورة هنا، والتي سببها الأكبر والأعظم مخالطة هؤلاء المردان، خاصة لمن في قلبه مرض، وغريزة لحبهم، وسيأتي معنا قصص وأخبار كثيرة في تحذير السلف منهم(١)، ونقلنا هناك آخر ما نقلناه قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما في الفتاوى الكبرى: (وَمَا زَالَ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ: كَشُيُوخِ الْهُدَى، وَشُيُوخِ الطَّرِيقِ، يُوصُونَ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ حَتَّى يُرْوَى عَنْ فَتْحٍ الْمَوْصِلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَحِبْت ثَلَاثِينَ مِنْ الْأَبْدَالِ، كُلُّهُمْ يُوصِينِي عِنْدَ فِرَاقِهِ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا سَقَطَ عَبْدٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إلَّا بِصُحْبَةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْتَانِ)(٢).

---

(١) – راجع ص٥٦٤ من كتابنا هذا.

(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٨)

ردة علنية لأجل غلام!

ذكر عبد الحق الإشبيلي: (أن رجلًا علِق شخصًا، فاشتد كلفه به، وتمكن حبه من قلبه، حتى وقع لما به، ولزم الفراش بسببه، وتمنع ذلك الشخص عليه، واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما، حتى وعده أن يعوده، فأُخبِرَ بذلك البائسُ، ففرح، واشتد سروره، وانجلى غمه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضربه له، فبينا هو كذلك، إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنّه وصل معي إلى بعض الطريق، ورجع، فرغبت إليه، وكلمته، فقال: إنه ذكرني، وبرح بي، ولا أدخل مداخل الريب، ولا أعرّض نفسي لمواقِع التهم، فعاودتُه، فأبى، وانصرف، فلما سمع البائسُ أُسْقِط في يده، وعاد إلى أشدّ مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

أسلَمُ، يا راحةَ العليلِ ويا شفا المدنِف النحيلِ

رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليلِ

فقلت له: يا فلان، اتق الله، قال: قد كان، فقمتُ عنه، فما جاوزتُ باب داره، حتى سمعتُ ضجةَ الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة)(١).

---

(١) – العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٧٨) لعبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي، مكتبة دار الأقصى الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ – ١٩٨٦م، تحقيق: خضر محمد خضر، ونقل عنه ذلك ابن القيم في الداء والدواء ط مجمع الفقه

ورواها ابن الجوزي -رحمه الله- بسنده وبطولها، وهي مهمة؛ كي يعرف المسلم كيف النظرات لهؤلاء تفتن، وتعمي، وتصم، وكيف تقتل مخالطتهم ولو مع الوقت، ولو كان طالب علم شرعي، فقال ابن الجوزي: (أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي، قال: أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: حدثني أبو محمد علي بن أحمد الفقيه الحافظ، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجي الأديب، قال: كنت أختلف في النحو إلى عبد الله محمد بن خطاب النحوي في جماعة أيام الحداثة، وكان معنا أسلم بن أحمد بن سعيد بن قاضي قضاة الأندلس، قال محمد بن الحسن: وكان من أجمل من رأته العيون، وكان معنا عند محمد بن خطاب أحمد بن كليب، وكان من أهل الأدب والشعر، فاشتد كلفه بأسلم، وفارق صبره، وصرف فيه القول مستترًا بذلك إلى أن فشت أشعاره فيه، وجرت على الألسنة، وتنوشدت في المحافل، فلعهدي بعرس في بعض الشوارع والنكوري الزامر في وسط المحافل يزمر بقول أحمد بن كليب في أسلم:

أسلمني في هوى أسلم هذا الرشا غزال له مقلة يصيب بها من يشا

وشي بيننا حاسد سيسأل عما وشا ولو شاء أن يرتشي على الوصل روحي ارتشى

الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ، (١/ ٣٨٧)، وكذلك ابن الجوزي في الثبات عند الممات (ص: ٧٩)، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، تحقيق: عبد الله الليثي الأنصاري.

ومغن محسن يسايره، فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب، ولزم بيته، والجلوس على بابه، وكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب دار أسلم سائرًا أو مقبلًا نهاره كله، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلى المغرب واختلط الظلام خرج مستروحًا وجلس على باب داره، فعيل صبر أحمد بن كليب فتحيل في بعض الليالي، ولبس جبة صوف من جباب أهل البادية، واعتم بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وباليد الأخرى قفصًا فيه بيض كأنه قدم من بعض الضياع، وتحين جلوس أسلم عند اختلاط الظلام على بابه فتقدم إليه، وقبل يده، وقال: يا مولاي من يقبض هذا، فقال له أسلم: من أنت؟، قال: أجيرك في الضيعة الفلانية، -وقد كان يعرف أسماء ضياعه والعاملين فيها- فأمر أسلم غلمانه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في ضياعهم، ثم جعل يسأله عن أحوال الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام، فتأمله فعرفه، فقال له: يا أخي إلى ها هنا تتبعني، أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جملة، وعن القعود على بابي نهارًا حتى قطعت عليّ جميع مالي فيه راحة، فقد صرت في سجنك، والله لا فارقت بعد هذه الليلة قعر منزلي، ولا جلست بعدها على بابي لا ليلًا ولا نهارً، ثم قام وانصرف أحمد بن كليب حزينًا كئيبًا، قال محمد واتصل ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كليب: خسرت دجاجك وبيضك، فقال: هات كل ليلة قبلة يده وأخسر أضعاف ذلك، قال فلما يئس من رؤيته البتة نهكته العلة، وأضجعه المرضى، قال محمد بن الحسن: فأخبرني شيخنا محمد بن خطاب، قال: فعدته فوجدته بأسوأ حال، فقلت له: ولم لا تتداوى؟ فقال: دوائي مرعوف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم في البتة، فقلت له: وما دواؤك؟ قال: نظرة من

أسلم، فلو سعيت في أن يزورني لأعظم الله أجرك بذلك وأجره، قال: فرحمته وتقطعت نفسي له حسرة، فنهضت إلى أسلم فاستأذنت عليه فأذن لي، وتلقاني بما يجب، فقلت له لي حاجة فقال: وما هي؟ قلت: قد علمت ما جمعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي، فقال: نعم ولكن قد تعلم أنه برح بي، وشهر اسمي، وآذاني، فقلت له: كل ذلك يغتفر في مثل هذه الحال التي هو فيها، والرجل يموت، فتفضل بعيادته، فقال لي: والله ما أقدر على ذلك، فلا تكلفني هذا، فقلت: لا بد من ذلك فليس عليك فيه شيء وإنما هي عيادة مريض، قال ولم أزل به حتى أجاب، فقلت له: فقم الآن فقال: لست والله أفعل ولكن غدًا، فقلت له ولا خلف، قال: نعم، فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده بعد تأبيه فسر بذلك وارتاحت نفسه، فلما كان من الغد بكرت إلى أسلم وقلت له: الوعد، قال: فوجم، وقال: والله لقد تحملني على خطة صعبة علي، وما أدري كيف أطيق ذلك، قال فقلت له: لا بد أن تفي بوعدك لي، قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلًا قال فلما أتينا منزل أحمد بن كليب، وكان يسكن في درب طويل، وتوسط الزقاق، وقف واحمر وخجل، وقال لي: يا سيدي الساعة والله أموت، وما أستطيع نقل قدمي، ولا أستطيع أن أعرض هذا على نفسي، فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل تنصرف، قال: لا سبيل إلى ذلك والله البتة، قال: ورجع هاربًا فاتبعته وأخذت بردائه فتمادى وتمزق الرداء وبقيت قطعة منه في يدي لشدة إمساكي له ومضى ولم أدركه، فرجعت ودخلت على أحمد بن كليب قال: وقد كان غلامه دخل عليه إذ رآنا من أول الزقاق مبشرًا قال فلما رآني تغير وجهه، وقال وأين أبو الحسن قال فأخبرته بالقصة فاستحال من وقته، واختلط وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر

من الاسترجاع، فاستبشعت الحال، وجعلت أتوجع، وقمت، قال فثاب إليه ذهنه وقال لي: يا أبا عبد الله قلت: نعم، قال اسمع مني، واحفظ عني، ثم أنشأ يقول:

أسلَمُ يا راحةَ العليلِ ويا شفا المدنِف النحيلِ

وصلك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

قال فقلت له اتق الله ما هذه العظيمة فقال: قد كان، قال: فخرجت عنه فوالله ما توسطت الزقاق حتى سمعت الصراخ عليه، وقد فارق الدنيا)(١).

(١) – ذم الهوى (ص: ٥٥٧)، وذكرها ابن حزم بسند أقرب؛ كونه أقدم من ابن الجوزي، لكنه ذكرها في ملحق الكتاب لا في أصله، ونقلها ابن الجوزي منه بحرفها: طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ٣١٥).

سقطة كبير في كبيرة

وهذا ابن حزم الظاهري -رحمه الله- يحدّث عن رجل يعرفه وقد احتك به زمنًا، وكان الرجل من العلماء الفضلاء، والكتّاب النبلاء لكن أبت شهوته إلا الانتكاسة، وهواه إلا الوضاعة وصدق الله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨]، فقال ابن حزم: (رجل من أصحابنا كنا نعرفه من أهل الطلب، والعناية، والورع، وقيام الليل، واقتفاء آثار النساك، وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء، باحثًا مجتهدًا، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرته، فلم يمضِ الزمن حتى مكّن الشيطان من نفسه، وفتك بعد لباس النساك، وملك إبليس من خطامه فسول له الغرور، وزين له الويل والثبور، وأجره رسنه بعد إباء، وأعطاه ناصيته بعد شماس، فخب في طاعته وأوضع، واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة، ولقد أطلت ملامة وتشددت في عذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتار، إلى إن أفسد ذلك ضميره عليّ، وخبثت نيته ليّ، وتربص بي دوائر السوء، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجرارًا إليه، فيأنس به ويظهر له عداوتي، إلى أن أظهر الله سريرته، فعلمها البادي والحاضر، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصدًا للعلماء، ومنتابًا للفضلاء، ورذل عند إخوانه جملة،

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكامًا جيدًا، واختصر كتاب الأنباري في الوقف والابتداء اختصارًا حسنًا أُعجب به من رآه من المقرئين، وكان دائبًا على طلب الحديث وتقييده، والمتولي لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين، مثابراً على النسخ مجتهدًا به، فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنيًا به، وباع أكثر كتبه، واستحال كلية، نعوذ بالله من الخذلان)[١].

---

(١) – طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ٢٧٦).

أكفر الكفر

(وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي في كتاب: اللفظ والإصلاح أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة، مع علو طبقته في الكلام وتمكنه، وتحكمه في المعرفة، تسبب إلى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتابًا في تفضيل التثليث على التوحيد، فيا غوثاه، عياذك يا رب من تولج الشيطان ووقوع الخذلان)[١].

وما دمنا ختمنا قصصنا بهذه المأساة، والانتكاسة الحقيقية للفطرة فنفتتح بابًا جديدًا عنها بعنوان: انتكاسات.

(١) – طوق الحمامة في الألفة والألاف (ص: ٢٧٩).

الباب السادس:

انتكاسات

أشد عقوبة ربانية

يا ترى عن ماذا أحدثك، وكيف أبدأ لك، وماذا أقول لك، هل من العذاب الأليم في الدنيا، والنكال الشديد، والخزي العظيم، والعقوبة الأقسى، والحكم الأشق فيها، أم أحدثك عن النار التي تنتظر صاحب هذه العقوبة، والعذاب السرمدي الذي ينتظر صاحب هذه المصيبة العظيمة، أم أستحي وأترك الحديث عن تلك الجريمة الشنعاء، والكبيرة العظمى التي تخالف العقول، وكل الأديان، والأعراف، والفطر، بل هي كما قال هشام بن عبدالملك: "لولا أن الله أخبرنا في كتابه أن رجلًا يعتلي آخر ما صدقنا"!.

لا شك أنك عرفته إنه اللواط، ذلك الشذوذ الكبير عن الفطرة السوية، والمخالفة العظيمة لكل الأديان، والخروج الخطير عن المعقول والمألوف، ومع هذا تروج له الدول العظمى، وتسعى لفرضه على العالم بأسره، وتحت غطاء أممي، ومبرر شهواني، وتجاهل لكل دين وعرف وعقل وضمير!.

بداية النهاية

وفي قدر ظني أن هذه هي الكارثة الأخطر التي تمر بها البشرية حاليًا، والتهديد الكبير الذي يعم الكرة الأرضية واقعيًا، ولعلها آخر معصية تُفعل ثم ننتظر الحرب الضروس من رب العالمين: فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: " أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ " رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

العقوبة الأعظم

وهذه المصيبة العظيمة، والكبيرة الجليلة لم يجمع الله في كتابه الكريم على أمة من العذاب ما جمع على قوم لوط، بالرغم أن الأمم غيرها كفرت بربها، وأجرمت في أفعالها، وارتكبت العظائم غير اللواط، ومع هذا لم تصل جرائمهم لجريمة اللواط، ولم يستحقوا من العقوبة ما استحق اللوطي؛ فإنه جل وعلا ذكر لنا عن قوم لوط أنه طمس أعينهم، وأمر جبريل بقلع قراهم من أصلها ثم قلبها عليهم، ثم خسف الأرض بهم، وأرسل صيحة على قراهم، وزاد على ذلك أن أنزل الرجز العظيم، ثم أمطرهم حجارة من سجيل: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: ٨٢، ٨٣]، وفي سورة أخرى قال: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٧٣ - ٧٧]، وفي سورة الشعراء قال: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [الشعراء: ١٧٢، ١٧٣]، وأكد ذلك في سورة النمل فقال: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [النمل: ٥٨]، وفي سورة العنكبوت نجد: {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وأخيرًا قال في سورة القمر: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ

صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } [القمر: ٣٣ - ٣٩]، وبالتالي فلم يعاقب ﷻ أمة ما عاقب اللوطية بما جمع عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم: من عمى الأبصار، وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار، وجعل ديارهم وآثارهم عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وذلك كله في كتاب الله تعالى، أما في سنة المصطفى ﷺ فقد صح عنه فيما رواه أحمد وغيره وصححه الألباني: "مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، قَالَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِرَارًا ثَلَاثًا فِي اللُّوطِيَّةِ"، وفي رواية له وعند ابن حبان أيضًا: "لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ"، وفي الترمذي وصححه الألباني: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ"، وعند الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ، ارْجُمُوا الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ، ارْجُمُوهُمَا جَمِيعًا"، وهذه أصح الأحاديث وورد غيرها.

علامات قاتلة

والمشكلة أنها لا تقتل الشخص ويستريح، بل تنهي دينه ثم تتركه فريسة لها، وعابدًا خالصًا لهواها، وعلامة تلك العلاقة التي وصلت للهاوية، ولدرجات كبيرة من الغواية، وهي الكارثة العظمى، والمعضلة الكبرى التي قد لن تجد أعظم منها، ولن تصدق أن أشخاصًا وصل بهم الحد إليها، لكن أنبيك عن علاماتهم وستصدق ذلك حتمًا، وتعرفه واقعًا ملموسًا، وذلك أنك تجد هذا العاشق ينبسط انبساطًا زائدًا، وسرورًا مختلفًا عند وجود معشوقه معه، أو في مجلس وإياه، وينشرح صدره، ويكثر كلامه وضحكه، ويحاول أن يجذب الأنظار إليه، بل ويحاول الجلوس بجانبه دائمًا، والمشي معه، مع قبض اليدين على بعضهما، مع إدامة النظر إليه، وعدم غياب البصر عنه، ويغار عليه ممن مشى معه، أو كلمه، أو لمسه، ويود لو لم يفارقه لحظة، ولم يغب عن بصره ثانية، ولا يصبر إن غاب عنه، بل إما أن يراه كل يوم، أو يتصل به بالهاتف، أو ينظر إلى صورته، أو يقرأ رسائله، ويمتع نفسه بأي شيء من معشوقه.

واذكر من ذلك أن طالبًا جاءني وعيناه تعبّران عن حزن عميق، وسر دفين، وأرق وقلق، وهموم وتعب ونصب، فشكى لي حبه الذي لم يره حياته قط لأحد زملائه، حتى مما ذكر لي أنه لا يحب أحدًا يصلي بجواره، أو يجلس معه، أو ينظر إليه، أو يمشي وإياه، ولا أجد في قلبي أي مجال لسواه، ولا أفكر في كل أوقاتي بغيره، أنام

عليه، وأصبح عليه، حتى في النوم كل أحلامي فيه، وفكري عنده، حتى صلاتي كل لحظاتها معه، وكل أركانها وقلبي وعقلي لديه، يقدم إلي فأرتاح وكأن كل هموم الدنيا انزاحت، ويبتعد عني فيبدأ القلق والاضطراب والهموم والغموم والأحزان، وإن لقيته لا أصدق أني لقيته، أو هو عندي، أو أنا بجواره، وأخوف شيء عندي في الحياة فراقه، وباختصار: تضيق حياتي إن غاب عن نظري، وأملك الدنيا إن كان بجواري.

وأقول: والذي نفسي بيده إن هذا ليس من المعاصي وفقط بل هو من الشرك الأكبر، ومن العبادات التي لا تصلح إلا للرب الأكرم ﷻ، وهو ما يسميه العلماء بشرك المحبوبية، قال ابن القيم -رحمه الله-: (فلو خُيِّر بين رضاه -رضا المعشوق- ورضا الله لاختار رضا المعشوق على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، يسخط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله -إن جعل له- كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلة إذا زاد شيء، قد اتخذه وراءه ظهريًا، وصار لذكره نسيًا، إن قام في الصلاة فلسانه يناجيه، وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة، ووجه قلبه إلى المعشوق، ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر من ثقلها عليه، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه، وفرح

بها، خفيفةً لا يستثقلها ولا يستطيلها، ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله(١).

وعشقهم يجمع المحرمات الأربع من الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطانًا، والقول على الله ما لا يعلمون(٢)؛ فإن هذا من لوازم الشرك؛ فكل مشرك يقول على الله ما لا يعلم، فكثيرًا ما يوجد في هذا العشق من الشرك الأكبر والأصغر، ومن قتل النفوس تغايرًا على المعشوق، وأخذ أموال الناس بالباطل؛ ليصرفها في رضا المعشوق، ومن الفاحشة والكذب والظلم ما لا خفاء به، وأصل ذلك كله من خلو القلب من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتشريك بينه وبين غيره في المحبة، ومن محبة ما يحب لغير الله، فيقوم ذلك بالقلب، ويعمل بموجبه بالجوارح، وهذا هو حقيقة اتباع الهوى، وفي الأثر: "ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع"، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣]، وإذا تأمّلت حال عشّاق الصور المُتيّمين فيها وجدت هذه الآية منطبقة عليهم مخبرة عن حالهم.

---

(١) – يشير –رحمه الله– لقول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

(٢) – يشير للآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال بعض العلماء: ليس شيء من المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله، أو محبة بشر مثلك، أما محبة الله فهي التي خُلق لها العباد، وبها غاية سعادتهم، وكمال نعيمهم، وأما البشر المماثل من ذكر أو أنثى فإن فيه من المشاكلة والمناسبة بين العاشق وبينه ما ليس مثله، وبينه وبين جنس آخر من المخلوقات، ولهذا لا يعرف في محبة شيء من المحبوبات المخالفة للمحب في الجنس ما يزيل العقل، ويفسد الإدراك، ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، وإنما يعرف ذلك في محبته لجنسه، فتستوعب قلبه، وتسلب لبه، ويصير لمعشوقة سامعًا مطيعًا كما قيل:

إن هواك الذي بقلبي ... صيرني سامعًا مطيعا

ويقوى هذا السمع والطاعة عند كثير من العشاق حتى يبذل نفسه، ويسلمها للتلف في طاعة معشوقه، كما يبذل المجاهد نفسه لربه حتى يقتل في سبيله، وإذا كان النبي ﷺ قد قال في الحديث الذي رواه أحمد وغيره: "شارب الخمر أو قال مدمن (الخمر كعابد وثن")[1]، ومر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}، فما الظن بالعاشق المتيم الفاني في معشوقه، ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب، وهي الأصنام التي تعبد من دون الله فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

---

[1] - رواه ابن ماجه وصححه الألباني: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عمرو - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ("شَارِبُ الْخَمْرِ"، وفي رواية: "مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ، وَشَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى").

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩٠، ٩١]، ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره، بل لابد أن يفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره، وأما سكرة العشق فقل أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى، ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فجأهم عذاب الله وعقوبته وهم في سكرتهم يعمهون، فكيف إذا خرج العشق إلى حد الجنون المطبق)[١].

وقال: (ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلًا إلى قضاء الوطر منه شرعًا كالمردان[٢] الحسان؛ فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع، والداء العضال، وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشعبي مرسلًا قال: "قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة، فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره وقال: كانت خطيئة من مضى من النظر"[٣]، وقال سعيد بن المسيب -رحمه الله-: "إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه"، وقد ذكر ابن عدي في

---

(١) – إغاثة اللهفان (٢/ ١٥١)، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ – ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) – أصحاب الصور الجميلة من الغلامان عند البلوغ وبعده وقد يكون وقبله حسب مرض القلب لدى الناظر، وسيأتي الحديث عنهما قريبا.

(٣) – وهو حديث لم يثبت عنه ﷺ لكن جرت العادة على الاستشهاد به مع غيره مما لم يثبت في هذا الموضوع.

كامله من حديث بقية عن الوازع عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﵁ قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يحد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد"(١)، وكان إبراهيم النخعي وسفيان الثوري وغيرهما من السلف -رحمهم الله- ينهون عن مجالسة المردان، قال النخعي -رحمه الله-: "مجالستهم فتنة، وإنما هم بمنزلة النساء"، وبالجملة فكم من مرسل لحظاته رجع بجيش صبره مغلولًا، ولم يقلع حتى تشحط بينهم قتيلًا(٢).

---

(١) - وهو كسابقه.

(٢) - روضة المحبين (ص: ١٠٤) دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

البيان في حكم النظر للمردان

لن تجد سقطة أعظم، ولا بلية أخطر، ولا رزية أجل من تعلق القلب بشخص مثله فيعشقه كما تُعشق النساء، وينظر إليه بشهوة كما ينظر للجنس الآخر بل قيل: "مَا سَقَطَ عَبْدٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إِلَّا بِصُحْبَةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْتَانِ وَالأَحْدَاثِ"، وقال ابن المسيب: (إذا رأيتم الرجل يديم النظر إلى غلام أمرد فاتهموه)، وقال عمر ﷺ: (الغلام الأمرد أضر على العالم من السبع الضاري)، وقال ابن رجب: (لا يجوز النظر إلى الأمرد بشهوة وغيرها من غير حاجة كل ذلك لخوف الفتنة والوقوع في الهلكة)، والأمرد أو الحدث هو من لا لحية له ممن يُشتهى من الذكور، وخلاصة الحكم الشرعي في النظر إليه أنه يحرم في حال بالإجماع، ويجوز في حال آخر بالإجماع كذلك، ويختلف الحكم في حال ثالث.

فالأول: هو أن يقصد بالنظر إليه التلذذ، وإمتاع حاسة البصر بمحاسنه، وهؤلاء ممن فسدت طبائعهم، وزاد شرهم، وعظُم خبثهم، وهذا أجمع الفقهاء على حرمة النظر إليه، بل يعامل معاملة المرأة الأجنبية وأشد.

والثاني: هو أن ينظر إليه غير قاصد اللذة، وهو مع ذلك آمن الفتنة، فهذا لا خلاف في جواز نظره إليه، وكأنه ينظر إلى أي رجل مثله؛ لسلامة قلبه، وبقائه على الفطرة، وهذا هو حال أغلب الناس.

الثالث: أن يكون نظره إليه من غير لذة، لكن مع هذا لا يأمن الفتنة فهذا يحرم عليه أيضًا النظر إليه.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: (فَصَارَ النَّظَرُ إِلَى الْمُرْدِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا يَقْرُنُ بِهِ الشَّهْوَةَ فَهُوَ حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ.

وَالثَّانِي: مَا يَجْزِمُ أَنَّهُ لَا شَهْوَةَ مَعَهُ، كَنَظَرِ الرَّجُلِ الْوَرِعِ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ، وَابْنَتِهِ الْحَسَنَةِ، وَأُمِّهِ، فَهَذَا لَا يَقْرُنُ بِهِ شَهْوَةً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ، وَمَتَى اُقْتُرِنَتْ بِهِ الشَّهْوَةُ حَرُمَ، وَعَلَى هَذَا مَنْ لَا يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَى الْمُرْدِ كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ، وَكَالْأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ هَذَا الْوَجْهِ وَبَيْنَ نَظَرِهِ إِلَى ابْنِهِ، وَابْنِ جَارِهِ، وَصَبِيٍّ أَجْنَبِيٍّ، وَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ الشَّهْوَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَدَّ ذَلِكَ وَهُوَ سَلِيمُ الْقَلْبِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَتْ الْإِمَاءُ عَلَى عَهْدِ الصَّحَابَةِ يَمْشِينَ فِي الطُّرُقَاتِ وَهُنَّ مُتَكَشِّفَاتِ الرُّؤُوسِ، وَتَخْدُمُ الرِّجَالَ مَعَ سَلَامَةِ الْقُلُوبِ، فَلَوْ أَرَادَ الرِّجَالُ أَنْ يَتْرُكَ الْإِمَاءَ التُّرْكِيَّاتِ الْحِسَانَ يَمْشِينَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَالْأَوْقَاتِ، كَمَا كَانَ أُولَئِكَ الْإِمَاءُ يَمْشِينَ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْفَسَادِ، وَكَذَلِكَ الْمُرْدُ الْحِسَانُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَخْرُجُوا فِي الْأَمْكِنَةِ، وَالْأَزْمِنَةِ، الَّتِي يُخَافُ فِيهَا الْفِتْنَةُ بِهِمْ، إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، فَلَا يُمَكَّنُ الْأَمْرَدُ الْحَسَنُ مِنْ التَّبَرُّجِ، وَلَا مِنْ الْجُلُوسِ فِي الْحَمَّامِ بَيْنَ الْأَجَانِبِ، وَلَا مِنْ رَقْصَةٍ بَيْنَ الرِّجَالِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ فِتْنَةٌ لِلنَّاسِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ.

وَإِنَّمَا وَقَعَ النِّزَاعُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ النَّظَرِ؛ وَهُوَ: النَّظَرُ إِلَيْهِ لِغَيْرِ شَهْوَةٍ، لَكِنْ مَعَ خَوْفِ ثَوَرَانِهَا، فِيهِ وَجْهَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ، أَصَحُّهُمَا وَهُوَ الْمَحْكِيُّ عَنْ نَصِّ الشَّافِعِيِّ: إنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَالثَّانِي يَجُوزُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ ثَوَرَانِهَا، فَلَا يَحْرُمُ بِالشَّكِّ بَلْ قَدْ يُكْرَهُ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الرَّاجِحُ، كَمَا أَنَّ الرَّاجِحَ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ،

وَأَحْمَدَ: أَنَّ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لَا يَجُوزُ، وَإِنْ كَانَتْ الشَّهْوَةُ مُنْتَفِيَةً، لَكِنْ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ ثَوَرَانَهَا.

وَلِهَذَا حُرِّمَتْ الْخَلْوَةُ بِالْأَجْنَبِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مَظِنَّةُ الْفِتْنَةِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِلْفِتْنَةِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ، فَإِنَّ الذَّرِيعَةَ إِلَى الْفَسَادِ يَجِبُ سَدُّهَا إِذَا لَمْ يُعَارِضْهَا مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ، وَلِهَذَا كَانَ النَّظَرُ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الْفِتْنَةِ مُحَرَّمًا إِلَّا إِذَا كَانَ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ، مِثْلُ نَظَرِ الْخَاطِبِ، وَالطَّبِيبِ، وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّهُ يُبَاحُ النَّظَرُ لِلْحَاجَةِ، لَكِنْ مَعَ عَدَمِ الشَّهْوَةِ، وَأَمَّا النَّظَرُ لِغَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى مَحَلِّ الْفِتْنَةِ فَلَا يَجُوزُ، وَمَنْ كَرَّرَ النَّظَرَ إِلَى الْأَمْرَدِ وَنَحْوِهِ، أَوْ أَدَامَهُ، وَقَالَ: إِنِّي لَا أَنْظُرُ لِشَهْوَةٍ كَذَبَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ دَاعٍ يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى النَّظَرِ لَمْ يَكُنْ النَّظَرُ إِلَّا لِمَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ مِنْ اللَّذَّةِ بِذَلِكَ)(١).

وقد تحدثنا عن هذا الحكم الفقهي، وما سيأتي مع أن حقه التأخير للباب السابع: فقهيات، وذلك لكونه ألصق بهذا الموضوع، وحتى نجمع المتشابه مع بعضه، ونلصق النظير بنظيره، ولا نشتت ذهن القارئ الكريم.

---

(١) - بيان الدليل على بطلان التحليل (٢/ ٢٧٩)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٦).

خوف السلف من فتنة النظر للمردان

ومع أنك لن تجد أعظم من قلوب السلف الصالح، ولا أطهر، ولا أنقى، ولا أصفى، ولا عن الفتنة من قلوبهم وهم الذين زكاهم رسول الله ﷺ: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" رواه البخاري ومسلم، ومع هذا وأعظم فقد كانوا أخوف الناس من فتنة النظر للمردان؛ لأنهم أصل الفتن، وشر من يمكن الوصول إليهم، وأقرب من النساء في هذا الجانب، فهذا أحمد بن صالح أبو جعفر المصري وكان أحد حفاظ الأثر[١]، عالمًا بعلل الحديث، بصيرًا باختلافه، وقدم بغداد، وجالس بها الحفاظ، وجرى بينه وبين أحمد بن حنبل مذاكرات، وكان أبو عبد الله يذكره ويثنى عليه، وقد حدث عنه الأئمة البخاري، وأبو داود، وغيرهما، كان لا يحدث إلا ذا لحية، ولا يترك أمرد يحضر مجلسه، فلما حمل أبو داود السجستاني ابنه إليه؛ ليسمع منه، وكان إذ ذاك أمرد، أنكر أحمد بن صالح على أبي داود إحضاره ابنه المجالس، فقال له أبو داود: هو وإن كان أمرد أحفظ من أصحاب اللحى، فامتحنه بما أردت فسأله عن اشياء أجابه عنها فحدثه ولم يحدث أمرد غيره.

---

(١) – انظر هذه القصص –وغيرها– وبسندها في ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، وتجدها في غيره متفرقة.

وقال الزنجاني في روايته للقصة: كان أحمد بن صالح يمتنع على المرد من رواية الحديث لهم؛ تعففًا وتنزهًا ونفيًا للظنة عن نفسه، وكان أبو داود يحضر مجلسه، ويسمع منه، وكان له ابن أمرد يحب أن يسمعه حديثه، وعرف عادته في الامتناع، فاحتال أبو داود بأن شد على ذقن ابنه قطعة من الشعر؛ ليوهمه ملتحياً، ثم أحضره المجلس، وأسمعه جزءًا، فأخبر الشيخ بذلك، فقال لأبي داود: مثلي تعمل معه مثل هذا؟ فقال له: أيها الشيخ لا تنكر على ما فعلته، واجمع ابني مع شيوخ الفقهاء والرواة؛ فإن لم يقاومهم بمعرفته فاحرمه السماع، فاجتمع طائفة من الشيوخ فتعرض لهم هذا الابن مطارحًا، وغلب الجميع بفهمه، ولم يرو له مع ذلك الشيخ حديثًا من حديثه، وحصل له ذلك الجزء الأول، وكان ابن أبي داود يفتخر برواية هذا الجزء الواحد.

وقال الزنجاني: وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد لمجلسه للسماع، فاحتال هشام بن عمار شيخ البخاري فدخل في غمار الناس مستترًا بهم وهو أمرد، فسمع معهم ستة عشر حديثًا فأُخبر بذلك مالك، فأحضره وضربه ستة عشر سوطًا، فقال هشام: ليتني سمعت مائة حديث، وضربني مائة سوط.

وقال سمعت جنيدًا يقول: جاء رجل إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل ومعه غلام حسن الوجه، فقال له: من هذا؟ قال: ابني، فقال أحمد: لا تجيء به معك مرة أخرى، فلما قام قال له محمد بن عبد الرحمن الحافظ الخطيب: أيد الله الشيخ إنه

رجل مستور، وابنه أفضل منه، فقال أحمد: الذي قصدنا إليه من هذا الباب ليس يمنع منه سترهما، على هذا رأينا أشياخنا، وبه خبرونا عن أسلافهم رحمهم الله.

قال أبو بكر المروزي: جاء حسن بن البزاز إلى أبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- ومعه غلام حسن الوجه، فتحدث معه، فلما أراد أن ينصرف قال له أبو عبد الله: يا أبا علي لا تمش مع هذا الغلام في طريق، فقال له: إنه ابن أختي، قال: وإن كان لا تؤثم الناس فيك، وحدثنا أبو أسامة قال: كنا عند شيخ يُقرئ، فبقي عنده غلام يقرأ عليه، وأردت القيام، فأخذ بيدي، وقال: اصبر حتى يفرغ هذا الغلام، وكره أن يخلو هو والغلام.

قال أبو حمزة: نظر محمد بن عبيد الله بن الأشعث الدمشقي وكان من خيار عباد الله إلى غلام جميل فغشي عليه، فحمل إلى منزله واعتاده السقم حتى أقعد من رجليه، وكان لا يقوم عليهما زمنًا طويلًا، وكنا نأتيه نعوده ونسأله عن حاله وأمره وكان لا يخبرنا بقصته، ولا بسبب مرضه، وكان الناس يتحدثون حديث نظره، فبلغ ذلك الغلام فأتاه عائدًا فهش إليه، وتحرك، وضحك في وجهه، واستبشر برؤيته، فما زال يعوده حتى قام على رجليه، وعاد على حالته، فسأله الغلام يومًا المصير معه إلى منزله فأبى أن يفعل، وكلمني أن أسأله أن يتحول إليه فسألته فأبى، فقلت: وما الذي تكره من ذلك؟، فقال: لست بمعصوم من البلاء، ولا آمن من الفتنة،

وأخاف أن يقع علي من الشيطان محنة فيجري بيني وبينه معصية فأكون من الخاسرين.

وعمومًا فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما في الفتاوى الكبرى: (وَمَا زَالَ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ: كَشُيُوخِ الْهُدَى، وَشُيُوخِ الطَّرِيقِ، يُوصُونَ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ حَتَّى يُرْوَى عَنْ فَتْحٍ الْمَوْصِلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَحِبْت ثَلَاثِينَ مِنْ الْأَبْدَالِ، كُلُّهُمْ يُوصِينِي عِنْدَ فِرَاقِهِ بِتَرْكِ صُحْبَةِ الْأَحْدَاثِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا سَقَطَ عَبْدٌ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ إلَّا بِصُحْبَةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْتَانِ)[١].

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٢٨٨).

خطورة جريمة اللواط

وبعد سوقي لما سبق دعني هنا أنقل لك كلامًا رصينًا، وقولًا حكيمًا، وبيانًا شافيًا، وإقناعًا وافيًا، يخاطب العقول الحية، والضمائر المتوقدة، يحترق لها الفؤاد، وتقشعر لهولها الأبدان: (ولأنْ يُقتل المفعولُ به خير له من أن يُؤتى؛ فإنّه يَفسد فسادًا لا يرجى له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كلّه، وتُمَصّ الأرض ماويّة الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السمّ في البدن.

وقد اختلف الناس: هل يدخل الجنّةَ مفعول به؟ على قولين سمعتُ شيخ الإسلام يحكيهما، والذين قالوا: لا يدخل الجنّة، احتجّوا بأمور: منها: أنّ النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنّة ولد زنية"(١)، فإذا كان هذا حال ولد الزنى، مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنّه مظنّة كل شرّ وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبدًا؛ لأنّه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربّى على الحرام، النارُ أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام، قالوا: والمفعول به شرّ من ولد الزنى، وأخزى، وأخبث، وأوقح، وهو جدير أن لا يوفَّق لخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلّما عمل خيرًا قُيِّض ما يفسده عقوبةً له. وقلّ أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شرّ مما كان، ولا يوفّق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح)(٢).

---

(١) – أخرجه أحمد وابن حبان والنسائي.

(٢) – الداء والدواء ط المجمع (١/ ٣٨٢).

حد اللوطي

ولجريمة فعله، وشناعة ما أتى به، ومخالفته للفطرة، والعقول السوية، ولكل الأديان السماوية فقد نقل ابن القيم رحمه الله -كما في الداء والدواء- إجماع الصحابة على قتله بالرغم قلة إجماعاتهم -رضوان الله عليهم-، بل كانوا يحرقونه بالنار كما ذكر الصنعاني ذلك في سبل السلام: "حَرَقَ اللُّوطِيَّةَ بِالنَّارِ أَرْبَعَةٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ"(١)، بل قال حبر الأمة ابن عباس -رضي الله عنهما-: "اللوطي إذا مات من غير توبة مُسخ في قبره خنزيرًا"، وقال بعض العلماء: (إذا علا الذكرُ الذكر هربت الملائكة، وعجت الأرض إلى ربها، ونزل سخط الجبار ﷻ عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفت بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم، وثقل العرش على حملته، وكبّرت الملائكة، واستعرت جهنم، فإذا قبضت روحه جعلت مع أرواح الزناة في تنور من النار)، وبمثلها يتعظ العقلاء، ويرتدع النبهاء، فضلًا عن الإحراق بالنار، والخزي والعار، والذل والهوان والصغار، وفي الدنيا فيكف بالأخرى: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة: ٣٨]!.

وأنقل عن ابن الجوزي في ذم الهوى ما نقله عن العلماء وبالتالي كفيت العناء، وأحلت إلى إمامٍ للفضلاء فقال -رحمه الله تعالى-: (عن محمد بن المنكدر أن خالد بن

---

(١) – سبل السلام – (ج ٦ / ص ٢١).

الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه وجد رجلًا في بعض الأضاحي ينكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم علي بن أبي طالب، فقال علي: إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار، قال: وقد حرقهم ابن الزبير، وهشام بن عبد الملك، وعن يزيد بن قيس أن عليًا رضي الله عنه رجم لوطيًا، وعن سعيد بن يزيد قال سُئل ابن عباس -رضي الله عنهما- ما حد اللوطي؟ قال: ينظر أعلى بيت في القرية فيرمى منكسًا ثم يتبع بالحجارة، وعن الشعبي وابن المسيب قال: اللوطي يرجم أحصن أو لم يحصن، وعن عطاء والحسن قال: يحد حد الزنا، وعن الزهري قال: يرجم إن أحصن أو لم يحصن، وكذلك قال ربيعة، وابن هرمز، وقال مالك يرجم أحصن أو لم يحصن، وقال الكوسج قلت لأحمد بن حنبل: أيرجم اللوطي أحصن أو لم يحصن؟ قال: يرجم أحصن أو لم يحصن، وقال إسحاق بن راهويه كما قال أحمد، وقد روي عن أحمد أن حد اللوطي كحد الزاني يختلف بالثيوبة والبكارة، وهذا قول أبي يوسف ومحمد، وعن الشافعي كالروايتين عن أحمد، وقال الحكم: يضرب اللوطي دون الحد، وإلى هذا مال أبو حنيفة[١]، وقال النخعي: لو كان أحد ينبغي أن يرجم مرتين لكان ينبغي للوطي أن يرجم مرتين، وعن مجاهد قال: لو أن الذي يعمل ذلك العمل -يعني عمل

(١) – قال الكشميري في العرف الشذي موضحًا مذهب الحنفية: (وإن كان أشد من الزنا فإنه ليس بزنا ويعزر الإمام بما بدا له من الإحراق أو هدم الحائط عليه) العرف الشذي للكشميري (٣/ ١٧٩).

قوم لوط- اغتسل بكل قطرة في السماء، وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسا)[1]، وبمثل هذه الأحكام والأقوال تُنسى الملذات والمتع الزائلات.

وقال الإمام البغوي في شرح السنة: (اختلف أهل العلم في حد اللوطي، فذهب قوم إلى أن حد الفاعل حد الزنى، إن كان محصنًا يرجم، وإن لم يكن محصنًا يجلد مائة، وهو قول سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والحسن، وقتادة، والنخعي، وبه قال الثوري، والأوزاعي، وهو أظهر قولي الشافعي، ويحكى أيضًا عن أبي يوسف، ومحمد، وعلى المفعول به عند الشافعي على هذا القول جلد مائة وتغريب عام رجلًا كان أو امرأة، محصنًا كان أبو غير محصن؛ لأن التمكين من الدبر لا يحصنها، فلا يلزمها به حد المحصنات، وذهب قوم إلى أن اللوطي يرجم محصنًا كان أو غير محصن، رواه سعيد بن جبير، ومجاهد عن ابن عباس، وروي ذلك عن الشعبي، وبه قال الزهري، وهو قول مالك، وأحمد، وإسحاق، وروى حماد عن إبراهيم قال: "لو كان أحد يستقيم أن يرجم مرتين لرجم اللوطي"، والقول الآخر للشافعي: أنه يقتل الفاعل والمفعول به، كما جاء في الحديث، وعند أبي حنيفة يعزر ولا يحد، وقد رُوي عن جابر وأبي هريرة عن النبي ﷺ في اللواطة أنه يقتل الفاعل

---

(١) – ذم الهوى (ص: ٢٠٣).

والمفعول به، وقد قيل في كيفية قتلها: هدم البناء عليها، وقيل: رميها من شاهق كما فُعل بقوم لوط)[١].

فرأينا مذهب الأئمة الأربعة أن الشافعي ووافقه محمد بن الحسن وأبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة -رحمهم الله- يقولون: يحد حد الزنا المحصن الرجم، والبكر الجلد مائة مع التغريب سنة، وعند مالك وأحمد الرجم على كل حال محصنًا كان أو لم يكن، وعند أبي حنيفة التعزير وقد بينا تعليله رحمه الله كما نقل الكشميري في العرف الشذي: (وإن كان أشد من الزنا فإنه ليس بزنا ويعزر الإمام بما بدا له من الإحراق أو هدم الحائط عليه)[٢].

بل أشد من هذا ما جاء في حكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ضربه الرجل الذي ضم صبيًا حتى أمنى ضربًا كان سببًا للمنية، وهي ضمة من خلف الثياب، وأمام الناس، وأيضًا ورد إعجاب الإمام مالك -رحمه الله- باجتهاد الأمير الذي ضرب صبيًا مكّن رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل فضربه إلى أن مات.

---

(١) – شرح السنة للإمام البغوي متنا وشرحا (١٠/ ٣٠٩)، وانظر: شرح سنن ابن ماجه للسيوطي (ص: ١٨٤)، وعون المعبود (١٢/ ٩٩)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١١/ ١٩٨)، وتحفة الأحوذي (٥/ ١٧).

(٢) – العرف الشذي للكشميري (٣/ ١٧٩).

فماذا نقول بعد هذا البيان لمن أصم أذنيه، وتعمّد أن يعمي ناظريه حتى يعم العقاب، وينزل العذاب: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥]، وهذا نبينا ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: " أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ ".

الباب السابع:

فقهيات

وعلى عجالة سريعة نتطرق هنا للأحكام الشرعية في بعض متعلقات النظر، والأمور المقاربة لذلك، مع أن بعضها قد ذكرناها فيما مضى كأمر لا بد منها من باب الشيء بالشيء يذكر، وما لا يصح تأخيره، ولهذا لا غنى عما سبق.

حكم الاستمناء

والاستمناء هو إخراج المني بأي وسيلة كانت أخرج بها منيه غير الجماع، وهو محرم عند أكثر الفقهاء، وهو الذي يدل عليه كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ كما قال الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان عند تفسيره لقول المولى جل وعلا: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: ٥ - ٧]، قال ما نصه: (الذي يظهر لي أن استدلال مالك والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة، وما روي عن الإمام أحمد مع علمه وجلالته وورعه من إباحة جلد عميرة مستدلاً على ذلك بالقياس قائلاً: هو

إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاز؛ قياسًا على الفصد والحجامة، كما قال في ذلك بعض الشعراء:

إذا حللت بواد لا أنيس به فاجلد عميرة لا عار ولا حرج

فهو خلاف الصواب، وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها؛ لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار، فالله جل وعلا قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} ولم يستثن من ذلك ألبتة إلا النوعين المذكورين في قوله تعالى: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} وصرح برفع الملامة في عدم حفظ الفرج عن الزوجة والمملوكة فقط، ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين دالة على المنع هي قوله: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون:٧]، وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره ناكح يده، وظاهر عموم القرآن، لا يجوز العدول عنه إلا لدليل من كتاب أو سنة يجب الرجوع إليه، أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى)[1].

على أن الإمام أحمد له رواية أخرى توافق قول الجمهور كما نقلها ابن تيمية: (أَمَّا الاسْتِمْنَاءُ بِالْيَدِ فَهُوَ حَرَامٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ، وَكَذَلِكَ يُعَزَّرُ مَنْ فَعَلَهُ، وَفِي الْقَوْلِ الْآخَرِ هُوَ مَكْرُوهٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُبِيحُونَهُ

---

(١) – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢٦/ ٢٥).

لِخَوْفِ الْعَنَتِ وَلَا غَيْرَهُ، وَنُقِلَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُمْ رَخَّصُوا فِيهِ لِلضَّرُورَةِ: مِثْلُ أَنْ يَخْشَى الزِّنَا فَلَا يُعْصَمُ مِنْهُ إلَّا بِهِ، وَمِثْلُ أَنْ يَخَافَ إنْ لَمْ يَفْعَلْهُ أَنْ يَمْرَضَ، وَهَذَا قَوْلُ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ، وَأَمَّا بِدُونِ الضَّرُورَةِ فَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا رَخَّصَ فِيهِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ)(١).

بل قال في إجابة أخرى على سؤال سائل: (وَأَمَّا إنْزَالُهُ بِاخْتِيَارِهِ بِأَنْ يَسْتَمْنِيَ بِيَدِهِ: فَهَذَا حَرَامٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ أَحَدُ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ، بَلْ أَظْهَرُهُمَا، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ)(٢)، وهكذا نقل التحريم بأنه قول الأكثرية أغلب الفقهاء والمفسرين، وللعلم أن الزيدية ممن يرون الحرمة كما نقله عنهم الصنعاني والشوكاني وسيد سابق من المتأخرين(٣)، وأعظم مما سبق ما نقلته الموسوعة الفقهية الكويتية من اتفاق على تعزير الفاعل بعد أن نقلت قول أكثر الفقهاء بالحرمة: الاستمناء المحرم يعزر فاعله باتفاق ، لقوله تعالى : {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المؤمنون: ٥، ٦] (٤).

وأختم بقول الإمام القرطبي -رحمه الله-: (قال بعض العلماء، إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قيلة، ويا ليتها لم

---

(١) – الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٣٩).

(٢) – الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٣٩)

(٣) – انظر مثلًا فقه السنة (٢/ ٤٣٥).

(٤) – الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/ ١٠٢).

تُقَل؛ ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها، فإنْ قيل: إنها خير من نكاح الأمَة؛ قلنا: نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا -وإنْ كان قد قال به قائل أيضًا- ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل، عار بالرجل الدنيء، فكيف بالرجل الكبير)(١).

(١) – الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٠٦).

مخاطر الاستمناء الجسدية والنفسية

لا ريب أن للحرام مخاطره الجسيمة، وعواقبه الشديدة في الدنيا والآخرة؛ إذ أن حكمته ﷻ اقتضت أن لا يحل أو يحرم إلا لحكمة بالغة، وأن الخير في اتباعه دون نظر في العلة؛ إذ قال: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]، وبالتالي فللحرام مخاطر كثيرة نفسية، وجسدية ودينية، ومالية، واجتماعية...(فأما الجسدية: فقد ذكر بعض أهل الطب من أضرار تلك العادة: ضعف البصر والأعصاب عمومًا، وضعف عضو التناسل، والالتهاب المنوي، وألآم الظهر، ورعشة الأعصاب، وكذلك فهو يحل ماء فاعله؛ فبعد أن يكون مَنِيّهُ غليظًا ثخينًا يصير بهذه العملية رقيقًا، وقد يولد منه ولد ضعيف، والقاعدة الشرعية تقول : "لا ضرر ولا ضرار"، وبينما كان يُرى الشاب من هؤلاء المصابين قوي الأعضاء، جمّ النشاط، يشعل ذكاءً وفتوة، ويلتهب حماسًا وقوة، تجري نضرة الشباب في وجهه، ويغلي دم الحياة في عروقه، إذا أنت تراه - وقد أنهكه ذلك الفعل - خائر الأعضاء، فاقد النشاط، قد استحال ذكاؤه إلى غباوة وأفن، وانقلب حماسه وقوته إلى ضعف ووهن، وصارت نضرته صُفْرَة تنذر بحلول داءٍ عياء، وهبطت حرارة الدم فيه بنسبة ما أخرج من الماء، والتحق بالشيوخ الهرامى، وهو لا يزال بعد في سن الشباب، كل هذه البلايا بفضل ذلك الفعل الخبيث، ولا غرو فإن ماء الرجل قوة عقله، ونضارة وجهه، ومخ ساقه، وخلاصة عروقه:

احفظ منيَّك ما استطعت فإنه ... ماء الحياة يصب في الأرحام

وأما عن النفسية فحدث ولا حرج من عدم ثقته بنفسه، وانهزامه أمام كل شيء في الحياة، وتعقده مما يبدو له صغيرًا كان أو كبيرًا.

ومن القناعات التي تحتاج إلى مراجعة أيضًا ظن بعضهم أن الاستمناء يحل مشكلة الشهوة المتفاقمة، وأنه يطفئ نارها، والحق أنه حلٌّ مؤقت بل وهمي، بل الذي يحدث أن من يمارسها يشعر بالحاجة إلى ممارستها مرة أخرى بعدها مباشرة، وهكذا يصاب بالانهماك، ثم لو أطفأ نار الشهوة يومًا، فإنها لا تلبث أن تستعر بسرعة فيعود إلى الوقوع فيها وهكذا؛ فهو أراد الهروب من مشكلة فوقع في مصيبة).

حكم تناول دواء لقطع الشهوة

وهنا يتساءل الشباب العزاب عن هل بالإمكان قطع الشهوة بالعلاج، أو استعمال ما يسكن ذلك إن لم يقطعه كليًا، والحقيقة أن هذه المسألة قد ناقشها الفقهاء عند تناولهم لشرح الحديث السابق: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"، فقد قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في فتح الباري: (واستدل به الخطابي على جواز المعالجة لقطع شهوة النكاح بالأدوية، وحكاه البغوي في شرح السنة، وينبغي أن يُحمل على دواء يسكن الشهوة دون ما يقطعها أصالة؛ لأنه قد يقدر بعد فيندم لفوات ذلك في حقه، وقد صرح الشافعية بأنه لا يكسرها بالكافور ونحوه، والحجة فيه إنهم اتفقوا على منع الجب والخصاه فيلحق بذلك ما في معناه من التداوي بالقطع أصلًا)(١)، وبالتالي فقد نقل -رحمه الله- الاتفاق على حرمة قطعها نهائيًا، وجواز قطعها مؤقّتًا، ويعود أيضًا لقرار الطبيب فإذا كان فيه ضرر فلا يحل، وهذا في تخفيفها أما قطعها بالكلية فلا يحل كما سبق من اتفاق، ولما في البخاري ومسلم: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: "رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا"، وعند النسائي وأحمد عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ (أَنَّهُ دَخَلَ

---

(١) – فتح الباري – ابن حجر (٩/ ١١١) دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ، وانظر: كشف اللثام شرح عمدة الأحكام (٥/ ٢٤٩)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت، دار النوادر سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م، والبدر التمام شرح بلوغ المرام (٧/ ١٣) دار هجر، الطبعة: الأولى.

عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ﵂ قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنِ التَّبَتُّلِ، فَمَا تَرَيْنَ فِيهِ؟، قَالَتْ: لَا تَفْعَلْ، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ - عز وجل - يَقُولُ: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً}، أَمَا تَقْرَأُ {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}" فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ، فلَا تَتَبَتَّلْ)، وعند البيهقي وأحمد: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: ("كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ، وَيَنْهَى عَنِ التَّبَتُّلِ نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأَنْبِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَكُونُوا كَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارَى")، وعند أصحاب السنن عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﵁ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ التَّبَتُّلِ"، وبالتالي فلا يجوز تعاطي دواء يقطع الشهوة بالكلية، وإذا كان هناك دواء فيجب ألا يكون له أضرار: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩]، وليلزم الصيام؛ فإنه وقاية من الحرام كما أخبر عليه الصلاة والسلام؛ فكلما قلَّ الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلّت المعاصي: "الصَّوْمُ جُنَّةٌ"، رواه الترمذي وغيره، والجُنة الوقاية، وقال ﷺ في الحديث القدسي: "يَدَعُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي" رواه البخاري ومسلم.

حكم الاستمناء بيد زوجته

أما الاستمناء بيد الزوجة فجائز لا حرج منه؛ إذ هو نوع استمتاع بها، وكل استمتاع بالزوجة فالأصل جوازه غير الدبر في كل وقت، والقبل وقت حيضها ونفاسها، فمن كانت زوجته في عذر لا يمكنه مجامعتها فليتجه لاستفراغ منيّه بيدها لا بيده.

إتيان البهيمة

قد نقل الإجماع على إتيان البهيمة كثير من الفقهاء، بل ذهب بعضهم لقتله كما هو مذهب الشافعي ورواية لأحمد كما نقل ذلك ابن تيمية: (هَذَا فِيهِ حَدِيثٌ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي السُّنَنِ وَهُوَ قَوْلُهُ: "مَنْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ، وَاقْتُلُوهَا" وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ، كَأَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ، وَمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ)[١]، والحديث المستدل به رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وفي الموسوعة الفقهية الكويتية: (وقد اختلف الفقهاء في عقوبة آتي البهيمة على أربعة أقوال:

أحدها: لجابر بن زيد، والحسن بن علي، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد في قول لهما: وهو أن عليه حد الزنا، فيرجم إن كان محصنًا، ويجلد إن كان غير محصن، وذلك لأنه إيلاج في فرج محرم شرعًا، كالقبل من المرأة، فوجب به حد الزنا.

الثاني: رواية عن أحمد، وقول آخر للشافعي، ورواية عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وهو أنه يقتل في كل حال، محصنًا كان أو غير محصن رجمًا بالحجارة، وفي قول للشافعية يقتل صبرًا بالسيف؛ لحديث ابن عباس مرفوعًا: "من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه"[٢]؛ ولأنه وطء لا يباح بحال، فكان فيه القتل كاللوطي)[٣].

---

(١) – الفتاوى الكبرى (٣/ ٤١٣).

(٢) – تقدم قريبًا: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

(٣) – الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٤/ ٣٢).

حكم من جامع زوجته وهو يفكر في غيرها

وهنا سؤال يردني كثيرًا مع أنه غريب على أصحاب القلوب الطاهرة، والعيون العفيفة مفاده: أن بعضهم قد تكون له علاقة سابقة بامرأة سواء من جهة حب، أو فاحشة، أو بمنظر حرام لفيديو أو صورة... فعند جماعه لزوجته يتخيل تلك وهو يجامعها، ولا ريب في حرمة هذا التفكر، وخطره، وخطورته على دين الفاعل حتى قال ابن تيمية: (وأما من فعل ذلك تلذذًا أو تذكرًا أو عادة، بأن يتذكر في حال استمنائه صورة كأنه يجامعها، فهذا كله محرم لا يقول به أحمد ولا غيره، وقد أوجب فيه بعضهم الحد، والصبر عن هذا من الواجبات لا من المستحبات)(١)، وفي البخاري ومسلم: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاِسْتِمَاعُ، وَزِنَا الْفَمِ الْقُبَلُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالْفَرْجُ: يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ، أَوْ يُكَذِّبُهُ". وهذا التفكر يدخل في الزنا المعنوي.

---

(١) – مجموع الفتاوى(١٠/ ٥٧٣) دار الوفاء الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

حكم نكاح الدبر

مع أخلاقيات الغرب المنحطة، وفجورهم المنتشر في النت بقوة، وغزوهم لعقول أبناء المسلمين بكل شراسة فإن هذا السؤال يردني كثيرًا جدًا فأختصر القول فيه هنا بأنه لا يحل نكاح الدبر بحال من الأحوال، وتحت أي ظرف كان، ويجب على المرأة أن تطلب الطلاق إن كان زوجها يريد هذا منها، ويراودها عليه، وقد وردت أحاديث كثيرة تحرم ذلك كحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَعَنْ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ"، وصححه الألباني، وعند الطيالسي وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ أَتَى النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ"، وعند الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني: وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ"، وللنسائي وأحمد: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا: "هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى"، وعند البيهقي: عَنِ طَاوُسٍ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - عَنِ الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا، فَقَالَ: هَذَا يَسْأَلُنِي عَنِ الْكُفْرِ"، وللنسائي: عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ - رضي

الله عنهما -: "إِنَّا نَشْتَرِي الْجَوَارِيَ فَنُحَمِّضُ لَهُنَّ، قَالَ: وَمَا التَّحْمِيضُ؟ قَالَ: نَأْتِيهُنَّ فِي أَدْبَارِهِنَّ، قَالَ: أَوَّ، أَوَ يَعْمَلُ هَذَا مُسْلِمٌ؟!"، هذا عن الأحاديث والأمر يطول في سرد ما صح وما فيه مقال.

وأما عن أقوال الأئمة فقد قال ابن تيمية -رحمه الله-: (وطء المرأة في دبرها حرام بالكتاب والسنة، وهو قول جماهير السلف والخلف؛ بل هو اللوطية الصغرى، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ"، وقد جاء في غير أثر: أن الوطء في الدبر هو اللوطية الصغرى وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في حشوشهن" و الحش هو الدبر، وهو موضع القذر والله سبحانه حرم إتيان الحائض مع أن النجاسة عارضة في فرجها فكيف بالموضع الذي تكون فيه النجاسة المغلظة: وأيضًا فهذا من جنس اللواط)[1]، وفي المحلى لابن حزم: (وَمَا رَوَيْت إبَاحَةَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ إلا عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَحْدَهُ بِاخْتِلافٍ عَنْهُ، وَعَنْ نَافِعٍ بِاخْتِلافٍ عَنْهُ، وَعَنْ مَالِكٍ بِاخْتِلافٍ عَنْهُ فَقَطْ)(٢)، وهي روايات لم تصح عند العلماء، وردوها مطلقا.

---

(١) – مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٦٦).

(٢) – المحلى (٩/ ١٥١).

حكم مص الفرج

وهذه المسألة لا تخلو عن سابقتها من التأثر بالفجور المنتشر لكن شرعًا ومع ما في مص فرجها، أو مصها لذكره من دناءة لكن لا أرى مانعًا من ذلك؛ كون الأصل فيما بين الزوجين الإباحة، ولم يأت الدليل إلا بتحريم الدبر في كل وقت، والقبل وقت حيض ونفاس، وما عدا ذلك فجائز لا حرج منه، وهذه المسألة منها.

حكم بيع كروت ورصيد النت وبث الشبكات

لا ريب أن الأصل في الأشياء الإباحة، وأن النت في عصرنا أصبح حاجة ملحة، وضرورة إنسانية لا يمكن الاستغناء عنها، لكن ليس كل ما هو كذلك فيجب على الشرع أن يأذن له، وأن يفتح له مجاله، ويوسع له طريقه، بل العكس هو الصحيح فيجب على كل شيء أن يخضع للشرع، وأن يأخذ رخصة منه ليمارس مهامه دون تمرد على ربه ﷻ، ومن ذلك النت بأنواعه، وكلما يخدمه ما دام وأن صاحبه لا يمكنه حجب المحرمات عنه.

ولا يقل قائل حكمه حكم التلفاز والسكين والسلاح، فهو لا ريب أبعد منها جميعًا؛ إذ هذه فعل الحرام بها قليل ونادر جدًا، والعبرة في الشرع بالغالب لا القليل النادر، ولهذا لما حرم الخمر والميسر حرمهما مع ما فيهما من خير قليل فقال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩]، والنت لا ريب أن الخير الذي فيه أكثر وأعظم من الشر، لكن يغلب على الناس الدخول للحرام من خلاله، وبأرقام قياسية تصل لأكثر من ثلثي المجتمع كما تقدم معنا مرارًا، ويكفي لو عدت لإحصائية قوقل في مقدمة كتابي هذا، وبالتالي فالحكم الشرعي سيكون على الأكثر الأغلب لا النادر الأقل.

وقد يقول قائل فما ذنب البائع، وأقول:

١- هو أعان على الإثم والعدوان، وقد قال الله: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢]، فيسّر الحرام، وأعان عليه، وقرّبه للآخرين ببيع الرصيد، أو بتقريب الشبكات لهم، وبثها في مساكنهم.

٢- أن النبي ﷺ قال كما في صحيح مسلم: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"، وقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه كما في البخاري ومسلم: "فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"، وهذا ماذا نقول عنه بسنه للأوزار، وعليه وزره ووزر من نظر لحرام، ومسخ الشباب بدلًا عن هدايتهم، وأضلهم بدلًا أن يرشدهم!.

٣- أن النبي ﷺ لعن في الخمر عشرة، ولم يلعن الشارب وحده بل ومن عاونه، وتسبب في شربه من قريب أو بعيد فقال ﷺ: "لَعَنَ اللَّهُ فِي الْخَمْرِ عَشَرَةً: شَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وآكل ثمنها، ومُعتَصِرَهَا، وحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وآكِلِ ثَمَنِهَا" رواه الترمذي وابن ماجه.

٤- أن الشرع أوجب كفارة القتل من دية وصيام شهرين متتابعين لمن قتل بالتسبب لا بالمباشرة كراكب مع شخص في سيارة فانقلبت دون تعمد.

٥- وقد ناقش الفقهاء حرمة بيع السلاح وقت الفتنة، وكذا العنب لمن يتخذه خمرًا، والفتيان الرقيق لمن يفعل بهم الفاحشة... وغير هذه من المسائل التي

لا علاقة مباشرة للطرف البائع، قال صاحب جامع العلوم والحكم: (لا يجوز بيع العصير ممن يتخذه خمرًا، ولا بيع السلاح في الفتنة، ولا بيع الرياحين والأقداح لمن يعلم أنه يشرب عليها الخمر، والغلام لمن يعلم منه الفاحشة)[1]، وبوّب البخاري في صحيحه فقال: (بَابُ بَيْعِ السِّلاَحِ فِي الفِتْنَةِ وَغَيْرِهَا)، بل عند البيهقي والطبراني وغيرهما: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ السِّلَاحِ فِي الْفِتْنَةِ"، وفي الموسوعة الفقهية الكويتية: (ذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم بيع السلاح للبغاة وأهل الفتنة؛ لأن هذا سد لذريعة الإعانة على المعصية، وكذا ما كان في معنى البيع من إجارة أو معاوضة)[2].

٦- منع الفقهاء -كالمالكية مثلًا- تصدير أي شيء لبلاد الحرب حتى الأطعمة؛ لأن فيه تقوية لهم، وإعانة علينا، قال في الموسوعة الفقهية الكويتية: (كما أنه لا يجوز تصدير الأطعمة ونحوها إلا إذا كانت هناك هدنة مع العدو، أما في غير الهدنة فلا يجوز)[3].

٧- أنه من باب سد الذائع التي قال بها كثير من أهل الأصول خاصة المذهب المالكي والحنبلي؛ لمنع الإفضاء إلى محرم وإن كان الشيء مباحًا في الأصل كقول الله: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ

---

(١) – جامع العلوم والحكم (ص: ٤١٥).

(٢) – الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/ ١٣٤).

(٣) – الموسوعة الفقهية الكويتية (٧/ ١١٣)، نقلًا عن: (المدونة ١٠ / ١٠٢، والمقدمات الممهدات ٢ / ٢٨٥، وفتح العلي المالك ١ / ٣٣١، ومواهب الجليل ٣ / ٣٦٤ ، و ٣٧٩).

عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨]، فمع أن سب آلهة الكفار جائز، لكن نهى الله تعالى عنه؛ كي لا ينتقم الكفار بسبّه جل وعلا، وأيضًا كدليل آخر لّما كان اليهود يتخذون كلمة راعنا كسب وسخرية حرم الله على الصحابة استعمالها في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا} [البقرة: ١٠٤]، بل ما تحريم النظر الحرام إلا خشية الوصول لما بعده من فاحشة، فكذلك إدخال الشبكات للبيوت دون رقابة ومتابعة مستمرة، أو الاستثمار فيها ببثها في المدن والقرى دون قدرة على حجب الحرام عنها، أو بيع كروت ورصيد النت كله من هذا الباب.

حكم إدخال الشبكات في البيوت

عجبي لذلك الأب الذي يخرب بيته بيده، ويغوي أهله بنفسه، ويفسدهم بماله، ويعبث بهم بمثل الواي فاي وهنا أتحدث عن من أدخل هذه الأجهزة بيته ثم لم يتابع، ولم يراقب، ويحاسب، فضاع وأضاع، وفسد وأفسد، وهلك وأهلك، ويصدق فيه قول الله: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ} [الحشر: ٢]، فالواجب على من أدخله هذه الشبكات إلى بيته أن يراقب أهله، ويتابعهم بنفسه، ويتخولهم بوعظه ونهيه وزجره، وإلا كان مشتركًا في الإثم: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢]، وتأمّل بما ختم الله الآية الكريمة!.

حكم شراء الأب جوالات لأولاده

الحقيقة التي يجب أن تقال: أن مشكلتنا ليست في النت والجوالات وهذه الأمور التي فيها خير وشر، بل في المراقبة والمتابعة الأبوية التي قد تنعدم في أكثر البيوت، وبالتالي يكون الدمار على الأبناء حياتهم كلها، ومن ذلك الجوالات بما تحمل في طياتها من خبايا وخفايا، وبرامج وتطبيقات إذا لم يستطع الأب أن يتابع ولده، ويتحكم في هاتفه فلا يحل له أن يفسد حياته، ويدمر مستقبله.

حكم مراسلة النساء والخطيبة

لقد تحدثت في كتابي هذا عن فتنة النساء بكل أشكالها وأنواعها بما يكفي ويغني، لكن هنا أتحدث عن حرمة مراسلة الرجال للنساء في الأصل إلا في نطاق ضيق، وبكلام عام كموظفة في العمل يُعلمها عن الدوام، أو النظام ونحو هذا مما يمكن أن يحدثها أمام أي قريب لها، وإلا فلا يحل مهما كان الداعي، ومنها خطيبته بل الفتنة أشد، والخطر أعظم، والشبهة أعمق، والشهوة بلا ريب تهيج، والقلب يهوى، ثم تكون سلاسل شيطانية، فلا يحل للخطيب أن يراسل أو يتصل بخطيبته.

حكم اشتراك النساء في مجموعات الرجال

ومن المحرمات العصرية المنتشرة التي أراها في هذا الصدد هو اختلاط الرجال والنساء في المجموعات أو القروبات أو أي نوع من هذه الأنواع بشرط يظهر رقمها فكله لا يحل، أما إذا لم يظهر الرقم فلا حرج كقنوات تليجرام، وذلك يعد من الاختلاط المعنوي الآثم، خاصة مع وجود كثير من العابثين الذين يأخذون الأرقام، ثم يقومون بمراسلتها عبر الخاص، واصطيادهن بكلام معسول، ثم صور، وحرام، ومواعدات، وفاحشة.

حكم مراسلة الزوجة لزوجها

مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، والتطبيقات المرئية المباشرة، وبُعد الزوج عن زوجته في بلاد المهجر مثلًا، أو داخل الوطن الواحد فرضًا فيأتي سؤال بحكم تكشف الزوجة لزوجها فأقول: ليست المشكلة في تكشفها له؛ لأنها زوجته، لكن في الوسيلة الناقلة إليه؛ فقطعًا هي غير مأمونة، وبالتالي فهي تحتفظ بالصور والتسجيلات ويمكن نشرها مباشرة، أو مستقبلًا، بل قطعًا -كما أكده خبراء- أن كل شيء يصل أولًا للشركة الوسيطة صاحبة التطبيق، ثم هي تبثه للآخر (الزوج) في مكان آخر، ومعناه أن الشركة بموظفيها يشاهدون كل شيء، ويستطيعون الاحتفاظ بكل شيء، فلا يحل للزوجة أن تتكشف أمام زوجها عبر النت، فضلًا عن ما بعده من استمناء، وإثارة غرائز بعض خاصة الزوجة التي قد يصل الحال بها للزنا خصوصًا مع طيلة غيبة الزوج.

حكم قراءة القصص والروايات الجنسية

وغير بعيد عن الصور والفيديوها القصص والروايات التي تحكي الحرام، وتجاهر بالعصيان، وتتحدى الرحمن، وتتحدث عن الفجور والفسق والزنا والخنا وما يحصل بين الزانييَن، وإذا كان الشرع حرم على الزوجين التحدث بما يحصل بينهما فكيف أن يتحدث الزاني بما يحصل بينه وبين زانيته فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا سَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ : "مَجَالِسَكُمْ، هَلْ مِنْكُمْ الرجل إِذَا أَتَى أَهْلَهُ أَغْلَقَ بَابَهُ، وَأَرْخَى سِتْرَهُ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُحَدِّثُ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ بِأَهْلِي كَذَا، وَفَعَلْتُ بِأَهْلِي كَذَا"، فَسَكَتُوا فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: "هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ، فَجَثَتْ فَتَاةٌ كَعَابٌ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا وَتَطَاوَلَتْ لِيَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَيَسْمَعَ كَلامَهَا فَقَالَتْ: إِي وَاللَّهِ إِنَّهُمْ يتحَدّثُونَ، وَإِنَّهُنَّ لَيتحَدّثْنَ فَقَالَ ﷺ: "هَلْ تَدْرُونَ مَا مَثَلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: إِنَّ مَثَلَ مَنْ فَعَلَ شَيْطَانٍ وَشَيْطَانَةٍ لَقِيَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ بِالسِّكَّةِ قَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ"، رواه أحمد، وأبو داود، وفي مسند البزار وأحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (" أَلَا عَسَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَخْلُوَ بِأَهْلِهِ، يُغْلِقُ بَابًا، ثُمَّ يُرْخِي سِتْرًا، ثُمَّ يَقْضِي حَاجَتَهُ ثُمَّ إِذَا خَرَجَ حَدَّثَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ أَلَا عَسَى إِحْدَاكُنَّ أَنْ تَغْلِقَ بَابَهَا وَتُرْخِيَ سِتْرَهَا فَإِذَا قَضَتَ حَاجَتَهَا حَدَّثَتْ صَوَاحِبَتَهَا " فَقَالَتِ أَسْمَاءُ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ - رضي الله عنها -: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُنَّ لَيَفْعَلْنَ، وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ، قَالَ: "فلَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانٍ لَقِيَ شَيْطَانَةً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ ثُمَّ انْصَرَفَ وَتَرَكَهَا ")

وللبخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ " وروى البخاري في الأدب المفرد: عَنْ عطاء بن أبي رباح: "أَنَّهُ كَانَ يَرَى النَّكَالَ عَلَى مَنْ أَشَاعَ الزِّنَا، يَقُولُ: أَشَاعَ الْفَاحِشَةَ"

حكم مشاهدة تناكح الحيوانات

يسأل بعض الإخوة كذلك عن حكم مشاهدة مناظر تناكح الحيوانات ولا شك أنه أهون من مشاهدة محرمات البشر لكن هو يجر قطعًا إلى ما بعده، وبالتالي فيدخل في الحرام فلا يحل مشاهدته.

حكم وضع خلفيات (بروفايل) لصور النساء

يستعرض بعضهم بصورة حسابه الشخصي لامرأة، أو لأياد منقوشة، أو لأي عضو فاتن، وهو لا ريب من المحرمات، والعجيب أنه لن يستفيد سوى كسب الذنوب من خلال نظر كل واحد لهذه الصورة، فله مثل ذنوبهم دون أن ينقص من ذنوبهم شيئًا كما ثبت عند مسلم في صحيحه: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"، ويعد من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور: ١٩]!.

حكم التصوير بين الزوجين

من بلاوي العصر، وحوادث الدهر، ومما لا يدخل في العقل أن يقوم زوج بتصوير نفسه مع زوجته أثناء جماعهما كما سُئلت عنه، وهو لا يحل؛ لما لذلك من خطر شديد، وعدم أمان أي شيء في عالم النت والجوالات.

المراجع

القرآن الكريم

تفسير ابن كثير المسمى تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ -٧٧٤ هـ]، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م، (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني.

تفسير السعدي المسمى: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، [٢٢٤ - ٣١٠ هـ]، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢٤.

الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م، المحقق: هشام سمير البخاري

تفسير الفخر الرازي، دار النشر / دار إحياء التراث العربي.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي.

تفسير النسفي، دار النفائس ـ بيروت ٢٠٠٥م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ١٣٩٣ هـ، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م.

صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تأليف: محمد بن فتوح الحميدي، دار النشر / دار ابن حزم - لبنان/ بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. علي حسين البواب.

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، المؤلف : محمد فؤاد عبد الباقي، دار النشر / دار الفكر ـ بيروت. مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبَة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م .

الجامع الصحيح سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: مكتب تحقيق التراث، الناشر: دار المعرفة ببيروت، الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ.

سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - مَحمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٠م.

سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، الناشر: دار الفكر – بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣م، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

المعجم الأوسط للطبراني، المؤلف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

جامع الأصول في أحاديث الرسول المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفي: ٦٠٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، الطبعة: الأولى.

سنن الدارقطني، المؤلف: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦ – ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

سنن الدارمي، المؤلف: عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي خالد السبع العلمي.

المجتبى من السنن، المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

السنن الكبير أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور / عبد السند حسن يمامة)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

شعب الإيمان، لمؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

صحيح ابن خزيمة، المؤلف: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ – ١٩٧٠م، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي.

صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي.

السلسلة الصحيحة، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف الرياض

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي.

المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

سبل السلام في شرح بلوغ المرام المؤلف: محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني (المتوفى : ١١٨٢هـ)، الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة : الرابعة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م

العرف الشذي للكشميري المؤلف: محمد أنور شاه ابن معظم شاه الكشميري الهندي، الطبعة الأولى، المحقق محمود أحمد شاكر، المدقق مؤسسة ضحى للنشر والتوزيع.

شرح السنة للإمام البغوى متنا وشرحا المؤلف: الحسين بن مسعود البغوي، دار النشر: المكتب الإسلامي - دمشق ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة : الثانية، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش.

شرح سنن ابن ماجه للسيوطي المؤلف: السيوطي، عبدالغني، فخر الحسن الدهلوي، الناشر: قديمي كتب خانة – كراتشي.

عون المعبود شرح سنن أبي داود المؤلف: محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

كشف اللثام شرح عمدة الأحكام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر – سوريا ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

البدر التمام شرح بلوغ المرام (٧/ ١٣) دار هجر، الطبعة: الأولى.

جامع العلوم والحكم، المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الناشر : دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

إغاثة اللهفان من اللهفان لابن الجوزي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ – ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (اسمه الآخر) حققه: مُحَمَّد أجمل الإصْلاَحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

الفوائد لابن القيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية.

مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية دار الكتاب العربي بيروت.

زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله)، الناشر: دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٤، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

ذم الهوى لابن الجوزي تحقيق مصطفى عبد الواحد.

الثبات عند الممات لابن الجوزي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، تحقيق: عبد الله الليثي الأنصاري.

تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر لابن الجوزي.

صيد الخاطر في التخلي من الأمراض النفسية والتحلي بالآداب الشرعية والأخلاق المرضية للإمام ابن الجوزي مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com

الفتاوى الكبرى لابن تيمية المحقق: محمد عبدالقادر عطا - مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، المحقق: محمد زهير الشاويش.

طوق الحمامة في الألفة والألاف المؤلف : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار النشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت / لبنان - ١٩٨٧ م، الطبعة : الثانية، تحقيق : د . إحسان عباس.

الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي، دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة: الأولى، عام ١٤٠٨هـ-١٩٨م.

مداواة النفوس لابن حزم، الناشر دار الآفاق الجديدة، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكان النشر بيروت.

الورع لعبد الله بن محمد أبو بكر القرشي البغدادي، الدار السلفية – الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ – ١٩٨٨م.

حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

صفة الصفوة، لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ – ١٩٧٩م، تحقيق محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي.

غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي.

العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد، مكتبة دار الأقصى – الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م، تحقيق: خضر محمد خضر.

الأحكام الوسطى من حديث النبي المصطفى، المؤلف: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: ٥٨١ هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، صبحي السامرائي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

إحياء علوم الدين، المؤلف : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر : دار المعرفة - بيروت .

الوهم والإيهام في كتاب الأحكام بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، المؤلف : علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي، أبو الحسن ابن القطان (المتوفى : ٦٢٨هـ)، المحقق : د. الحسين آيت سعيد، الناشر : دار طيبة – الرياض، الطبعة : الأولى ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، المؤلف : عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر : دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة : الرابعة.

سابغات للتعامل مع الشبهات لأحمد السيد الطبعة الثالثة تكوين للدراسات والأبحاث.

أمراض القلوب، الناشر المطبعة السلفية، سنة النشر ١٣٩٩هـ، مكان النشر القاهرة.

وعدد من كتيبات، ومواقع، وخطب، ودروس، ومحاضرات، وندوات... حول عنوان الكتاب.

الفهارس

صدر للمؤلّف:

١- الأحاديث الصحاح فِي أذكار المساء والصباح وأحكامها الفقهية (٣٣٧ صفحة).

٢- فصل المعترك فِي حديث: "وإن جلد ظهرك، وأخذ مالك"، أحاديث طاعة الحكام فِي ميزان المحدثين والفقهاء (٣٢٠ صفحة).

٣- مختصر الكلام فِي أحكام الرؤى والأحلام (١٦٠ صفحة).

٤- الإلمام بفتاوى الصيام كتاب شامل لكل ما يسأل عنه المسلم فِي رمضان (٢٧٥ صفحة).

٥- زجر الأنام عن النظر للحرام ومتعلقاته من مسائل وأحكام(٦٤٤صفحة)، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

كما له سلسلة متصلة من الكتيبات التي تناقش أمس ما يحتاجه الناس اليوم، وهذه السلسلة بعنوان: سلسلة مختصرات فقهية ميسرة، وهي متسلسلة حسب ما يلي:

٦- أحكام العشر من ذي الحجة وفضائلها (١).

٧- التحرير في حكم التصوير (٢).

٨- حكم العمل في شركة جوسيال (٣).

٩- دفع الأوهام عن مولد خير الأنام عليه الصلاة والسلام (٤).

١٠- شهر رجب في ميزان الفقه الإسلامي (٥).

١١- أحكام الست من شوال (٦).

١٠-التبيان في فضائل وأحكام شعبان (٧).

١١- مختصر أحكام سجود السهو (٨).

١٢-مسائل في الجمع بين الصلوات لعذر المطر (٩).

١٣-أحكام القنوت في النوازل (١٠).

١٤-إعلام الساجد بحكم رفع الأصوات في المساجد (١١).

١٥-موقف الإسلام من السياسة مناقشة مقالة العلمانيين البدعية: لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة (١٢).

١٦-فصل الخطاب في حكم سب الأصحاب (١٣).

١٧-أحكام العِيدَين (١٤).

١٨-الدرة المرضية في أحكام الأضحية (١٥).

١٩-يوم عاشوراء فضائله وأحكامه (١٦).

٢٠- الحكم الشرعي في التسويق الشبكي (١٧).

المؤلف :

❖- مجاز في الفتوى، والتدريس، والدعوة من فضيلة مفتي الديار اليمنية القاضي/ محمد بن إسماعيل العمراني.

❖- زكّاه أبرز وأشهر العلماء، منهم مفتي اليمن، ورئيس هيئة علماء اليمن رئيس جامعة الإيمان، ونائبه، وغيرهم....

❖- حصل على إجازات مختلفة، عامة، وخاصة من كبار العلماء، وفي شتّى العلوم الشرعية منها: إجازة في القراءات السبع، وإجازة خاصة برواية حفص عن عاصم، والكتب الستة، والعقيدة، والإيمان، واللغة، والفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والحديث، والمصطلح، والتوحيد، والتجويد، والسيرة، والنحو، والصرف، والتصريف، وعلم البلاغة(معان، وبيان، وبديع)، والتاريخ، والآداب، والأدب،والمنطق، والحساب، والأذكار، والأدعية، والأخلاق، والفلك...

❖- له إجازات في المذاهب الأربعة، وإجازات في جميع مصنفات بعض العلماء كمصنفات ابن الجوزي، والسيوطي، والخطيبالبغدادي، وابن حجر العسقلاني، والبيهقي.

❖- أستاذ بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، وجامعة الإيمان، وجامعة العلوم والتكنولوجيا بالمكلا.

❖- نال عضوية الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين عام 2019م.

وتجد سيرة الشيخ الذاتية المطولة في موقعه على الرابط

https://alsoty1.org/?p=1473